

الكرهب الصليبية

وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب

تأليف

الدكتور عزيز سوريال عطية

ترجمة

الدكتور فيليب صابر سيف

راجعته الأستاذ أحمد خاكي



دار الثقافة

طبعة ثانية

صدر عن دار الثقافة — ص.ب ١٢٩٨ — القاهرة
جميع حقوق الطبع محفوظة للدار (فلا يجوز أن يستخدم إقتباس أو إعادة نشر
أو طبع بالرونيو للكتاب أو أي جزء منه بدون إذن الناشر، وللناشر وحده
حق إعادة الطبع)
١٠/٢١٦ ط ٢ (أ) / ٣ — ٥ / ٧٢ — ٩٠
رقم الإيداع بدار الكتب ٩٠/١٨٦٨
دولى ٣ — ١١٨ — ١٦٦ / ٩٧٧
طبع بمطبعة دار الجيل للطباعة

هَذَا الْكِتَابُ

بحث تاريخى عميق فى فترة تلاقى فيها الشرق والغرب
فتلاحمت الجيوش لكن الثقافات التقت وانفتحت أسواق
التجارة •

وهذا الموضوع يهم المشتغلين بالعلاقات السياسية فى
عصرنا حيث أن جذورها تمتد الى العصور الوسطى • كما يهم
الطالب الجامعى الذى يدرس تاريخ الحروب الصليبية والعلاقات
التجارية والثقافية بين شقى العالم الوسيط الاسلامى
والمسيحى •

كاتب هذا الكتاب أستاذ متخصص فى تاريخ العصور
الوسطى ، ظل يدرس ويحاضر عن هذه الفترة من التاريخ فى
جامعات مصر وانجلترا وألمانيا وأمريكا سنين طويلة حتى صار
حجة فى هذا الموضوع ، وقد نشرته مطبعة جامعة انديانا
وجامعة اكسفورد وأعيد طبعه خمس مرات بالانجليزية •
وقد ترجم الى عدة لغات أخرى أهمها الألمانية •

نرجو أن تجد أيها القارئ العزيز فى هذا الكتاب ما تبغى
من دراسة علمية نزيهة عميقة •

دار الثقافة

محتويات الكتاب

الموضوع	صفحة
الفصل الأول :	
المسألة الشرقية وحلولها الأولى	٧
معنى الصليبية	٧
الحلول اليونانية والرومانية للمسألة الشرقية	١٣
عصر الحجاج	٢٨
أوروبا والشرق قبيل الحروب الصليبية	٣٥
الفصل الثاني :	
حل الفرنجة للمسألة الشرقية	٤٣
مفاهيم قديمة وأفكار جديدة	٤٣
المرحلة الأولى للصليبية	٤٦
المرحلة الثانية للصليبية	٥٨
المرحلة الثالثة للصليبية	٦٤
الفصل الثالث :	
الحروب الصليبية في القرون الوسطى	٧٩
المبشرون والأرساليات	٨٢
عصر الحروب الصليبية الأخيرة	٨٨
القرن الخامس عشر	٩٩
الفصل الرابع :	
النتائج : مناهضة الصليبية	١٠٧
مناهضة الحروب الصليبية	١٠٧
مناهضة الصليبية	١١٧
مناهضة المصريين للصليبية	١٢٤
مناهضة الأتراك للصليبية	١٣٣
نظرة الى الماضي	١٤٦

الفصل الخامس :

١٥٠ قصة تجارة العصور الوسطى في الشرق الأدنى
١٦٢ الطرق والنقل
١٦٦ الموالد والأسواق
١٧١ السلع
١٧٥ النقود والتسليف والمصارف
١٨١ نظام التجارة
١٨٥ التنظيمات والرأسماليون
١٩٣ التدهور

الفصل السادس :

١٥٥ الثقافة العربية والغرب في العصور الوسطى
٢٠٠ عصر الترجمة
٢٠٦ الفلسفة واللاهوت
١٣ العلوم والرياضيات
٢١٨ الفلك
٢٢٢ الجغرافيا
٢٢٥ الطب
٢٢٨ الفن والعمارة
٢٣٣ اللغويات (علم اللغة)
٢٣٥ أدب اللغة
٢٣٨ التعليم
٢٤٤ خاتمة
٢٥١ (ملحق) مصادر دانتى والقصة الإسلامية
٢٥٥ الأسماء الأجنبية ومرادفاتها

الفصل الأول

المسألة الشرقية وحلولها الأولى

معنى الصليبية

اختلف تفسير الصليبية بين عصر وعصر ، فمفكرو العصر الوسيط المسيحيون اعتبروا الحرب الصليبية اما حروبا مقدسة تهدف الى أغراض مقدسة بتوجيه من الله الذى وكل هذه المهمة الى البابا خليفة على الأرض، واما أنها رحلة للحج الى الأماكن المقدسة وراء البحار لغفران الخطايا . وكان يطلق على كل قائم بهذه الرحلة «الحاج الفقير» . أما الحملة المسلحة لأغراض الهجوم والدفاع فكان يطلق عليها « الحج الجماعى » (*) وهي تعنى الحملة الصليبية .

وثمة تعريف مضاد ظهر فى عصر النهضة وخلال القرن الثامن عشر عندما وصف الفلاسفة العقليون هذه الحركة بأنها مجرد انفجار للتعبير عن روح التعصب التى سادت العصور الوسطى ونموذج للحماس والغيرة العمياء فى ذلك الوقت ، كما أنها تلقى ضوءا على عقلية ذلك العصر ، تلك العقلية التى لم تقبل مناقشة الآراء والمعتقدات .

Passageium generale (*)

وفد وجدت هذه الاتجاهات متنفسا مناسباً في عدوان المسيحية على الاسلام والامبراطورية الاسلامية ، لاستخلاص مسقط رأس السيد المسيح ، تحت زعامة الكرسي البابوي (١) .

على أن المؤرخ السياسى يؤثر أن يعد الحروب الصليبية وحدة ، باعتبارها حركة هجرة من الغرب الى الشرق ، أو تطلعا من الدول الغربية الى مستعمرات أكثر منها ثراء . ألم يكن النورمانديون والفرنجة (وهم العقل المدبر لهذه الحروب) مشهورين بحركات الهجرة منذ فجر العصور الوسطى فى القرنين الرابع والخامس ، أعنى فترة انحلال الامبراطورية الرومانية ؟ أما المدرسة الحديثة من المؤرخين لاقتصاديين فتصور الحروب الصليبية من زاوية مغايرة كل المغايرة فهى تراها مرحلة من مراحل التوسع الأوروبى فى الشرق ، أى صورة من صور الاستعمار فى العصور الوسطى . وفى خلال القرن الحادى عشر زاد عدد سكان فرنسا وبعض البلاد المجاورة لها فجأة حتى أربوا على الموارد المحدودة ، فليس من الغريب أن يلجأوا - لما عانوه من ضيق - الى البحث عن موارد جديدة .

وقد أوحى هذه الفكرة الى البابا « ايربان Urban » الثانى أن يشير فى خطابه سنة ١٠٩٥ الى فلسطين ، باعتبارها المكان الذى تجرى فيه أنهار من اللبن والعسل بلا ثمن . ومع تقدم مشروع الفتح الصليبي وإنشاء المملكة اللاتينية فى «أورشليم» [بيت المقدس] (٢) ، استمرت محاولات حركة المستعمرين من الغرب الى الشرق .

وتتفق آراء أهل العصور الوسطى على أن الحروب الصليبية كانت حملات عسكرية نظمها مسيحيو الغرب ، وبخاصة النورمانديون والفرنسيون تحت قيادة بابوات وذلك لاسترداد الأماكن المقدسة من المسلمين . وطوعا لاحدى مدارس الفكر استمرت الحرب المقدسة قرابة قرنين من ١٠٩٥ الى ١٢٩١ أو ١٢٩٢ وهما عمر مملكة أورشليم على الساحل السورى .

(١) See Roman

(٢) فضلنا أن نترجم Jerusalem بيت المقدس فى الغالب لأنها النص العربى الأصيل .
[المراجع]

وإذا أردنا تعريفا شاملا للحروب الصليبية فلا بد من تفصيل بعض النقاط الخاصة بطبيعة الحركة ، وكذلك بالظروف المحيطة بفهمها في عالم زاخر بالاضطرابات . ويجب علينا أولا أن ننبد ما ساد من فكرة هذه الحركة (أى الحروب الصليبية) منفصلة كل الانفصال عن التاريخ البشرى . ويجب اعتبار الحروب الصليبية عنصرا من العناصر التي أظهرت العلاقة بين الشرق والغرب . هذه العلاقة التي ترجع الى ما قبل العصور الوسطى . وكان مثار النزاع هو أن حدود أوروبا غير واضحة ، وفي الامكان وصفها بأنها الحدود الدينية للغرب في مواجهة الشرق .

والواقع أن اليونان والعقلية اليونانية والثقافة الهيلينية أعطت أوروبا وعيا واضحا للحدود الدينية التي أرادت أن تحميها بل تتوسع بها الى ما وراء شرق بحر برپونتك Porpontic المعروف حاليا باسم بحر مرمرة . ففي القرن الخامس قبل الميلاد نلاحظ معالم واضحة للانشقاق بين أوروبا بحضارتها الهيلينية وآسيا التي تمثلت في ذلك الوقت في الامبراطورية الفارسية . وقد أدى ذلك الى ما يمكن وصفه (حتى وقت مبكر من التاريخ) بأنه المسألة الشرقية وهي مسألة الحدود غير الثابتة بين اليونان وفارس ، أو بمعنى أوسع بين أوروبا وآسيا . وحتى بعد ذلك أرادت الدول المتعاقبة ، عصرا بعد عصر ، أن تجد حلا لهذه المشكلة من اليونانيين الى الرومان والبيزنطيين والكارولنجين Carolingians والصليبيين اللاتين وكذلك الحروب الاسلامية المضادة للحركة الصليبية . وتبعاً لهذا يسعنا أن نستنتج ببساطة تامة أن الحروب الصليبية في تعريفها المحدد كانت مجرد محاولة الفرنجة حل المسألة الشرقية في العصور الوسطى .

ثم يجب أن نفحص حالة أوروبا بوجه عام ، والحالة الفكرية في العصور الوسطى ، حتى يمكن تقويم طبيعة الحروب الصليبية والتطوع لها . فقد كان العصر الوسيط عصر الايمان والحرب . واستمر هذان العاملان في تحديد ملامح المجتمع بل وعقلية العصور الوسطى . ولم يجد هذان العاملان تعبيرا أفضل من الحروب الصليبية باعتبارها حربا مقدسة يقوم بها فرسان أوروبا ومجاهدو الكنيسة في توافق تام . وقد كانت الاستجابة لخطاب ايربان الثاني في نوفمبر سنة ١٠٩٥ في كليرمونت فيراند هي :

«هذا ما يريد الله» (١) وكان هذا هو التعليق الوحيد لكل فارس بالنسبة لهذه الذكرى .

ولنقف الآن عند خطاب ايربان الذى يشار اليه دائما ، ولكن من النادر أن نجده مكتوبا . هذا الخطاب الذى يجسم أمامنا الحركة الصليبية كلها . وان تحليلنا سريعا لهذه الوثيقة كما سجلها «فولتشر دى تشارتر» Fulcher de Chartres يصور لنا تعريف ايربان للحرب الصليبية . والملاحظ أن البابا وضع ترتيبا منطقيا لأفكاره بطريقة عجيبة . ولما كان البابا ايربان فرنسيا وكان يتحدث الى الشعب الفرنسى ، فانه لم يستخدم اللغة اللاتينية بل استخدم لغتهم القومية [الفرنسية] حتى لا يترك مجالا للشك فى جدية ما يقول .

١ - فى مقدمة الخطاب ، يبدأ ايربان الثانى بالناداة بالاصلاح الداخلى للحالة الأخلاقية فى أوروبا الغربية ، فيحث على الدعة ، والتواضع ، والتعلم ، والسلام ، والتيقظ ، والتقوى ، والعدل ، والمساواة ، والعفة ، لتكون هذه الحالة عدة للحركة الصليبية .

٢ - ثم ينتقل فى خطابه الى التصديق على « الهدنة الالهية » التى تمنع خرق السلام بين المسيحيين من مساء الأربعاء حتى شروق شمس يوم الاثنين من كل أسبوع والا حكم على المسيحي بأنه « أناثيما » أى محروم وذلك حتى تزداد المحبة بين سكان الغرب . وهذا هو المقياس المبدئى لاتخاذ عمل موحد فى الشرق .

٣ - ثم يقدم بيانا لحالة الشرق ، فيوضح أن انتصار العرب والأتراك فى أرض رومانيا (أى الامبراطورية البيزنطية) الذى بلغ هلسبوننت [الدردنيل] (٢) يدعو الى اتخاذ خطوة من الغرب المسيحى لتحرير تلك البقاع ، وكذلك الأراضى المقدسة من نير الكفرة الطغاة وأن يحمى المسيحيين الشرقيين الذين ساءت حالتهم .

٤ - ثم يعلن «ايربان» الحرب الصليبية فى كلمات حركت العواطف عندما قال : « وبناء على ذلك فانى ، أو بالحرى فان الله يطلب اليكم

Deus lo volt (١)

Bras de Saint Georges Hellispont (٢)

باعتباركم من أتباع المسيح أن تنشروا هذا [أى الخطاب] فى كل مكان لث الناس من كل الطبقات : الفرسان والجنود المشاة ، الأغنياء والفقراء ، لمد يد العون سريعا لهؤلاء المسيحيين ، وأنتمحوا ذلك الجنس الدنيء من أرض اخوانكم ! وأنا أقول ذلك لمن هو حاضر الآن ، ليعلنه لمن هم غائبون . وفوق هذا فان ذلك ما يأمر به المسيح » .

٥ - ان مكافأة كل من يحمل الصليب هو نيل الغفران فوراً لجميع خطاياهم « وهذا ما أمنحه لكل من يذهب ، بحكم السلطان الذى خولنى الله اياه » .

٦ - ثم يطلب الى جميع الأمراء أن يجتنبوا عدااء بعضهم لبعض ، وأن يحولوا قتالهم نحو الشرق . « فليحارب كل واحد البرابرة كما يجب بدلا من محاربة الأخوة والأقرباء » .

٧ - وفى ختام الخطاب يطلب البابا الى الناس أن يبدأوا فوراً ، فيحذر كل حملة الصليب من التسويف ، ويحثهم على أن يؤجروا أراضيهم ويجمعوا المال اللازم للنفقات « وعندما ينتهى فصل الشتاء ويأتى الربيع يمشون فى طريقهم ، وليكن الله لهم هاديا » .

وهذه الدعوة للتسلح توضح العلة فى انتشار فكرة الحروب الصليبية التى يمكن تعريفها بأنها كانت صراع « الأمم المتحدة » المسيحية فى العصور الوسطى ضد كل قوى الاسلام ، حيث تركز النزاع حول « اورشليم » وأرض الميعاد التى يدعى كل من الشرق والغرب لنفسه حق امتلاكها .

لقد بدأت الحروب الصليبية باعتبارها حرب الايمان والعقيدة من الطرفين ، فكانت مبارزة كلامية تحولت الى حرب فعلية . ولم يكن يدور بخلد كل من الغريمين روح الأثرة والتوسع . ومن أجل هذا وجد المتعصبون فى الغرب من يعينهم فى الشرق من حيث الدعاية والحرب . ولقد خلد اسما ريتشارد قلب الأسد وصلاح الدين بما كتب فى بيان أعمالهما الفروسية الباهرة وما أبديا من بطولة وبسالة ، وما نهضا به

من شريف الأغراض . ومن ناحية أخرى يعد من الخطأ أن يفنec المرء أعمال البطولة التي قاما بها قد اقنصرت على سنوات الحروب الصليبية ويمدنا كل من أسامة بن منقذ (١٠٩٥ - ١١٨٨) عندما أرخ حياته وكذلك ابن القلانسي (الذي توفي سنة ١١٦٠) في أخبار دمشق ، بأه متعددة للأوضاع التي اتخذتها الحروب الصليبية والهجمات المضادة على حدود دولة أورشليم . فلم تكن حربا تقوم على الخداع والحقد والخ والتخريب كما كانت مجاربة المسيحيين بعضهم بعضا في أوروبا . ف سبيل المثال لو وازنا بين الرعب والفضاعة والتدمير الذي حدث بين أنجل وفرنسا في حرب المائة عام في أواخر العصور الوسطى وبين المناوشة المحلية بين أمراء المسلمين والمسيحيين في الأراضي عبر البحر للصد الفرق الهائل في روح الحرب .

بل أكثر من ذلك أن الحروب الصليبية يمكن أن تشرح على أنه دبلوماسية سلمية . وهذا الاتجاه يمثل في العلاقات بين شرلمان وهار الرشيد في بدء القرن التاسع ، وكذلك بين فردريك الثاني والسله الكامل (من الأيوبيين) عام ١٢٢٩ ، وتبادل السفارات بين الملك - Jaime الثاني ملك أراجون المنطقة الواقعة بين فرنسا وإسبانيا الآ والسلطان الناصر محمد بن قلاوون (من المماليك) خلال العقد الآ والناني والثالث من القرن الرابع عشر .

اذن فالحروب الصليبية كانت محاولة الفرنجة حل المسألة الشر في العصور الوسطى ، عن طريق الحرب تارة والسلم تارة أخرى . و مراعاة المحاولات التي نمت في عصور سابقة تلقى أضواء على تار الحركة التي تمتد جذورها الى عهود سابقة . وتختلف أسباب نش الحروب من حالة الى حالة ، ولكن يمكن ملاحظة أن تشخيص المصد الأساسى لجميع وجوه المشكلة يحمل دلائل الاستمرار . وأن الأساس ال بنيت عليه كل هذه التحرشات مرده الى العقل اليوناني ، وتراث المث الهلينية التي ظلت ضاغطة على الأوروبيين لأوائل ، وكانت تهدف الى محاص العالم كله .

الحلول اليونانية والرومانية للمسألة الشرقية

كانت الحروب الناشبة بين اليونانيين والفرس فى آسيا لاختلاف الثقافتين أول فصول الصراع بين الشرق والغرب . ولقد ظهر الصدام بين الثقافتين أو بالحرى بين أكبر قوتين فى ذلك الوقت فى ميدان ماراثون سنة ٤٩٠ ق.م . وسلاميس سنة ٤٨٠ ق.م . وقد انتهى هذا الصراع عام ٤٤٩ ق.م . فى صلح كالييه الذى أكد تفوق أبناء هلاس على جيرانهم حول بحر ايجه من الأوربيين والآسيويين . وعندما اتسعت تخوم اليونان برزت فكرة اخضاع العالم القديم كله للاغريق . وقد وصلت تلك الفكرة الى أقصى مدى لها فى عصر الاسكندر الأكبر ٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م .

فلم يكن الاسكندر الأكبر مجرد قاهر العالم ولكنه كان فيلسوفا ، فقد كان نلميذا مخلصا لأرسطو . وقد رأى أن سيادته للعالم خطوة نحو توحيد العالم كله تحت لواء الثقافة الاغريقية . وعندما تم توحيد مدن اليونان ، قاد الاسكندر المقدونى حملات الى سوريا ومصر حيث قوبل بترحاب من الناس ، اذ اعتبروه محررا لهم من نير حكم الفرس البغيض . وفى عام ٣٣٢ ق.م . أسس مدينة الاسكندرية فى مصر التى أصبحت مركزا للثقافة الاغريقية تحت حكم البطالسة الذين جاءوا من بعده . ثم زحف الاسكندر شرقا الى آسيا . وفى السنة التالية [أى ٣٣١ ق.م] عزم داريوس الثالث فى موقعة اربلا وانتصر على المملكة الفارسية . وقد وصلت جيوش الاسكندر فى آسيا الى لاهور وسمرقند وكابول فى وسط آسيا . وقد كشفت حديثا بعض العملات اليونانية التى ترجع الى ذلك التاريخ فى حفريات حول بشاور [فى الهند] وفى الوديان الواقعة شمال عاصمة أفغانستان .

ومن عجب أن الاسكندر الذى أخضع بقاعا كثيرة فى آسيا للحكم

الاغريقى والذى زوج جنوده من بنات الفرس فى ايران لكى يخلق أمة اغريقية فارسية موحدة - من عجب أنه أصبح فى النهاية عاهلا شرقيا وارثا لداريوس ، واكرسيس ، ومع ذلك فقد بقيت النزعة الاغريقية نزعة سطحية فى ايران . وظهرت النكسة مع الثورة البارثية (*) [ثورة الفرس] Parthian ضد السلوقيين Seleucid الذين خلفوا الاسكندر فى نحو منتصف القرن الثالث قبل الميلاد .

وهكذا نقلب صفحة من القصة الطويلة للعلاقات بين الشرق والغرب، نوضح لنا احدى الصور الاولى فى تغير المسألة الشرقية . وبسقوط الولايات اليونانية وأفول نجمها فى البحر الأبيض المتوسط ، أصبحت روما حامية للثقافة الهلينية . ولقد كانت فكرة يوليوس قيصر أن يرجع حدود امبراطورية الاسكندر تحت سلطانه الى ما بعد الفرات وقد استأنف الامبراطور تراجان هذا المشروع فاستولى على عاصمة بارثيا Parthian Capital والمدائن Ctesiphon فى عام ١١٦ م وامتد السلام الرومانى Pax Romana الى الخليج الفارسى [الخليج العربى الآن] . ولكن هذا التقدم سرعان ما فشل عندما قام اليهود بثورة عام ١١٧ م فى الأقاليم الرومانية الواقعة فى افريقيا وآسيا وكان هذا أول حادث مدون يمكن أن يوصف بأنه حرب دينية .

ومن الجانب الآسيوى ظهرت القومية الفارسية بصورة قوية خلال حكم الأسرة الساسانية (٢٢٤ - ٦٤٠ م) الذين حاربوا الرومان والبيزنطيين أربعة قرون ونجحوا فى ذلك . وتم اذلال سلطة روما فى عصر شاهبور الأول (٢٤١ - ٢٧٢) الذى أسر الامبراطور فالريان فى أثناء احدى الغارات على مدينة الرها Edessa عام ٢٦٠ م . وقد خلد الفرس هذه الهزيمة - التى اعتبرت كارثة فى تاريخ الرومان - بصورة بارزة منقوشة على جدار احدى الخرائب المجاورة لمدينة برسابوليس Persapolis القديمة وتمثل اللوحة فالريان راكعا أمام شاهبور وهو

(*) كانت مملكة بارثيا تقع فى جنوب شرق بحر قزوين .

ممتط ظهر جواده والملك الفارسي بشهامته الشرقية يبقى على حياة خصمه .
ومنذ ذلك التاريخ أتخذ شاهبور لقب « ملك ملوك ايران وغيرها » وفي
بعض الأحيان كان يضاف الى ذلك اللقب « ملك الكون ، ابن الآلهة ،
أخو الشمس والقمر ، وصديق النجوم » .

وتدل الحفريات في أنقاض مدينة دورا [أو تلؤل دورا] Dura-Europus
الواقعة على نهر الفرات شرق تدمر Palmyra والتي ازدهرت ما بين
القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الثالث الميلادي ، على مدى تغلغل الثقافة
الرومانية الهيلينية داخل تلك الأراضي التي عرفت باسم مسبوتاميسا
[وهي بلاد ما بين النهرين وهي العراق اليوم] . ومع كل هذا التأثير
نلاحظ أن قيام امبراطورية تدمر التي حكمها الملكة « الزباء » (*) في
شكل روماني كان مقدمة للحركات الآسيوية تحت حكم كسرى برزويه
الساساني ثم فتوح العرب للامبراطورية الفارسية والامبراطورية
البيزنطية بعد ظهور الاسلام في القرن السابع الميلادي . وقد كان لذلك
انعكاسات لا حد لها في مجرى التاريخ .

الحل البيزنطي

واذا تركنا التاريخ القديم وخطونا الى العالم خلال العصور الوسطى
وجدنا أنفسنا أمام ظروف مختلفة بعض الاختلاف . فلقد كانت المسألة
الشرقية مشكلة أجناس وثقافات . ولكنها أصبحت في العصور الوسطى
مشكلة دينية . لقد شهد الجزء الأول من القرن السابع للميلاد أنول نجم
الدولة الساسانية . وبعد أن مرت فترة هدوء وتعايش سلمي بين
اليونانيين والفرس ، قرر بارفز كسرى الثاني ملك الفرس أن يثأر لصديقه
البيزنطي الامبراطور موريس اذ قتله فوكس Phocas واستولى على
عرشه عام ٦٠٢ . وفي عام ٦٠٣ قامت الحرب وهزم فوكس في موقعة
أركسامون Arxamon بين نصيبين والرها في شمال العراق ، واستولى

Palmyrene Empire of Zenobia (*)

على الموقع المحصن « دارا » عام ٦٠٥ . وقد دمر الفرس حدود سوريا وفلسطين عام ٦٠٨ . وفى عام ٦٠٩ اخترق الفرس آسيا الصغرى حتى وصلوا الى خلقيدونية التى كانت تشرف على البسفور على مرأى من القسطنطينية .

واستمرت الحرب عشرين عاما . وخلال هذه الفترة استولى هرقل على العرش البيزنطى (٦١٠ - ٦٤١) وعرف بشجاعته وخبرته وسعة حيلته . وفى الوقت نفسه تم غزو الفرس لسوريا عام ٦١٣ وأوقعوا هزيمة منكرة بالحامية البيزنطية فى انطاكية واحتلوا مدينة مهمة هى دمشق . وفى عام ٦١٤ دخلوا بيت المقدس واحرقوا القبر المقدس وقبضوا على البطريك زكارىاس [زكريا] وعادوا الى عاصمتهم « المدائن » حاملين الصليب المقدس وكل أدوات الصليب ، وقدموها الى ملكتهم مريم النسطورية . وفى عام ٦١٩ توجه أحد جيوش الفرس وغزا مصر وتوجه جيش آخر الى البسفور لكى يغزو القسطنطينية من البحر على حين نزلت جماعة الأفار Avar من البحر وحاصرت العاصمة العظيمة من البر .

وبدا الأمر وكأنما قد ضاع كل شيء . وبدأ هرقل يفكر فى الهرب الى قرطجنه Carthage فى مقاطعة افريقية بعيدة عندما اقنع البطريك سرجيوس Sergius الامبراطور باعلان حرب مقدسة ووضع ميزانية الكنيسة رهن تصرف جنود الصليب . ووجد هرقل نفسه يحارب حربا صليبية . وقد أطلق وليم الصورى William of Tyre رئيس الاساقفة فى القرن الثانى عشر فى كتابه « تاريخ الحروب الصليبية » على حرب هرقل اسم الحروب الصليبية مع أنها حدثت قبل خمسة قرون من قيام الحروب الصليبية اللاتينية التقليدية من أوروبا الى الأرض المقدسة . واستخدم هرقل خدعة بارعة فى محاصرة أعدائه من الخلف اذ أدت الى نتائج هائلة . وفى عام ٦٢٢ أنزل قواته على شواطئ خليج الاسكندرونة عند ايسوس Issos فى مقاطعة سيليسيا أو أرمينيا الصغرى جنوب جبال طوروس وأجبر الفرس الذين حاصروا عاصمته على الانسحاب من آسيا الصغرى . وبينما قام البطريك سرجيوس - بمساعدة بطريك

بيزنطى يدعى بونس Bonus - بالدفاع عن القسطنطينية دفاع الأبطال ضد الأفار ، أرسل هرقل حملة أخرى الى الفرس فى عام ٦٢٣ • وفى هذه المرة ربك خصصومه بمهارته الفائقة وذلك عندما توجه عن طريق البحر الأسود واخترق أرمينيا الكبرى وأذربيجان وأخذ كسرى على غرة فى مكان ملكه فى جانزاك Ganzak •

وبالمثل قامت حملات أخرى فى السنوات التالية فى منطقة شمال الفرات حتى ديسمبر عام ٦٢٧ • حينما نزل هرقل فى آشور وقضى على الجيش الساسانى كله عند نينوى فى مجاورة المكان التاريخى « أربلا » الذى هزم فيه الاسكندر الأكبر غريمه داريوس قبل ذلك بتسعة قرون • وبعد ذلك اقتحم القصور الملكية فى داسجارد Dastgard فى يناير سنة ٦٢٨ واستولى على غنائم كثيرة تحوى كنزا كبيرا من الذهب والفضة وسجاجيد لا تقدر بثمن وأثوابا حريرية ومقادير كبيرة من السكر والتوابل والعطور • وخلال هرب كسرى عزله ابنه وقتله فى فبراير • وبعد ذلك فاوض هرقل القائد الفارسى شهرواز Shahrvarz على الجلاء عن باقى المواقع التى تحتلها الحاميات الفارسية • وقد تم ذلك عام ٦٢٩ ورجع شهرواز الى العاصمة المدائن ليطالب بعرش مولاة • وعلى شاطئ الفرات عند مدينة هيرابوليس Hierapolis (المدينة العربية منبج) استعاد هرقل الصليب المقدس وكل أدوات الصليب من رسل الفرس • وفى ٣٠ مارس سنة ٦٣٠ دخل أورشليم دخول المنتصر ليرجع كل ذلك الى مكانه الطبيعى عند الجلجثة [المكان الذى صلب فيه المسيح] • وهكذا انتهت الحرب الصليبية بين هرقل والفرس • وقد تحاربت الامبراطوريتان القديمتان الى حد الفناء • وبذلك مهدتا الطريق لاستمرار نجاح العرب الذى كان على وشك الحدوث •

والواقع أن اتصال العرب بكل من بلاد فارس وسوريا البيزنطية بدأ قبل ظهور الاسلام وتعتبر أسرة تدمر التى حكمت فترة قصيرة فى صحراء سوريا فيما وراء دمشق مثالا واضحا لذلك • ولكن القبائل العربية كانت على أطراف هاتين الدولتين فمملكة بنى غسان فى منطقة حوران السورية

وكذلك مملكة بنى لحم فى الحيرة على الضفة اليمنى لنهر الفرات كانوا مسيحيين [لهم نفس عقيدة « الطبيعة الواحدة » التى اعتنقها المسيحيون فى مصر] وكانوا تابعين للبلاط الملكى فى كل من القسطنطينية والمدائن ولقد صار أحد ملوك بنى لحم وهو المنذر الأول معلما خاصا لأحد الأمراء الفارسيين بهرام جور وهو الذى أصبح ملكا ساسانيا عام ٤٢٠ . وكان أحد العرب السوريين أسقفا وكان مقره البصرة . وأنشأت ابنة المنذر ديرا للراهبات فى شبه جزيرة العرب قرب حدود العراق . وفيما بين عامى ٦٠٤ ، ٦١١ أى فى صدر الاسلام قامت احدى القبائل العربية التى لم يكن لها شأن كبير وهى « بنو بكر » بحرب ضد الجيش الساسانى وهزيمته فى « ذى قار » بين واسط والكوفة على ضفة نهر الفرات . وهذا دليل واضح على أن الامبراطورية الفارسية الكبيرة لم تعد لها القدرة على مواجهة العرب الرحل .

وقد كان العرب منقسمين قبل ظهور الاسلام ولكن ظهور النبى محمد ضمهم فى دين واحد تحت لواء واحد يحدوهم مبدأ الحرب المقدسة « الجهاد » ضد غير المسلمين حتى يخضع العالم كله للاسلام . وبدأت فتوحات العرب خلال حكم أول الخلفاء الراشدين : أبو بكر (٦٣٢ - ٦٣٤) وثانيهم عمر (٦٣٤ - ٦٤٤) وأحرز المسلمون أول انتصار لهم فى سوريا فى موقعة اجنادين فى ٣٠ يوليو سنة ٦٣٤ . ثم استولوا على دمشق فى سبتمبر سنة ٦٣٥ . حينئذ أدرك هوقل خطر القوة الجديدة فأعد جيشا قوامه ثمانون ألف مقاتل . وقد أبادهم العرب فى الموقعة الفاصلة « اليرموك » أحد روافد الأردن فى ٢٠ أغسطس سنة ٦٣٦ . واستسلمت كذلك كل من حلب وانطاكية فى الشمال . أما أورشليم فقد قاومت سنتين بقيادة البطريك سفرونيس Soffronius الذى فتح أبواب المدينة عام ٦٣٨ ، بعد أن حصل على امتياز دينى وتأكيدات بسلامة السكان المسيحيين . وفى هذه الفترة نقلت جميع أدوات الصلب من القبر المقدس قبل دخول العرب . فنقل الصليب الى القسطنطينية والحربة الى انطاكية . وأخيرا سقطت قيصرية عام ٦٤٠ ، وبذلك انتهى حكم البيزنطيين فى سوريا الكبرى كلها ، ومنها فلسطين .

ومن الناحية الأخرى أى من جهة فارس ، انتهت الامبراطورية الساسانية نهاية تامة وأصبح الملك فى أيدى العرب بعد موععتين فاصلتين هما القادسية عام ٦٣٧ ونهاوند عام ٦٤٢ . وما كان من الملك يزد جرد الثالث الا أن أخذ كنزه الملكى وهرب به . ولكن لسوء حظه قتله أحد رعاياه فى كوخ خارج الجهة الشمالية لمدينة مرو ، اذ طمع فى الذهب . وأدى هذا الحادث الى إنهاء حكم الأسرة الحاكمة كما قضى على كل أمل فى تنظيم عملية مقاومة . والمعروف أن الفرس من الجنس الآرى والعرب من الجنس السامى ولذلك فان « تعريب » الفرس اتخذ صورة فى منتهى البطء . والواقع أن هذه العملية لم تتم لا فى العصور الوسطى ولا فى العصر الحاضر . ومع أن ايران احتفظت بطابعها اللغوى والعنصرى حتى يومنا هذا ، فانها أنجبت للامبراطورية الاسلامية تحت حكم الخلفاء العباسيين فى بغداد بعضا من ألمع الشخصيات التى أسهمت فى بناء الفكر الاسلامى والسياسة الاسلامية . وما حدث الميونان عندما هزمها الرومان حدث للفرس ، فقد أثروا فى العرب الفاتحين حتى فيما يتعلق بالدين فاتجهوا نحو « الشيعة » على أنها مضادة للعرب « السنيين » وهذا عامل مهم فى تكوين شخصية هذه الامة .

وبينما كانت الجيوش العربية تتطلع فى حذر الى الثراء الفاحش الذى تمثل فى القصور الساسانية ، كانت هناك حملة أخرى تسير نحو الغرب الى مصر التى كانت تعتبر أكبر منطقة منتجة للقمح بالنسبة للامبراطورية البيزنطية . وقد تم فتح مصر بسهولة نظرا لعدم اشتراك السكان الأقباط فى المعركة المرتقبة . فظالما عذب الحكام البيزنطيون المصريين أبناء النيل لأنهم أعلنوا اعتقادهم بوحدانية اللاهوت والناسوت [فى العقيدة المسيحية] ورفض ما أقره مجمع خلقيدونية بعد عام ٤٥١ . وقد فابت الكنيسة القبطية آراء المعارضين فى القسطنطينية برفض تام ولذلك وقعت اضطهادات شديدة على أقباط مصر من حكام روما وقاوم الأقباط هذا الاضطهاد فبدأوا محاولة تكوين قومية دينية سياسية خاصة بهم بلاطائل . ومن ثم كان من المستحيل أن يشتركوا فى الدفاع عن أعداء وطنهم وكنيستهم . ومن الناحية الأخرى نجد أن سماحة العرب تجلت فى الوعد

بتترك حرية دينية أوسع مدى ، مع فرض جزية أقل مما كان يحصله البيزنطيون وعلى ذلك لم يكن يضير الأقباط أن يتغير الحاكم .

وفي يوم الجمعة ٦ أبريل سنة ٦٤١ [وكان هذا اليوم يوافق اليوم المعروف باسم الجمعة الحزينة عند المسيحيين وهو ذكرى صلب المسيح] تم تسليم مفتاح حصن بابلليون (مصر القديمة) الى العرب بقيادة عمرو ابن العاص بعد شهور من الحصار والمفاوضات العقيمة التي قام بها الحاكم الاغريقي كورش [المقوقس] (١) وقد كان يجمع بين وظيفتي حاكم وبطريك مصر من جانب الدولة الحاكمة . وأعقب سقوط بابلليون فى أيدي العرب عزو الاسكندرية وتم ذلك فى ٨ نوفمبر سنة ٦٤١ . ويظهر أن الاسكندرية التي كانت تضم فى ذلك الوقت أربعة آلاف منزل وأربعة آلاف حمام ، وأربعة آلاف قصر ملكى ، وأربعين ألفا من أنرياء اليهود الذين أدوا الخراج ، بهرت العرب الآتين من الصحراء . وبسقوط أهم مركزين فى أيدي العرب ثم فتح مصر وتحولت أنظار أغنى مقاطعة تابعة للرومان والبيزنطيين نحو الشرق بدلا من الغرب .

وتحرك العرب بسرعة مذهلة نحو الغرب فاتحين كل شمال أفريقيا « مملكة الفيسغوث [القوط] (٢) الى أن عبروا جبل طارق الذى كان معروفا باسم « أعمدة هرقل » وهزموا الملك رودرك فى موقعة بالقرب من مدينة صيدونيا فى عام ١٩ يوليو سنة ٧١١ . وفى الوقت نفسه طاردت القوات العربية البيزنطيين فى الأناضول وتعقبتهم حتى مضيق البسفور . وقد شوهدت القوارب العربية فى بحر ايجه ومرمرة فى عامى ٦٧٣ ، ٧١٧ وحاصروا القسطنطينية فى أثناء حكم قسطنطين الرابع وليو الايزورى Leo the Isaurian ولكن أنقذت العاصمة بفضل التحصينات القوية وازدواج أسوارها المتينة بالإضافة الى نيران الأغريق المخيفة التي كان اختراعا حديثا فى ذلك الوقت قدمه مهندس يونانى من سوريا اسمه كالينيكس Callinicus . وبذلك كانت القسطنطينية أول مكان

(١) Cyurs

(٢) Visigothic kingdom

يقف أمام جحافل العرب التي لم تهزم قسط كما أوقف ليو الايزورى
زحف العرب عن الشرق عام ٧١٧ - ٧١٨ نحو البلاد المسيحية [فى أوربا]
كما أوقف زحفهم من الغرب شارل مارتل فى معركة بواتييه عام ٧٣٢ .
وبذلك تقهقر العرب الى جنوب جبال طوروس فى الشرق وجنوب جبال
البرانس فى الغرب .

وبعد هذه المواقع الفاصلة بدأت الحركة المضادة ببطء لاسترجاع
الأراضى المفقودة . واستمرت حرب العصابات فى اسبانيا مدة طويلة
حتى ظهرت آثارها ضد الخليفة الأموى فى قرطبة . وظلت فترة استرجاع
الأراضى المقدسة وسوريا تتردد فى أذهان البيزنطيين فى الشرق لأهداف
سياسية وليست دينية .

ولا جدوى من محاولة استطلاع كل الحوادث بين العرب والبيزنطيين
على الحدود الفاصلة بينهما ، ومعظمها كان فى الأراضى الأرمنية الواقعة
بين الامبراطوريتين . ولعل أول صدام يذكر ضد العرب وقع خلال حكم
الامبراطور نيسفورس فولكس فى الفترة . بين ٩٦٣ ، ٩٦٩ . فقد
استرجع كلا من مقاطعة سليسيا وجزيرة قبرص ٩٦٥ . وشجعه ذلك على
التقدم نحو شمال سوريا للاستيلاء على أنطاكية التي كانت تعتبر العاصمة
البونانية للشرق . وقد كان لموت أمير حلب سيف الدولة الحمدانى عام ٩٦٧
أنره أضعاف الجبهة الأمامية للمسلمين . وبعد حصار طويل استعاد
البيزنطيون أنطاكية وأصبحت حلب مقاطعة بيزنطية وأجبر حاكمها العربى
على تقديم الولاء للامبراطور وانقاذ معاهدة يلتزم فيها بالحرب ضمن صفوف
الولاء للامبراطور وانقاذ معاهدة يلتزم فيها بالحرب ضمن صفوف
الامبراطورية ما دامت الحرب ضد غير المسلمين . بل أكثر من ذلك قطع
العهد بحماية التجارة البيزنطية وكذلك التجار وأن يدفع جزية عن السكان
المسلمين فى ولايته ، وأن يبيع اقامة كنائس المسيحيين فى المدينة . وأصبح
نهر الكلب Orontes يمثل الحدود الجنوبية للامبراطورية البيزنطية بضعة
أعوام . وهكذا ارتفعت الروح المعنوية للبيزنطيين حتى أن أحد الكتاب
المعاصرين ذكر أنه لولا اغتيال الامبراطور نيسفورس فوكس عام ٩٦٩
لاستعاد حدود الامبراطورية الى الهند شرقا والى المحيط الأطلنطى غربا .

وجاء من بعد نسيفورس فوكس خليفته الامبراطور الأرمني الأصل جون تسيمسكيس John Tzimisces من ٩٦٩ حتى ٩٧٦ . واستمر في حملاته في الأراضي المقدسة بهمة كبيرة ، ولكن لم تكن لهذه الحملات نتائج ثابتة . فقد عبر نهر الكلب عام ٩٧٥ واقترب الى دمشق من ناحية لبنان . ودون أية مقاومة أو صدام قرر الوالى التركى فى دمشق واسمه افتكين أن يسلم المدينة لليونانيين وأن يدفع جزية للامبراطور وذلك لأنه كان يخشى هجوم الخليفة الفاطمى فى مصر . وما حدث فى دمشق ، حدث فى بقية مدن سوريا وفلسطين . أما بيروت فقد قاومت ولكن الامبراطور نجح فى التغلب عليها وعذب حاميتها ، ومع ذلك لم يستطع التغلب على طرابلس وعندما وصل الى الجليل لم يحاول الاستيلاء على اورشليم . ولذلك لم يطلق عليه لقب أول محرر للقبر المقدس . وقد كتب الامبراطور للملك أشوت Ashot الثالث ملك أرمينيا مبررا عدم دخوله المدينة المقدسة ، اذ طارد « الوثنيين الافريقيين » الذين اختبأوا فى القلاع الساحلية . ويتعذر علينا الآن أن نعرف الأسباب الحقيقية لهذا الانسحاب . ولعله شعر أنه غير قادر على أداء هذه المهمة . وكيفما كان الأمر فقد عاد الى معسكره فى انطاكية عام ٩٧٥ بعد أن أضاف الى الامبراطورية وادى نهر الكلب وفرض سيادته على اقليم دمشق .

وبعد ذلك أتى باسل الثانى Basil II ٩٧٦ - ١٠٢٥ ومضى على سياسة التوسع فى سوريا بين عامى ٩٩٥ ، ٩٩٩ واستطاع الاستيلاء على بعض المدن مثل رفنيه Rafaniya وحمص وشيزر Shayzar كما استعاد طرطوس ومرة أخرى ينكسر أمام طرابلس . وخلال الحرب الدائرة بين المسلمين والمسيحيين حول حلب يظهر أن المدينة استطاعت أن تتحرر من حكم البيزنطيين . فأخيرا ، فى عام ١٠٠٠ أرسل الخليفة الفاطمى «الحاكم» سفارة الى القسطنطينية تفوض فى الصلح . واتفق الطرفان على هدنة مدتها عشر سنوات على أساس الإبقاء على الحالة الراهنة فى الأراضي المقدسة . ويظهر أن الحل البيزنطى أعطى بعض المكاسب للمسيحيين اذ استمرت سوريا فى أيدي البيزنطيين ولكنهم أخفقوا فى استرداد بيت المقدس من حكم المسلمين . ومنذ ذلك التاريخ لم يحدث شئ له أهمية كبرى حتى مجيء السلاجقة الأتراك والتجار والتماس الكسليوس كومنينس المشهور من بابا روما عام ١٠٩٣ .

الحل الكارولنجي :

حاول البيزنطيون ايجاد حل لمشكلة الأماكن المقدسة الضائعة منهم وأسفر ذلك عن عمل هدنة مع الفاطميين في مصر في أعقاب الألف سنة الأولى للميلاد ، وفي الوقت نفسه كان هناك اتجاه الى حل سلمى آخر بين آخن الكارولنجي والعباسيين في بغداد . ولم يعد البيزنطيون ينظرون الى العرب على أنهم مجرد شعب من الغزاة حل مؤقتا على دولتهم في الشرق الأدنى . وقد عرض البيزنطيون موقفهم للخطر مع الكنائس الشرقية التي سموها « المنشقة » ووصفوها بالهرطوقية ، اذ أن النسطوريين واليعاقبة والأقباط تمتعوا بالاستقلال الديني تحت حكم العرب كما لم يمارسوه حين كانوا تحت حكم الامبراطورية الشرقية للرومان منذ منتصف القرن الخامس للميلاد . وقد صاحب انتشار السلام والعدل والطمأنينة في بلاد الشرق الأدنى ازدهارا مستمرا وتفوقا للحضارة العربية التي اشترك فيها المسيحيون الشرقيون بنصيب وافر . وأصبح التعايش السلمى بين المسلم والمسيحي ، وبين العربى وغير العربى أمرا مفروغا منه تقبلته الشعوب برضى ، ولم يستطع الغرب أن يفعل شيئا ازاء ذلك . وفى الوقت نفسه ضاع التأثير البيزنطى فى ايطاليا ، مما دفع الى تقارب بين البابوية ومملكة الفرنجة . هذا التحالف الى جانب رغبة البابوات فى استرجاع الأماكن المقدسة وكذلك موقف المسيحيين الشرقيين كان بلا شك نقطة البداية فى تبادل البعثات الدبلوماسية بين الفرنجة والخلفاء العباسيين خلال القرن الثامن الميلادى . ومع أن المصادر الأصلية لهذا الموضوع قليلة ، فانه من الممكن تفسير الاتجاه العام لهذه السفارات من عرض سريع للحوادث .

أرسلت السفارة الأولى الى بغداد فى عام ٧٦٢ من ملك الفرنجة بيبين الثالث Pepin III (٧٤١ - ٧٦٨) وقد عاد السفراء بعد غيبة ثلاث سنوات مع مبعوثين من الخليفة المنصور (٧٥٤ - ٧٧٥) ثانى الخلفاء العباسيين ومؤسس مدينة بغداد (مدينة السلام) . ولم يعرف طبيعة هذه السفارات الا أنها تحية أصدقاء وتبادل هدايا وبعض الاشارات الغامضة للمفاوضات. وتحددت هذه الاتصالات الدبلوماسية عندما حكم شارلمان وكانت لها أهداف

معينة . ولكي نفهم هذا الموضوع فهما واضحا ، لابد أن نستعرض هذه العلاقات خلال الوضع السياسى للعالم فى ذلك الوقت . لقد كان لنقل الخلافة من دمشق الى بغداد والتأثر بالتراث الساسانى وكذلك الحرب المستمرة مع الامبراطورية الشرقية ، كان لذلك كله أثره فى اشعال روح الكراهية التقليدية بين الفرس واليونان . ومن جهة أخرى فان تأسيس الدولة الأموية فى قرطبة باسبانيا معناه بقاء العدو الأول للعباسيين فى مجاورة مملكة الفرنجة فى الغرب . لذلك أصبح من الطبيعى لكل من الطرفين أن يتبادلا العلاقات الطيبة التى تسمح للفرنجة بأن تكون لهم مكانة فى المدينة المقدسة على أن يناوئوا الأمويين فى اسبانيا بوضى العباسيين . وبهذه الطريقة أيضا وجه الغرب نظره الى ملء الفراغ الذى حدث باختفاء التأثير البيزنطى من الأراضى المقدسة .

وفى عام ٧٩٧ أرسل شلمان ثلاثة سفراء الى بغداد وهم : لانتفريد ، وسيجسموند ، وايزاك [اسحق] اليهودى . ويحتمل أن يكون اليهودى هو المترجم للسفارة . وقد مات المسيحيان فى الطريق وبذلك اقتضرت السفارة كلها على اليهودى . وبعد ذلك بسنتين أرسل أحد الكهنة وهو زكارياس [زكريا] فى بعثة أخرى الى بطريك اورشليم . ونستطيع القول بأن الهدف من كل من المبعوثين كان انشاء تعاون بين سياستى العباسيين والفرنجة للتعدي على حدود الخلافة الأموية فى قرطبة وكذلك الحصول على امتيازات للحجاج الغربيين الى فلسطين وبسط الحماية الكارلنجية على بيت المقدس والمسيحيين فى الشرق ويظهر أن الخليفة هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩) كان موافقا على هذه الاتجاهات فى جوهرها . ومن الأمور التى لا تحتاج الى مناقشة ان هارون الرشيد كان يرغب فى تقويض عرش الأمويين فى اسبانيا .

والواقع أن فكرة الحماية على الأماكن المقدسة والمسيحيين الشرقيين تصبح فكرة يصعب قبولها اذا قسناها بمقاييس السياسة الحديثة ، ولكنها تصبح شيئا عاديا اذا نظرنا اليها نظرة القرن الثامن للميلاد . فقد كان من المعتاد خلال العهود الأولى للإسلام أن يترك الخلفاء تدبير أمور « أهل الكتاب » أو « أهل الذمة » أى المسيحيين واليهود الذين هم تحت حكم

الاسلام ، الى رؤساء كنائسهم دون خوف على سيادة العالم الاسلامي .
بل ان الحماية المسيحية في حالة شرلمان وضعت في مركز تابع للسيطرة
العربية - وربما كان هذا هو السبب الذي دعا بعض المؤرخين الى الاعتقاد
بأن هذه الفكرة [فكرة الحماية] نشأت في بغداد لا في آخن . وعلى ذلك
فلم يكن هذا امتيازاً أجنبياً اذا استخدمنا لغة عصرنا الحاضر . ومع أن
المفاوضات التي قام بها المبعوثين غير معروفة فان الحوادث في السنوات
التالية تشير الى نشوء حماية اسمية غير محدودة للنواحي الروحية
أو الدينية على أورشليم وكذلك على المسيحيين الشرقيين .

وفي نهاية عام ٨٠٠ نسمع عن راهبين شرقيين توجهوا الى روما مندوبين
عن بطريرك بيت المقدس ، أحدهما من الدير المعروف باسم « دير القديس
سابا » Sabas والآخر من دير « جبل الزيتون » . ومعهما زكريا أحد
الكهنة وحملوا معهم مفاتيح القبر المقدس وبعض الآثار المقدسة وأهدوها
الى شرلمان ويظهر أن هذا المشهد أثر في البابا الثالث الذي سارع الى
وضع تاج الامبراطورية الرومانية على رأس شرلمان في كاتدرائية القديس
بطرس ليلة عيد الميلاد عام ٨٠٠ .

وفي عام ٨٠١ أرسل الخليفة سفارة وصلت لجهورن (ميناء مدينة
بيزا) واستقبلهم الامبراطور استقبالا حافلا في مكان بين ايفريا Ivrea
فرسيلي Vercelli بمقاطعة تورين وذلك خلال عودته الى عاصمته الألمانية ،
ومما لا شك فيه أن السفيرين المبعوثين - وكان أحدهما فارسيا والآخر
حاكم مصر واسمه ابن الأغلب - أوضحا للامبراطور رغبة الخليفة أن يدع
لرأى الامبراطور ، كما أعطوه أخبار بعثاته السابقة التي يرجع أنها وصلت
الى بغداد قبل أن تقوم هذه السفارة من هناك . وقد سبقت الإشارة الى
أن الرسول الوحيد الذي وصل من البعثة المسيحية كان اسحق اليهودي
وقد عاد الى آخن عام ٨٠٢ واحتوت هدايا الخليفة على مجوهرات ، وذهب ،
وملابس ، وعطور ، وآثار مسيحية مقدسة ، والفيل الأبيض المشهور .
وفي السنة نفسها (٨٠٢) أرسل الامبراطور سفارة أخرى يرأسها رجل
اسمه رادبرت Radbert ولكن يظهر أنه حدث له مثلما حدث لسابقه
فمات أثناء الرحلة . وفي عام ٨٠٦ أرسل مندوبون من قبل بغداد .

وكان المندوبون هم : أحد المسلمين واسمه عبد الله ومعه راهبان اختارهما
توما بطريرك أورشليم . وكان اسم أحدهما فيلكس والثاني اجبالد
Egibald . وسارت هذه الرحلة فى البحر الأبيض المتوسط ثم جنوب
أوربا الى آخن محملة بهدايا نفيسة منها خيمة نسيجها متعدد الألوان
وبعض الثياب الأخرى . هذا بالإضافة الى ساعة مائية عجيبة ربما كانت
أول ساعة من نوعها فى تاريخ أوربا .

والغالب أن مركز شرملة فى الشرق ازداد ازديادا مطردا خلال هذه
الفترة . فقد أمن الحجاج الأوربيين كما دافع عن حقوق المسيحيين الشرقيين
بالطرق الدبلوماسية . وكان يرسل عشر دخله وكذلك عشور بعض
الأتقياء الأوربيين الى المؤسسات الدينية فى أورشليم ، تلك التى عمل
على صيانتها على حين بنيت المنازل الجديدة عن طريق الوكالات الامبراطورية .
فقد شيد ديرين لاتينيين فى المدينة المقدسة : أحدهما على جبل الزيتون
والآخر بقرب القبر المقدس . وأهم مؤسسة بناها الامبراطور فى « حقل
الدم » ، فندق للحجاج وكنيسة ومكتبة وسوق وقف عليها الدخل المتجمع
من اثنى عشر منزلا حكوميا . وإلى جانب ذلك بعض حقول الأرز وبساتين
الفاكهة فى وادى يهوشافاط [وادى القضاء] وقد قدم برنارد الراهب
حسابا لكل نشاط هذه المؤسسات خلال حجة عام ٨٧٠ . وباستمرار
وصول الحجاج الأوربيين تدفقت الهبات وكثيرا ما سافر مندوبون عن
بطاركة أورشليم الى أوربا لجمع المال لترميم الكنائس القديمة أو لأغراض
أخرى مثلما فعل أسقف أماسيا Amasia عندما أبحر الى أوربا لجمع المال
ليدفعه فدية للأتراك ليطلقوا من أسروهم من الراهبان عام ٩٠٠ على شواطئ
بحر قزوين ووهب محبوب الخير من الاقطاعيين ثمار ملكهم العقارى لأغراض
الخير فى الشرق . وفى بداية القرن العاشر كرس هيو (مركز توسكاني)
وزوجته جوليت دخل اقطاعياتهم فى أورفيتو سوفانا Orvieto Sovana ،
اكوابندنت Aquapendente لرعاية الراهبان فى دير القديسة مريم
اللاتينية فى أورشليم وكذلك جميع الحجاج الذين يستضيفهم هؤلاء
الراهبان .

ان الطريقة السلمية التى انتهجها شرملة فى حل المسألة الشرقية

وفرت العدل والاستقرار لجميع المسيحيين في الشرق الأوسط . وعندما كتب ثيودوسيوس بطريرك بيت المقدس الى اغناطيوس بطريرك القسطنطينية عام ٨٦٩ قال ان العرب المسلمين عادلون وانهم لا يضايقون المسيحيين بأية طريقة من الطرق . والواقع أن قصة التسامح في صدر الاسلام وكذلك على عهد الخلفاء الأولين لم تكتب بعد بكل تفاصيلها . بل أكثر من ذلك ، تعتبر صفة مميزة . ولكن مؤرخي الغرب اختلفوا فيها أو أهملوها . ومع أن هناك فترات متباعدة حدثت فيها اضطهادات فانه يجب أن يكون واضحا أن هذه الاضطهادات اقترنت بأهواء شخصية لبعض الخلفاء مثلما حدث من الخليفة الحاكم (٩٩٦ - ١٠٢٠) الذي يوصف أحيانا باسم « نبيون مصر » وذلك بسبب قسوته على المسيحيين وتدميره للقبور المقدسة عام ١٠٠٩ . ولكن « الحاكم » كان مجنونا . فقد أساء الى المسلمين أيضا وكانت نهايته مظلمة غامضة . فقد قيل انه قتل في صحراء حلوان وتولى خدمه قتله . وهناك رواية أخرى - لم تثبت صحتها بعد - تقول انه اعتزل متخفيا في دير قبطي مهجور حيث كفر عن بشاعة أعماله .

واذا نظرنا الى الغرب وجدنا أن الاسلام فيه لم يقل تسامحا . فقد دهش الاسبان عندما استعادوا طليطله وكذلك النورمانديون عندما استعادوا صقلية لأنهم وجدوا الكنائس المسيحية لم يمسه سوء كما وجدوا رجال الدين المسيحي يقومون بالشعائر الدينية دون تدخل أو ازعاج . بل ان تعاون العلماء المسلمين والمسيحيين واليهود في أيبيريا [أسبانيا والبرتغال الآن] ساعد على إبراز عصر النهضة في القرن الثاني عشر .

واذا أردنا الدقة فان عصر الارهاب في الشرق الأوسط يقتصر بالعصر الذي تسلط فيه الأتراك الذين كانوا حديثي العهد بالاسلام ولم يفهموا لغة القرآن . ولا يمكن القول بأن المسيحيين وهم تحت حكم السلاجقة الأتراك كانوا أسعد حالا مما كانوا عليه تحت حكم الامبراطورية البيزنطية وقد حدث التخريب الحقيقي للأماكن المقدسة قبيل الحروب الصليبية على أيدي هؤلاء السادة الذين اغتصبوا السلطة من الخلفاء العرب واستولوا على بيت المقدس عام ١٠٧٨ على حين انطلقت جماعاتهم تنتشر في الأناضول البيزنطي .

عصر الحجاج

برزت فكرة الحج والغفران فى عقول الأوروبيين فى العصور الوسطى
بروزا دفع بعض المؤرخين الى وصف العصور الوسطى باسم عصر الحج .
لقد كان يعتبر الحج طريقا للغفران ذا أثر فعال ؛ بل أكثر من ذلك كان
التبرك بالآثار التى يجلبها الحجاج يؤدى الى معجزات فى شفاء المرضى .
وكانت احدى صور التقوى فى الحج تلك الرحلة التى يكتنفها بعض الصعاب
والأخطار . فكانت فرصة لأولئك الذين يرغبون فى المغامرة . ويجب
علينا أن نذكر أن الحج والتبرك بالآثار أصبح شيئا محببا فى أوربا خلال
العصور الوسطى ابتداء من القرن العاشر ، وفيما يأتى وصف ما ترتب
على ذلك .

على الرغم من أن فكرة الحج لأماكن المعابد والشهداء لقيت صراعا
منذ فجر العصور الوسطى فان انشقاقا حدث بين آباء الكنيسة نحو تبرير
ذلك . فنشأت مدرستان للفكر فى هذا الشأن . الأولى بدأها القديس
باخوميوس العظيم (حوالى ٢٩٢ - ٣٤٦) من مصر العليا وأيده القديس
أوغسطينوس من مدينة هيبو Hippo (٣٥٤ - ٤٣٠) من شمال افريقيا .
وهذه المدرسة تدعو الى عدم تشجيع الحج باعتباره احدى الصور المتبقية
من العادات الوثنية . وعندما أحس القديس باخوميوس بقرب نهايته
أوصى تلميذه وخليفته تيودور أن يحمل جسده بعد موته ويدفنه فى مكان
لا يعرفه أحد حتى لا يتخذ الناس قبره مكانا للعبادة أو متابة يحجون
اليها .

أما المدرسة النائية فقد انبعت أسلوبا آخر . فالقديسة هيلانة
والدة قسطنطين حجت الى بيت المقدس خلال الفترة الواقعة بين نهاية العقد
الثالث وبداية العقد الرابع من القرن الرابع . وحملت معها الصليب
المقدس وأدوات التعذيب ووضعتها فى كنيسة بنتها قرب القبر المقدس ،

كما أسست كنائس كثيرة بعضها قريب وبعضها بعيد ، ومنها كنيسة « العليقة المحترقة » في دير سانت كاترين في شبه جزيرة سيناء (والتي كانت تسمى قبل ذلك كنيسة « استحالة الخبز والخمر الى جسد ودم ») . وقد قام البعض بالرحلات المحفوفة بالمخاطر الى فلسطين من بلاد بعيدة مثل بلاد الغال (فرنسا حاليا) وتركزت بعثة الحج المعروفة باسم حج بوردو والقديسة سيلفيا من اكويتين (المعروفة باسم سيثريا وآيثريا) ما يدل على أن زياراتهم تمت قبل نهاية القرن الرابع . ومن آباء الكنيسة الذين جندوا فكرة الحج القديس جيروم الذي قضى عشر سنوات (٣٧٢ - ٣٨٢) ناسكا جوالا حول الأماكن المقدسة في الشرق الأدنى كله . وحتى بعد عودته الى إيطاليا لم يبق هناك الا ريشما ينتهي من الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس ثم عاد بعد ذلك في عام ٨٣٥ الى تجواله في الشرق ، وانتهى به المطاف الى كهف بالقرب من كنيسة الميلاد في بيت لحم حيث علم شباب هذه الناحية . وأسس مركزا للسيدات اللاتي آتين للحج من إيطاليا .

وثمة ظاهرة جديدة حدثت نحو منتصف القرن الخامس بدأتها الامبراطورة ايودوكيا Eudocia اذا ألقت جماعة مجمع الآثار . وبدأت بالرسم الذي رسمه القديس لوقا للسيدة العذراء . وما لبثت هذه الجماعات أن صارت عادة محبة وأسست آلاف الكنائس في أوروبا الغربية وأصبحت مكرسة للآثار التي أحضرها الحجاج من الشرق . وعلى ذلك نهبت كنائس القدس ، ونهبت الآثار التي كانت بعيدة قطعه بعد قطعة على مر القرون. ويقال ان جسد القديسة كاترين أحد شهداء الأقباط في الاسكندرية في بداية القرن الرابع ، احتفظ به كاملا في دير جبل سيناء في القرن التاسع . وفي الوقت الحاضر نجد أنه لم يتبق في الدير الا الجمجمة . واليد اليسرى للقديسة كاترين ، وقد وضعتا في ناجوت أبيض ومعهما تبرعات غنية من الذهب المصوغ والأحجار الثمينة بجانب مذبح الكاتدرائية المشهورة التي بناها جسننيان لتخيد ذكرى الامبراطورة نيودورا . وأولئك الذين يزورون ما تبقى من كنيسة القديس سمعان العمودي بالقرب من حلب في شمال سوريا ويجدون عمودا عاش على قمته هذا الرجل القديس نحو ثلاثين عاما خلال القرن الخامس كان ارتفاعه أكثر من ٩٠ قدما لم يبق الا جزء منه . أما الباقي فقد حمله أولئك الباحثون عن الآثار المقدسة .

ووقفت حركة الحج في أثناء فتح المسلمين للبلاد ، ولكن حالما وضعت الحرب أوزارها ، بدأت سيول المهاجرين مرة أخرى حتى القرن الثامن . والدليل على ذلك زيارة أسقف بيرجييه Périgueux واسمه أركلف Arculf عام ٦٧٠ أى بعد ثلاث وثلاثين سنة من دخول الخليفة عمر على جمل الى بيت المقدس . وقضى الأسقف تسعة شهور في المدينة المقدسة بعد أن زار الأماكن المقدسة . والرواية المكتوبة التي خلفها لرحلته هي :

Relatio de locis sanctis ab Adamnano scripta.

وهي نموذج لبعض المخاطر المعروفة ولكنها لم تتضمن الرحلة من إنجلترا واسكتلنده وبلاد الغال (فرنسا) وإيطاليا وسائر دول أوروبا . وقد بدأت رحلة حج . وليبولد الانجلوسكسوني عام ٧٢٢ واستمرت سبع سنوات وقد دونها تحت اسم :

Vita sive potius Itinerarium S. Willibaldi episcopi Aichstadiani

ويبدو خط فاصل واضح بانشاء ما سمي بالحماية الكارولنجية الدينية على مسيحي الشرق ثم فتح الطريق من أوروبا الى سواحل الشرق الأدنى نتيجة مباشرة لذلك . فانشاء دور الضيافة في المدينة المقدسة خلال تلك الفترة كان نتيجة ازدياد عدد الحجاج اللاتينيين . وهناك ثلاث كتابات في العصر الكارولنجي تستحق الالتفات وهي رحلات فييبدلز نحو ٧٥٠ - ٧٦٠ ورحلات الراهب برنارد ٨٦٧ - ٨٧٠ ورحلات فورتمند Fortmund نحو ٧٨٠ - ٨٧٤ والأول يرجع غالبا الى أصل إيرلندي وقد عرف بزياراته ووصفه للبقاع المقدسة سواء في مصر أو في الأراضي المقدسة . أما الثاني فكان من جبل سانت ميشيل في بريتاني (١) مع رجل معروف من أسبانيا اسمه ستيفن وآخر هو ثيودمند وكان غالبا من الفرنجة . وكان عنوان ما كتبه برنارد « طريق الرهبان الثلاثة » أو « طريق الحكيم برنارد » (٢) ويحوى وصفه معلومات طريفة لبعض مناحي الحياة في مصر وفي الأراضي المقدسة في غضون القرن التاسع . وفي بيت المقدس ، سكن ثلاثتهم في

(١) مقاطعة كانت في شمال غرب فرنسا .

(٢) *Itinerarium Bernardi Sapientis*

بيت الضيافة الذى بناه شرلمان للحجاج اللاتينيين كما فحصوا محتويات مكتبة القديسة مريم . أما الثالث فكان فورتمند وكان نبيلًا من بريتانى واشترك فى جريمة دموية عاقب نفسه من أجلها فى صورة حج دائم حتى يصفح عنه الله . فكان يسير حافى القدمين واضعًا مسحا على رأسه مرتديًا ملابس خشنة ، متمنطقًا بسلسلة فى وسطه وأخرى فى ذراعيه وسار نحو الشرق . وخلال تجواله مدة أربع سنوات زار سوريا وبقي فى بيت المقدس فترة من الزمن ، ثم ذهب الى مصر وعاش مع بعض الرهبان فى ثبايد [مصر العليا] (*) Thebaid كما ذهب الى قرطجنة ثم عبر الى روما يلتمس صفح البابا بنديكت الثالث ولكن دون جدوى . وحين لم يفسد ذلك رحل مرة أخرى الى اورشليم ثم قانا الجليل ثم الى البحر الأحمر وجبل سيناء ثم الى موقع وقوف فلك نوح على جبال أرمينيا . وعند ذلك فقط أدركته الرحمة والخلص « من سلاسل الاثم التى كانت تكبله كالحديد » ومضى فى طريق عودته الى قبر القديس مارسيلينوس Marcellinus فى دير ريديون فى بريتانى .

ومع أن حروب البيزنطيين فى القرن العاشر انقصت من عدد المسافرين الى الشرق الأوسط فان أفواج الحجاج من الغرب لم تتوقف توقفا حاسما على الاطلاق . ومن بين الاقطاعيين المعروفين الذين قاموا بالحج : هيلدا كونتييسة صوابيا Sawabia وقد ماتت فى الطريق عام ٩٦٩ ، وجوديث دوقة بافاريا ، وزوجة أخى الامبراطور أوفو الأول عام ٩٧٠ ، وآخرون مثل : كونت اريشس ، وكونت فيينا ، وكونت فيرون ، وكونت آركى ، وكونت انهالت ، وكونت جوريزيا . وكذلك لم يتخلف آباء الكنيسة عن الحج ومنهم : أسقف أوليفولا Olivola اذ قام بالحج عام ٩٢٠ والقديس كونارد أسقف كونستانس Constance وقد زار اورشليم ثلاث مرات . أما القديس جون (يوحنا) أسقف بارما Parma فقد زار اورشليم أيضا ما لا يقل عن ست مرات . كما قام بالحج خمسة أساقفة ومطارنة آخرون رؤساء أديار الرهبان الآتية: سانت سايبار ، فلافجنى ، أوريللاك،

(*) المقاطعة التى تحيط بموقع مدينة طيبة القديمة وهى قرية من مدينة الأقصر حاليا .

القديسة أوبين دى أنجير d'Angérs ، ومونتييه اندير Montier-en-Der
وقد سافروا جميعهم فى تواريخ مختلفة • ولابد أنهم بما لهم من مكانة
قد اصطحبوا معهم أناسا من الطبقة الدنيا •

وتركزت حركة الحج من أوروبا الى الأماكن المقدسة فى ثلاثة مراكز
رئيسية هى : مكان القديس جيمس [يعقوب] من كومبوستلا فى أسبانيا،
والقديس بطرس فى روما ، والأماكن المقدسة فى أورشليم التى اعتبرت
أجمل المدن المقدسة جميعا • وفى القرن العاشر شجع رؤساء دير كلونى
Cluny زيارة الحجاج لاسبانيا أولا واتضح أن أديارهم فى الطريق
الجنوبى الغربى مرافىء مناسبة لجميع المسافرين الاتقياء فى هذا الاتجاه •
وبعد ذلك امتد عملهم بإنشاء أماكن مريحة فى المراكز الهامة ، وبدأوا
فى تنظيم رحلات الى الأراضى المقدسة • وقد استطاع جمع كبير من الناس
فى تلك الأيام أن يحجوا تحت رعاية الرهبان الكلونيين ومن هؤلاء مثلا
رئيس دير ستافلوت عام ٩٩٠ وكونت فرون ٩٧٧ •

وبدأ الاسكندناويون فى الحج مع رجل اسمه كولسجر Kolsegr
ووصلوا الى فلسطين عام ٩٩٢ وتبعهم هارالد هارهرأوا عام ١٠٣٤ وأفراد
من النرويج والدانيمرك خلال القرن الحادى عشر • وحتى الجزيرة النائية
ايسلند حضر منها رسول المسيحية اليها فورفالد كودرانسن فيدتغيرلى ،
وقد زار أورشليم عام ٩٩٠ •

وحتى القرن الحادى عشر كانت أفواج الحج العادى تتلاقى فى كنائس
روما ثم تعبر البحر الأبيض المتوسط من أى ميناء بحرى فى جنوب أوروبا
مثل البندقية أو نابولى أو بارى • أما الطريق البحرى فكان الى القسطنطينية
وقد فتح بعد ايمان ملك المجر ستيفن وشعبه اذ أصبحوا مسيحيين عام
١٠٠٠ • وكان يستخدم هذا الطريق عادة سكان وسط أوروبا ، وزاد
الاقبال عليه بعد الحملة الصليبية الاولى • ويلحظ أن نهاية معاهدة السلم
بين الامبراطور باسل الثانى وخليفة مصر الحاكم فى نفس السنة [١٠٠٠م]
زادت من سلامة السفر الى ما وراء البحر فى القرن التالى •

فاذا وضعنا كل هذا فى الاعتبار فانه يفسر لنا الهزة المفاجئة التى

أصابت حركة الحج فى ذلك الوقت . والواقع أنه يمكن تعريف القرن الحادى عشر بأنه عصر « الحج بالجملة » فقد كان يتجمع مئات من الأتقياء ويسيرون الى بيت المقدس بقيادة أسقف أو رئيس دير أو اقطاعى كبير . ولا تعوزنا أمثلة من هذه التجمعات التى كانت تحشد للحج . فقد قاد فولك من نركسا Fulk of Nerxa وكونت انيو Anjou حملة شعبية للحج عام ١٠٠٢ . وفى العام ١٠٢٦ - ١٠٢٧ قاد رئيس دير فرنسى جماعة مكونة من ٧٠٠ حاج الى الأراضى المقدسة . وفى السنة نفسها ذهب الى الشرق الكونت وليم من انجوليم Angoulême مع عدد كبير من رؤساء الأديار والنبلاء . وفى عام ١٠٣٥ ذهب الدوق روبرت الأول من نورمانديا مع مجموعة أخرى ولكنه مرض فى أثناء رحلة العودة من أورشليم ومات عند نيقية قرب الشاطئ الغربى للأناضول . ومع ذلك يتكرر ذهاب أفواج الحجاج من نورمانديا عام ١٠٦٤ . أما الحجاج الألمان فقد كانت مسيرتهم الكبرى عام ١٠٦٤-١٠٦٥ وقد نظمها الأسقف جنتر من بامبرج Bamberg اذ قاد ٧٠٠٠ رجل الى فلسطين . ومما لا شك فيه أنها كانت أكبر جماعة انضم بعضها الى بعض فى مسيرة واحدة قبل بدء الحروب الصليبية . وقد ذكرت بعض المراجع أن عدد هذه الجماعة بلغ اثنى عشر ألفا ، لا سبعة آلاف ، ولكن يظهر أن هذا الاحصاء مبالغ فيه . وكان من بين هؤلاء الألمان أساقفة ورؤساء أساقفة وعدد من الاقطاعيين والنبلاء والفرسان اخترقوا وسط أوروبا الى القسطنطينية ومنها الى آسيا الصغرى (وكانت فى أيدي البيزنطيين فى ذلك الوقت) ثم الى سوريا . وفى العام ١٠٨٨ - ١٠٨٩ قامت حملة حج أخرى بقيادة الكونت روبرت الأول من فلاندرز [وهى دولة قديمة مكانها الآن بلجيكا والجزء الشمالى من فرنسا] وكانت تطل على بحر الشمال [وتحتوى سجلات القرن الحادى عشر فى دير مدينة كلونى أسماء حجاج مشهورين من ألمانيا مثل رؤساء الاساقفة تريير Trier ومينز Mainz وآخرين من انجلترا وكذلك من فرنسا واللورين .

وحتى ذلك الوقت كان الاحترام الكامل للآثار المقدسة وزيارة أماكن القديسين قد صار جزءا من نظام المسيحية اللاتينية . ولم يمنع الحجاج من السعى الى طلب الغفران حتى بعد أن استولى السلجوقيون على الأراضى

المقدسة وعكسوا السياسة المستنيرة القائمة على التسامح الذى اشتهر به الخلفاء الأولون . وكانت القاعدة أن يسير الحجاج دون أن يحملوا معهم أى نوع من أنواع الأسلحة الا عصا لكل منهم يستخدمونها فى طرد الوحوش . وكانوا يسرون معظم الطريق حفاة . والأغنياء منهم فقط كانوا يركبون الحمير . وكان الجميع تحت حماية الكنيسة وقلما كان يعترضهم شئ فى سفرهم فى أوربا . وكثيرا ما كان التجار ينضمون الى موكب السعف الذى يحمل فيه الحجاج صليبا مصنوعا من سعف النخل من اورشليم ، حتى يأمنوا غارة اللصوص . أما فى الشرق قبيل الحروب الصليبية فقد كان الحجاج يسرون جماعات لحماية أنفسهم .

وفى عام ١٠٧٤ كانت الدعوة البابوية للتسلح بين أفراد الجماعات حتى يمكن الوصول الى اورشليم . وقد صدر ذلك من عهد البابا جريجورى السابع الى عهد الامبراطور هنرى الرابع . وبعد نجاح الحملة الصليبية الاولى وتأسيس المملكة اللاتينية لأورشليم وقيام الجماعات الدينية المسلحة ، زاد عدد الهيئات المسافرة الى فلسطين . وفيما عدا الجماعات الايطالية وخاصة تلك التى كانت من البندقية وجنوا ، تلك الجماعات التى ملكت بيوت الضيافة فى معظم مدن الأراضى المقدسة ، لم تظهر جماعة أخرى ألا حراس بيت المقدس المعروفين باسم .

Hospitallars of St. John of Jerusalem

[أى فرسان القديس يوحنا فى بيت المقدس] وكذلك جماعة الداوية الذين كان لهم دور مشهور فى الاشراف على حركة الحج وتسهيلها . وقد أصبحت جماعة فرسان بيت المقدس أكبر هيئة مالية امتدت فروعها فى العواصم الأوربية وفى اورشليم وفى معظم المراكز الشرقية . وقامت باستبدال العملات ، وجمعت أموالا طائلة من وراء حركة الحجاج (*) .

(*) من العجيب هنا أن تسمع عن الحجاج من أوربا ولا تسمع شيئا عن الحجاج البيزنطيين ويصعب على المرء تصديق أن اليونانيين رفضوا التوجه الى الأراضى المقدسة فى أى وقت من الأوقات ، وذلك مما يدعو الى زيادة البحث فى هذا الموضوع .

أوروبا والشرق قبيل الحروب الصليبية

ان مجرد النظر الى الخريطة السياسية للعالم خلال العصور الوسطى حوالى نهاية القرن الحادى عشر ، يلقي ضوءا على أصل الحوادث فى مجال الحرب الصليبية ويوضح العوامل الفعالة فى موقف دول كل من أوروبا والشرق الأدنى . فيلاحظ أن القوتين اللتين كانتا فى أوروبا فى ذلك الوقت هما البابا والامبراطور ، وكان البابا يشغل مكان الزعامة للعالم . وبهذا أصبحت البابوية ذات مسئولية أدبية عن الدفاع عن المسيحيين أينما وجدوا .

والواقع أن فكرة الحروب الصليبية فى الشرق بدأت فى البلاط البابوى قبل أن يثيرها البابا ايربان الثانى (١٠٨٨ - ١٠٩٩) فالبابا جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) الذى كان اسمه هيلد براند قبل أن يتولى عرش البابوية [فكر فى مشروع الحرب المقدسة منذ وصل الى مركز البابوية . ففى عهده كانت معركة مانزيكرت *Manzikert* عام ١٠٧١ التى اعتبرت فذير شؤم بالنسبة لانتهاى الامبراطورية البيزنطية والتى كانت آخر حصن للمسيحية فى الشرق ضد الأتراك . وعلى ذلك أدرك جريجورى أن الغرب المسيحى يجب أن يتخذ خطوة لانقاذ الشرق المسيحى ، ومن السهل ادراك أن البابا ايربان الثانى ورث مشروعه غير الكامل من سلفه العظيم . والفرق الوحيد هو أن جريجورى كان يفكر فى الامبراطورية الشرقية على حين كان ايربان يهدف الى تسلم أورشليم بعد أن تركها البيزنطيون . بل أكثر من ذلك لقي البابوات تشجيعا من الامبراطور الشرقى الكسيوس كومنينس (١٠٨١ - ١١١٨) .

ويقال ان الامبراطور بعث رسالة الى صديقه القديم الكونت روبرت الأول من بلاد الفلاندرز فى الجزء الأول من العقد الأخير من القرن الحادى عشر ، يطلب من الأوربيين أن يساعده حربيا فى الأناضول ضد الأتراك . ولسوء حظ فقدت الوثيقة الرسمية . أما النصوص الموجودة فهى مكتوبة

الدينية المحرفة المعروفة باسم الابوكريفا . وفى تلك السنوات الحرجة فى حياة الامبراطورية الشرقية لا يوجد سبب يدعو الى التشكك فى الصفة التاريخية لرسالة تصف الحوادث . على أن روبرت كان قد حج منذ زمن الى الشرق فاشترك فى الحرب الملكية ضد الأتراك فى آسيا الصغرى عام ١٠٩٠ ، وكان من الممكن أن يستنجد الامبراطور بصديق يعاونه فى وقت الشدة . وفى خلال تلك الفترة كانت السفارات الملكية قد خرجت الى بلاد الفلاندرز . ولا بد أنها توقفت فى طريقها عبر ايطاليا فى مدينة بياسنزا Piacenza حيث قام البابا ايربان الثانى بجمع مجلس الكنيسة فى مارس عام ١٠٩٥ للبحث والمشاورة فى أمور الشرق . وكان ذلك من حسن حظ السفارة البيزنطية اذ استطاعت أن ترفع الأمر مباشرة للبابا المقدس وقد اجتمع معه الكهنة الرومان . ويظهر أن رأى ايربان قد استقر على أمر ما فى أثناء وجوده فى بياسنزا وأنه احتجز قراره الحاسم الى الاجتماع التالى فى جنوب فرنسا . وفى يوم ٢٧ نوفمبر سنة ١٠٩٥ أعلن البابا بكل مهابة ووقار الحرب الصليبية ، وذلك فى خطابه المشهور الى حكومة الكنيسة [أى الكهنة] والنبلاء الفرنسيين فى مجلس كليرمونت فيراند فى أوفرن ومنذ تلك اللحظة ، يمكن القول حقا أن الحروب الصليبية أصبحت مفتاح السياسة البابوية الخارجية الى ما يقرب من نهاية العصور الوسطى .

ومن ناحية أخرى كان امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة فى حالة ضيق ، فان هنرى الرابع (١٠٥٦ - ١١٠٦) من الأسرة الساليانية Salian فى ألمانيا اضطر الى الجثو على ركبته فيما عرف باسم « اذلال كانوسا المشهور سنة ١٠٧٧ » ولهذا غرق خليفة شرلمان فى مصائبه ، وانقسمت ألمانيا قسمين بسبب التنافر المحلى . وهجم عليها الأباطرة المنافسون مرة برضى السلطة البابوية وبركتها وأخرى بغير رضاها . وعمل كل من رودلف من صوابيا وهيرمان من لكسمبورج ، وكونراد من فرانكونيا على زيادة حدة الخصومة فى ألمانيا الضعيفة . ومع أن جموعا غميرة من الألمان تبعمت المبشرين الجوالين فى حملة الفلاحين [احدى الحملات الصليبية] ، ومع أن بعض الفرسان الألمان المسئولين انضموا الى الحرب

الصليبية الأولى ، فان الامبراطورية الألمانية نفسها ظلت بعيدة عن الحركة الصليبية في سنواتها الأولى . وقد تأجل التدخل الألماني الرسمي حتى الحرب الصليبية الثانية عام ١١٤٦ حينما قاد الامبراطور كونراد الثالث جيشه المرابط حتى اورشليم .

وفي انجلترا كان الفتح النورماندى الذى حدث عام ١٠٦٦ ما برح ماثلا في ذاكرة الصليبيين الأول اذ أعتبر ذلك الفتح أهم حوادث انجلترا حتى ذلك التاريخ ، فقد عمل وليم الفاتح (١٠٦٦ - ١٠٦٧) على توحيد الأمة ولم شملها ، وهو الذى عقد العزم على تحرير انجلترا من عيوب الاقطاع المعروفة في القارة الأوروبية ، كما عرف عنه في دوقيته القديمة « نورمانديا » . وان العمل العظيم الذى بدأه لم يتم حتى نهاية القرن الحادى عشر . ولم يكن ابنه ووارثه ، وليم روفس (١٠٨٧ - ١١٠٠) الذى عاصر الحرب الصليبية الأولى ، كفؤاً ليملاً مكان والده في انجلترا ولا ليشترك في حروب خارجية في أرض بعيدة .

ولم يبق من دول غرب أوروبا ما يمكن أن يبحث فيها عن جنود للحرب الصليبية سوى ايطاليا واسبانيا . وكان الجزء الشمالى من ايطاليا لازال تحت حكم الاقطاع مما أدى الى الخلافات بين الاقطاع والبابوية . وهذه الحقيقة جعلت هذا الجزء لا يقدم أية معاونة للحرب المقدسة . ومن الناحية الأخرى فان جنوب ايطاليا الذى كان تحت سيطرة البيزنطيين أصبح تحت حكم النورمانديين ، وبحث الجنس المشاغب الذى فتح البلاد تحت حكم روبرت جويسكارد عن مجالات أخرى للمجد واتساع الرقعة التى كانوا يحكمونها . وقد قدمت الحرب الصليبية الأولى للنورمانديين فرصة ذهبية لتعظيم أنفسهم ، فأسرعوا من ناحيتهم الى الدخول بكل قوتهم وشجاعتهم في جانب الحركة .

وفي شبه جزيرة أيبيريا [اسبانيا والبرتغال] ظلت المقاطعات المسيحية استوريا Asturia ، وقشتالة Castile ، ونافار Navarre واراغون Aragon ، بالإضافة الى اقليم البرتغال النامى في حرب صليبية محلية مستمرة ضد العرب ، ولم يكتف البابوات باعفاء الاسبانيين من

واجب الاشتراك فى الحروب الصليبية فى الشرق ، بل انهم طلبوا أيضا من النورماندين والفرنسيين أن يمدوا يد المساعدة لمواصلة استعادة الأندلس . وفى خلال الزحف الجنوبى نحو طليطلة عام ١٠٨٥ ، ساعد الفرسان الفرنسيون الملك الفونسو السادس من قشتاله . وفى تلك الأثناء كانت الخلافة المغربية فى تدهور واستقل الأمراء العرب كل بامارته . ولذلك ظهرت بعض الممالك الاسلامية فى شبه الجزيرة وقد عرفت باسم ملوك الطوائف . وكان بعضهم يحارب بعضا ، وفى سبيل ذلك كانوا يتحالفوا مع جيرانهم المسيحيين وأعدائهم الطبيعيين ضد المسلمين اخوانهم فى الدين .

وبدا مستقبل اسبانيا الاسلامية مظلما ، لولا أن نزل فى الوقت نفسه « المرابطون » (*) عند الجزائريين آتين من شمال افريقيا تحت قيادة يوسف بن تاشفين وقد نجح فى وقف تقدم المسيحيين . وانتصر على الفونسو السادس فى موقعة زلاكا Zallaca عام ١٠٨٦ . واستنجد البابا ايربان الثانى بالنبلاء الفرنسيين لتعزيز الحرب الصليبية فى اسبانيا . ولم يسترد المسيحيون قوتهم حتى عام ١١١٨ حينما استعاد أراجون مدينة سرقسطة Saragossa التى تعتبر موقعا استراتيجيا . وشغل ظهور المرابطين كل اهتمام الاسبان المسيحيين ، ولم يكن ينتظر منهم أن يحاربوا فى جبهتين بالانضمام الى الزحف المقدس الى فلسطين الى جانب حروبهم الداخلية .

وقد أثبتت المملكة الفرنسية والاقطاعيات التابعة لها ، فيما عدا النورماندين أنها الصخرة التى بنى عليها ايربان طموحه لحرب صليبية نحو الشرق . وايربان الذى كان فرنسى المولد وكولونى بحكم عمله رأى ببصيرته أن يختار فرنسا وطنه الأصلى لبدأ منها حركته الجديدة . وفى

(*) استمر حكم المرابطين فى اسبانيا أقل من قرن ، وانتهى حكمهم بقيام حكم « الموحيدين » الذين وحدوا كل شمال افريقيا وجنوب اسبانيا خلال الفترة الواقعة ما بين ١١٣٠ ، ١٢٦٩ والجدير بالذكر أن هذه الكلمة المرابطون حرفت فى اللغات الأجنبية فأصبحت Almoravids

كليرمونت التى فى قلب اوفرن Auvergne تكلم ايربان الى الكهنة ونبلاء فرنسا بالفرنسية . وقد اعتبر الجميع تحذيرات ايربان الهاما الهيا ومن هنا كانت الصيحة التى يرددها الصليبيون فى المعركة « هذا ما يريده الله » Deus lo volt وكان قادة الحملة الصليبية الاولى من الفرنسيين والنورماندين . ومع أن جريجورى السابع فكر فى أن يذهب الى الشرق بنفسه على رأس الجيش ، الا أن ايربان كان راضيا بتعيين الأسقف أدهيمار دى مونتى Adhémar de Monteuil الأسقف الفرنسى من بى باعتباره « القاصد الرسولى » أو مندوب البابا للحملة التالية . وكان هذا الرجل متقدما فى السن . له من الذكاء والدهاء حظ عظيم .

وجاء النبلاء الفرنسيين ومن بعدهم الفلمنجيون والنورمانديون بأعداد وافرة ليتسلموا « الصليب » من البابا ايربان نفسه . ومن أوائل الذين تقدموا جودفرى دى بوايون دوق اللورين السفلى (أو لوثرنجيا) وأخوه بالدوين [بغدوين] (١) وآخرون من القادة الحربيين مثل رايموند من سانت جل كونت تولوز ، وروبرت النورماندى ابن وليم الفاتح ، هيو كونت فيرماندوا وشقيق فيليب الأول ملك فرنسا ، ستيفن من بلوا ، روبرت كونت الفلاندرز ، بوهمند من تارنتم Tarentum ابن روبرت جويسكارد المحارب النورماندى العظيم وابن أخيه دنكرى (٢) Tancred وكانوا جميعا من الاقطاعيين الأغنياء المعروفين بشجاعتهم، وغيرتهم الدينية وثباتهم . أما نواحى ضعفهم فكان مرجعها الى تقدم السن ، فكانت فيهم خلل المعاندة أو التشبث بالرأى والغطرسة . ولم يشترك فى الحرب الصليبية الاولى أى ملك ولذلك تسمى هذه الحرب بحملة الأمراء والبارونات . والواقع أن ملوك أوروبا العظام كانوا ثلاثة هم : الامبراطور هنرى الرابع ، ووليم روفس من انجلترا ، وفيليب الأول ملك فرنسا ، وجميعهم كانوا محرومين من الكنيسة فى ذلك الوقت ولذلك لم تكن للجيش الذى تجمع سلطة عليا موحدة ، ولكنه كان مجموعة من الفرق

(١) أسامة ابن منقذ كتاب الاعتبار ص ٦٥ .

(٢) ابن منقذ ص ٦٥ ، ٦٨ - ٦١ ، ٩٦ .

تخضع كل منها لقائد • ومع ذلك أثبت الصليبيون الأوائل انه من الممكن أن يتحدوا نحو الهدف الأساسي وهو حرب معركة الصليب ضد الشرق الاسلامى الذى كان يعانى من أعراض عدم التآلف •

والحقيقة الواقعة ، أن حالة الفوضى التى سادت الامبراطورية الاسلامية فى نهاية ذلك القرن تمدنا بالتفسير الرئيسى لنجاح اللاتينيين وانهزام المسلمين عندما بدأت الحرب • فنلاحظ أولا أن الشرق الأدنى كانت تحكمه دولتان متنازعتان : الفاطميون (١) فى مصر ومذهبهم مذهب الشيعة ، والخلفاء العباسيون (٢) فى بغداد ، ومذهبهم مذهب أهل السنة ، وطابعه الاستقامة والاعتدال • ولم يمكن التوفيق بين هذين المذهبين حتى أمام خطر الصليبيين القادمين من أوروبا • ولكن لم يكن هذا نهاية الاضطراب • فقد أصبح الخلفاء العباسيون مجرد رمز لنظام الحكم الاسلامى • وانتهى حكمهم بأن خلعوا على أقوى قائد تركى لقب سلطان • وترجع قصة الأتراك فى غرب آسيا الى حكم الخليفة المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢) آخر من جاءوا

(١) الأسرة الفاطمية أصلها من تونس • وكان أول خليفة لها هو عبيد الله المهدي الذى انتحل اللقب عام ٩٠٩ وحكم حتى عام ٩٣٤ • وأسس عاصمة ملكه الجديد « المهديّة » ، التى انتشر منها حكم الفاطميين فى كل شمال أفريقيا • وفى عام ٩٦٩ فتحوا مصر ونقلوا كرسى الحكم الى المدينة الجديدة التى أسموها « القاهرة » والتى صارت مركز الامبراطورية الواسعة التى امتدت من المغرب الى سوريا • والفاطيون ينتسبون الى فاطمة ابنة النبی محمد التى تزوجت على بن أبى طالب رابع الخلفاء الراشدين وهم يدعون أنه خليفة الرسول بحكم الله • وأصبح خلفاؤهم موضع احترام كبير ، وهذا مضاد للروح الاسلامية المستقيمة • وزالت دولتهم عام ١١٧١ عندما قمعهم صلاح الدين وأعاد مصر من الشيعة الى العقيدة السنية •

(٢) بدأ حكم الخلفاء العباسيين بعد الأمويين عام ٧٥٠ وانتقلت العاصمة العربية من دمشق الى بغداد وذالت دولة العباسيين عام ١٢٥٨ وهو تاريخ سقوط بغداد فى يد هولاكو قائد المغول • وعندئذ انتقل الخلفاء الى القاهرة تحت حماية السلاطين المماليك • وينتسب العباسيون الى العباس عم النبی محمد وكانت لهم سلطة دينية وهمية فى القاهرة حتى الفتح العثمانى لمصر عام ١٥١٧ عندما نقلهم السلطان سليم الأول عقب الفتح التركى الى القسطنطينية • واندمجوا فى السلطة التركية وبقي لقب الخلافة يطلق على السلطة حتى أنهاء كمال أتاتورك عام ١٩٢٤ •

من الخلفاء بعد هارون الرشيد ، الذى اتخذ من الموالى الأتراك حرسا له لكى يحرر نفسه من نفوذ أوستقراطية العرب ، وهذا يماثل المجموع الوافرة من البرابرة الذين استخدمهم الأباطرة الرومان لهدف مماثل . وأخيرا استولى الأتراك على السلطة كلها من يد الخليفة .

وقد استولى السلجوقيون - احدى القبائل التركية - بقيادة طوغرل بك على بغداد نفسها عام ١٠٥٥ بعد غزو ايران . واغتصب طوغرل بك لنفسه لقب سلطان بالرغم من الخليفة الذى لم يكن له سلطان . أما خليفته أنب أرسلان (١٠٦٣ - ١٠٧٢) فقد اتجه نحو الفتوح والتوسع السياسى فاستولى على اورشليم من الفاطميين عام ١٩٧٠ ؛ وفى العام التالى اتجه نحو الشمال وأوقع الهزيمة فى موقعة ملازكرد بنائب الحاكم البيزنطى رومانوس الثالث ديوجينيس . وكان خليفة ألب أرسلان هو ملك شاه (١٠٧٢ - ١٠٩٢) آخر سلطان سلجوقى عظيم وقد فتح آسيا الصغرى فيما عدا أهم مدينة وهى طرايزون على الساحل الجنوبى للبحر الأسود وجعلها تابعة لسلطنة الروم الخاضعة له . وقد كانت وفاته نهاية حكم السلجقة .

أما الطريقة التى مارس بها الأتراك حكمهم فقد ساعدت على اضمحلال مملكتهم . فقد اعتمد حكمهم على النمو المطرد لفكرة الاقطاعيات المستقلة ، وذلك لتوسعهم فى فتوحاتهم وتقسيم البلاد على المحاربين وجيوشهم ، وقد انتهز الاقطاعيون الأقوياء أول فرصة مناسبة لإعلان استقلالهم التام باقطاعياتهم عن السلطنة ، وأدى زوال سلطة ملك شاه بشخصيته القوية عن مسرح الحوادث الى أن يثبت الحكام المشاغبون أقدامهم ، ويهيمنوا على اقطاعياتهم ويعلنوا استقلالها . وتبع ذلك اثنا عشر عاما من الفوضى والنزاع المميت بين من أدعوا الخلافة السلطانية (*) . وقد وافقت هذه

(*) ان صورة الشغب الداخلى فى سوريا وقت الحرب الصليبية الأولى كانت أكثر تعقيدا ، ويذكر السير هاملتون جب فى مقدمة النسخة الانجليزية لما كتبه ابن القلانسى عن تاريخ دمشق خلال الحروب الصليبية وقد طبعت فى لندن عام ١٩٣٢ (صفحة ١٤ وما بعدها) ست قوى متميزة

الأحداث نزول أقدام الصليبيين الأوائل فى الشرق ونجحوا فى انشاء
مملكة أورشليم اللاتينية خلال عام ١٠٩٩ .

بهذا بدأ حل الفرنجة للمشكلة الشرقية فى العصور الوسطى .
ولما كان حظ المسلمين يومئذ متخلفا وكانوا فى حالة جزر وانحسار
شديد ، فقد أصبحوا فريسة سهلة لغزاة الأرض المقدسة الجدد .



كأنت تعمل فى الصراع السورى : (١) الامبراطورية الفاطمية (٢) القبائل
العربية المحلية والأمراء العرب (٣) الأمراء السلاجقة (٤) أمراء الجيش
التركي (٥) القبائل التركية المستقلة أو من غير السلاجقة (٦) السكان
الأصليون فكان لكل من هذه القوى عملها واهتماماتها الخاصة . أما بالنسبة
للصليبيين فكان هؤلاء جميعا فى نظرهم شرقيين .

الفصل الثانى

حل الفرغحة للمسألة الشرقية

مفاهيم قديمة وأفكار جديدة

خضعت الكتابة التاريخية فى موضوع الحروب الصليبية بانتظام بطىء
للسلسلة من التغييرات الأساسية خلال الربع الثانى من القرن الحالى .
وقد ألفت بعض المؤلفات الحديثة الضوء على وجهة نظر جديدة لبعض
المراحل الأساسية للحروب الصليبية وأهمها مشكلة الترتيب التاريخى
للحوادث فى عصر الصليبية . فهناك مدرستان للفكر فيما يتعلق ببداية
عصر الصليبية ونهايته . وقد أوضح الباب السابق أن عام ١٠٩٥ لم يكن
الا نقطة بالغة الأهمية فى إبراز حركة تمتد جذورها فى التاريخ الى ما هو
أعمق من خطاب البابا « ايريان الثانى » . والحقيقة أن الدور البارز الذى
قام به « جروسىه Grousset » والذى صاغه فى المقال الافتتاحى لبحثه
الهام فى موضوع الصليبية انما يهدف الى ارجاع بداية الحرب الصليبية
الى ما قبل العصر الاسلامى وليس الى البداية التقليدية . وعلى كل حال
فيحب أن نلاحظ أن « جروسىه » قد حذا حذو أعظم مؤرخى القرن الثانى
عشر فيما يتعلق بالملكة اللاتينية فى اورشليم ذلك هو رئيس الأساقفة
« وليم الصورى » الذى بدأ سجله التاريخى بموضوع « تاريخ الامبراطور
هرقل » . وخلاصة القول ان ابتكار « جروسىه » يظهر فى احياء نظرية
قديمة جدا غابت عن فطنة الكتاب اللاحقين . ويبدأ رونسيما كتابه
الحديث بموضوع « كراهية الدمار » الذى حلت بالمسيحية الشرقية عند

قيام الاسلام وامتداد امبراطورية العرب فوق الأرض المقدسة وفى غيرها من البلاد . ويظهر أسلوب هذا التفكير نفسه فى مرجعه وكتابه الشامل « تاريخ الحروب الصليبية » . ولا يمكن اعتبار الحروب الصليبية الا احدى المراحل فى العلاقات المستمرة بين الشرق والغرب .

ان نهاية الحرب الصليبية - بحسب مدرسة الفكر القديمة والنظرة التاريخية الغالبة - قد مرت بعيدا عن عكا فى عام ١٢٩١ وتبدو نهاية الحكم اللاتينى فى آسيا تاريخا مناسبا لختام قصة هذه الحركة . ومع هذا يبدو واضحا أن الحروب الصليبية مضت بقوة حتى نهاية القرن الرابع عشر على الأقل .

وفيما بين ١٠٩٥ و ١٢٩١ نما اتجاه جديد للتهوين من قيمة اطلاق أرقام محددة للتعرف على الحملات المتتالية ، بحجة أن اطلاق الأرقام على الحروب الصليبية انما هو اعتراف بأن كل حملة كانت كيانا منفصلا مستقلا لا جزءا متداخلا فى حركة متصلة ، مما قد يشوه الحقيقة . وبصرف النظر عن الحرب الصليبية الأولى التى انتهت بقيام مملكة اورشليم فان الرأى المؤيد لترقيم الحركات الحربية قد بدأ يفقد أهميته . وأكثر من هذا أن اجراء مضاهاة بين المعارك الصليبية فى القرن الرابع عشر ووضعها جنبا الى جنب يبين أن المضى فى استعمال طريقة الأرقام أصبح لا مغزى له .

ومن جهة أخرى يبدو أنه من الضرورى قبول الأرقام فيما يختص بالحروب الصليبية الثانية والثالثة والرابعة التى عرفت منذ زمن بعيد بأن لكل منها كيانا قائما بذاته ، وتبدو هذه النظرة أكثر ملائمة ، فقد فات الوقت الذى يصلح لتغيير هذه النظرة . أما بقية الحملات فواجب أن تستمد أسماءها من صفاتها المميزة أو من أسماء محركاتها ومموليها .

ثم ان أية دراسة شاملة لنتائج الحروب الصليبية يجب أن تؤدى حتما الى بحث الظاهرة التى أهملت سابقا ألا وهى الحركات المناهضة للحروب الصليبية وبالتحديد : الاسلام وما جرى من تحركات آتية من الشرق معادية للتحركات الآتية من الغرب . وسوف نعرض أهمية هذا الاتجاه لأنه أدى الى بعث الامبراطورية الاسلامية ، وذلك مما يعتبر من أهم نتائج الحروب الصليبية .

لقد كان الاهتمام باللغة العربية والأمور الشرقية من الملامح الرئيسية
فى تاريخ الحروب الصليبية فى عصرنا الحالى وبالرغم من أنه قد تم
إنجاز الكثير فى هذا المجال فإن الكثير ما زال باقيا . وقبل تقديم الوثائق
التاريخية اللازمة يستحيل تقييم مركز الحروب الصليبية فى سجل غير
متوازن فى مصادره الشرقية والغربية . ومع هذا فإن الوصول الى المصادر
العربية القائمة مازال جزئيا . ومن سوء الحظ أن مؤرخى الحروب الصليبية
البارزين لم يكونوا عربا ولا مستشرقين . فاذا أخذنا هذا فى الاعتبار
كنا فى غنى عن أن نحاول اثبات أن تاريخ الحرب الصليبية لم يصل
بعد الى مرحلة المراهقة .

وحتى يمكن أن نشرح بالتفصيل التاريخ العام للحركة التى قامت
فيما بين ١٠٩٥ ، ١٢٩١ باعتبارها حلا من الفرنجة لمشكلة الشرق فى
العصور الوسطى يعد من الضرورى اتباع طريقة التحليل لكى تظهر النقاط
البارزة لكى تقتصر فى عرض التفاصيل التى عولجت من قبل فى الأبحاث
العادية . فطريقة « جروسيه » فى التبويب ما زالت أكثر الطرق المقبولة
اذ أنها تعكس بوضوح منطقى الصورة الحقيقية للحوادث التى حاول
أن يصورها بأسلوب بسيط يتدفق حماسا . وبحسب طريقة «جروسيه»
هناك ثلاث مراحل واضحة فى تطور العلاقات بين المسيحيين الغربيين
والمسلمين الشرقيين فى الأراضى الآسيوية فى المنطقة التى ندرسها .

١ - المرحلة الأولى : اضطراب الحكم الإسلامى واستقرار حكم
الفرنجة .

٢ - المرحلة الثانية : استقرار حكم الفرنجة والحكم الإسلامى :
مرحلة التوازن .

٣ - المرحلة الثالثة : استقرار الحكم الإسلامى واضطراب حكم
الفرنجة .

ولنعرض هنا تحليلا مختصرا لكل من هذه المراحل الثلاث .

المرحلة الاولى (الصليبية حتى عام ١٢٩١)

هذه المرحلة هي عصر الحرب الصليبية الأولى وتعرف أيضا باسم حرب البارونات أو الأمراء الصليبيين . وتشمل فترة ما بين قيام الولايات اللاتينية في الأرض المقدسة حتى موت « بالدوين الثاني » (*) عام ١١٣١ .

وقد سبقت حرب الفلاحين الصليبية الأولى . وكانت حرب الفلاحين مقدمة غير مشرفة للحرب المقدسة التي أكدت تعقيد شخصية « بطرس الناسك » ؛ وكان مساعده الأساسى فارس فقير اسمه « والتر المفلس » وقاد هذا جماعة غير متكافئة من اثنى عشر ألفا بدافع الايمان والجوع . وقاد كاهن ألماني اسمه جوتشالك Gottschalk جماعات مماثلة من فرانكونيا ، وصوابيا ، ولوثرنجيا وخرج جميع شباب القرى ليشتبكوا في معركة الصليب ولم يكن معهم من الأسلحة سوى العصي والسكاكين والسيوف الخشبية ، وكانوا يتوقعون حدوث المعجزات والنصر على الكفار بعون من الملائكة . وقد قاد كل من وليم فيكونت ميلون ، كونت اميخ من اقليم الرين ، وفولكلمار في ألمانيا صفوفًا من المجندين من أجل الحرب المقدسة . وبعد أن الحقوا الأذى الشائن بيهود واسط أوروبا توغلوا متقدمين بمحاذاة نهر الدانوب حيث قاسوا الكثير ، كما سببوا المآسى في المجر وبلغاريا . وأخيرا نزلوا على القسطنطينية كسحابة من الجراد ، وكان هذا بعيدا عما طلبه الكسيوس في رجائه . ولم يكن لدى الامبراطور البيزنطى الذى هاله الأمر أن يختار بين أمرين بل كان عليه أن يذعن فى سكون لمشيتهم بنقلهم الى الأناضول ، حيث قتلتهم السيوف التركية

(*) يطلق عليه ابن منقذ اسم بغدوين البرونسى مفرقا هذا عن بالدوين الثالث (بغدوين) .

في نيقية في أغسطس عام ١٠٩٦ . أما القلائل الذين استطاعوا أن ينجوا بحياتهم فقد أخذوا أسرى الى الشرق ، ولم يستطع الهرب الى شواطئ أوروبا الا قليل منهم بينهم « بطرس » ووقفوا ينتظرون الجيش الاقطاعي القادم .

وفي هذه الأثناء جهزت أربعة جيوش منظمة لتسلك الطريق القديم الى القسطنطينية من أجل الحرب الصليبية الرسمية ، وكان يسير في مقدمة الصفوف جيش قوى من اللوثرنجيين وأهالي اقليم الرين بقيادة جودفري دي بواين وأخيه بالديون . ووصلوا عبر المجر والبلقان الى أسوار العاصمة البيزنطية في ٢٣ ديسمبر عام ١٠٩٦ ، واتبعوا طريق شارل العظيم الذي قيل أن أول امبراطور روماني مقدس سلكه ليحارب العصاة والمتمردين ، وهذه بلا شك أسطورة انتشرت لتثير حماس الصليبيين في حروبهم المقدسة . وقد قدر أنا كومنينا Anna Comnena عدد هذا الجيش بنحو عشرة آلاف من الفرسان وسبعين ألفا من المشاة ، بالإضافة الى جماعة كبيرة من التابعين للمعسكر . وفي هذه الأثناء عبر هيج فيرماندوا شقيق « فيليب الأول » ملك فرنسا بمصاحبة جماعة الفرنج النورمانديين جبال الالب وإيطاليا وبحر الادرياتيكي الحافل بالعواصف ، فتحطمت سفينته قرب درازو Durazzo وساعدته قوات بيزنطية وأخذ الى القسطنطينية وتبعه روبرت كيرتهوز دوق نورمانديا وستيفن كونت بلوا وتشارنر ، وأخيرا روبرت من الفلاندرز . أما النورمنديون من جنوب إيطاليا وكان عددهم عشرة آلاف فارس وعشرين ألفا من المشاة المحاربين تحت قيادة بوهمند ابن روبرت جويسكارد وتانكرد [دنكري] ابن أخيه فقد استولوا على الشاطئ الشرقي للادرياتيكي جنوب درازو ، ثم تقدموا ولحقوا بالآخرين في نوفمبر عام ١٠٩٦ ، وتحت قيادة روبرت سانت جل كونت تولوز وبصحبة أدهيمار Adhémar المندوب الديني للبابا عبروا جبال الالب وشمال إيطاليا حتى شواطئ الادرياتيكي ، حيث قاسوا الكثير الى أن وصلوا درازو . واتبعوا الطريق العادي عبر اغناتيا عن طريق شبه جزيرة البلقان الى القسطنطينية عبر سالونيك . وقد تم التنظيم النهائي في مايو عام ١٠٩٧ وأعلى تقدير لعدد أفراد هذا الجيش يقدمه فولتشر اذ قدره بستين ألفا . وأقل تقدير يقدمه رايموند من اجويلر هو عشرة آلاف ،

وهذا يقرب من عدد كل الجيش البيزنطى • وحتى اذا اتسمت العصور الوسطى بالمبالغة فان الحد الأدنى للعدد قد تسبب بلا شك فى مشكلة ضخمة للامبراطور من حيث تموين الجيش وتنظيمه ونقله الى الأناضول • وتمت الترتيبات لنقل الصليبيين الى آسيا الصغرى بدون تأخير بعد قبول الاتفاق على تطبيق حكم القانون الدولى فيما يختص بموقف أصحاب النفوذ الاقطاعيين الغربيين وجها لوجه من الامبراطورية الرومانية الشرقية. وقد تمت استمالتهم الى أن يقسموا على الولاء للامبراطور وأن يدينوا له بالطاعة والوفاء فى شأن انتصاراتهم المقبلة ، ولكن لم يكن فى نيتهم الوفاء بقسمهم هذا ، على الأقل فيما يختص بالأماكن المقدسة • وقد بدأت المعركة بالاستيلاء على نيقية فأسلموها لحرس الامبراطورية فى ١٩ يونيو عام ١٠٩٧ • ثم تغيرت خطط الجيوش الرئيسية التركية بقيادة « قيلج أرسلان » فى دوريليم Dorylaeum فى أيام الصيف الحارة فى شهر يوليو عام ١٠٩٧ فكان هذا التغير سببا فى فتح طريق الأناضول الى سوريا وبدأ بعض القادة يأملون حكم امارات خاصة بهم مستقبلا ، وقد بدأ الاحتكاك بينهم واضحا فى السباق بين تانكرد وبالدوين للاستيلاء على طوروس ارمينيا فى سبتمبر ، وقد أحبط بالدوين محاولات قائده وذلك بزواجه من أميرة أرمنية وتولى عرش الرها بعد اغتيال الملك ثوروس Thoros فى أثناء احدى الثورات الداخلية •

حينما وجد الصليبيون أنفسهم داخل الحدود الشمالية لسوريا أصروا على الاستيلاء على أنطاكية تلك المدينة الجميلة المحصنة ، « مدينة الله » على نهر الكلب Orontes حيث أطلق على أتباع المسيح اسم «مسيحيين» أول مرة فى التاريخ • وطمع بوهموند فى الاستيلاء عليها لنفسه • وبعد حصار مضمّن طويل خلال ثمانية شهور سقطت المدينة فى أيديهم فى ٣ يونيو عام ١٠٩٨ أى قبل أربعة أيام فقط من وصول كربوغا الحاكم التركى للموصل على رأس جيش قوى لانقاذها ، وكان ذلك بعد سقوط نيقية بسنة واحدة تقريبا • أما روح الجيش المعنوية التى تسببت الحرارة والجوع فى اضعافها فقد أنعشتها معجزة اكتشاف الرمح المقدس الذى طعن به أحد الجنود الرومان جنب المسيح فى أثناء تعذيبه فوق الصليب ، وقد وجد فى احدى كنائس أنطاكية • ولهذا استطاع الجيش أن يرد جيوش كربوغا

القريبة وأن ينتصر عليها ، وبقي بوهمند على حين ضيق الآخرون الحصار على أورشليم بطرق متعددة سنة أخرى . أما رايموند الذى كان يتمنى الاستيلاء على أنطاكية لنفسه وأبعده عنها بوهمند فقد احتل مقاطعة طرابلس على سبيل التعويض .

وأخيرا لمح الباقون من الصليبيين قباب المدينة المقدسة وقلاعها فى الأيام الأولى لشهر يونيو عام ١٠٩٩ . وفى اليوم السابع من الشهر استطاعوا أن يتموا عمليات الحصار بأكملها ؛ وبدأوا فى تشييد قلعة خشبية هائلة لها جسر متحرك استعدادا لتدمير الجدران . وقاموا بعمل السلم المتحرك والمنجنيق والعجلات وجميع العدد والآلات واستخدموها فى هجومهم اليومي المتتالى على تحصينات المدينة . وكان الخليفة الفاطمى المصرى قد استرد القدس حديثا من أيدي الأتراك وترك لحراستها محاربين أكفاء . وبالرغم من الدفاع الباسل عن المدينة بدأ واضحا أن سقوطها كان يرجع الى عامل الزمن وحده ، أما وصول التعزيزات المسيحية من رجال ومواد من سفن جنوه الحربية فى يافا فقد قرر مصير المسلمين . وفى يوم ١٥ يوليو بدأ المسيحيون فى التدفق فوق الجدران من الجسر المتحرك وفى مقدمتهم دائما الدوق جودفرى . ويقول المؤرخون لهذا الحادث أن الاستيلاء على المدينة تم فى الساعة التاسعة وهى ساعة تعذيب المسيح يوم الجمعة - وقد نزل بعضهم بسرعة وفتحوا أبواب المدينة ليدخلها الآخرون . أما بقية القصة فهى حرب تقوم على التخريب المنظم والمذابح الوحشية . وقال مؤلف الـ « جستنا فرانكورم » (وهو مجهول) . « وكان شاهد عيان لهذا الهجوم المرعب : « لقد سار رجالنا وأخذوا يقتلون ويذبحون الى أن وصلوا الى هيكل سليمان حيث كانت المذابح من الفضة بحيث أغرقت الدماء أقدامهم » .

ويسمى رئيس الأساقفة « وليم الصورى » الاستيلاء على المدينة المقدسة باسم (نهاية الحج) ويقول : لم تكن فيها وحدها مناظر الجثث بلا رؤوس والأطراف المتناثرة فى جميع الاتجاهات والتى أثارت الانزعاج فى نفوس كل من نظر اليها ، بل كان مما يثير الرعب الفظيع النظر الى المنتصرين أنفسهم وهم غارقون فى الدماء من قمة الرأس الى أخمص القدم . وتمضى الصورة الحية التى صورها رئيس الأساقفة فى القرن الثانى عشر

على هذا المنوال : « لقد أعلن كل مهاجم أن المنزل الذى دخله قد أصبح ملكا له بكل ما يحويه . ذلك لأنه قبل الاستيلاء على المدينة كان الحجاج قد اتفقوا على أنه بعد الاستيلاء على المدينة بالقوة يصبح من حق أى رجل أن يمتلك ما يستطيع الفوز به مدى الحياة دون أن يتعرض حقه فى هذا الامتلاك لأى نوع من المعارضة . ونتيجة لهذا وصل الحجاج الى المدينة بكل حذر ، وقتلوا مواطنيها بكل جرأة ، وتوغلوا فى الأماكن المهجورة والأماكن البعيدة وفتحوا بالقوة المساكن الخاصة للأعداء . وعلى مدخل كل منزل كان يعلق المنتصر المستولى على هذا المنزل درعه وأسلحته انذارا لجميع المقربين منه ألا يقفوا أمام هذا المنزل ، فقد سبقت حيازته » .

ويبدو أن هذا كان أصلا من أصول استعمال الدروع الحربية لتحقيق الشخصية ، وقد أصبحت هذه العادة أكثر شيوعا بين الصليبيين فيما بعد تشبها بما كان يرسمه المسلمون فوق دروعهم من سمات . ولما هدأت المدينة وسكنت الاضطرابات وضع الحجاج المتعطشون للدماء المخضبون بها أسلحتهم جانبا وتقدموا للصلاة فى كنيسة القبر المقدس وكلهم تنهدات دامعة وعواطف قلبية جياشة .

وهكذا أعلنت مملكة أورشليم وكان حارسها الأول جودفرى دى بوايون الذى قبل ذلك اللقب المتواضع « المدافع عن القبر المقدس » وكان الواجب الرئيسى لهذا الحارس هو تأمين سلامة هذا النصر . وقد أدى دوره هذا بهزيمة أول جيش مصرى وصل من القاهرة الى عسقلان فى الشهر التالى .

ومن الواضح أن المنتصرين فى هذا اليوم قد عادوا من المعركة الى أورشليم محملين بالغنائم الهائلة التى نهبوها . وحينما أدرك الأمراء المسلمون فى المدن الساحلية التى لم تحتل بعد أن خططهم قد أخفقت بدأوا يرسلون الجزية من الذهب لجودفرى ، وأهدوا اليه خيولا محملة بالموثون والفواكه . وقد قبلت مظاهر السلام هذه لأنها عوامل استقرار لمركز المنتصرين والمنهزمين على حد سواء ، فقد قدر عليهم أن يعيشوا معا سنين مقبلة .

وأخيرا توفي جودفري في ١٨ يوليو عام ١١٠٠ وخلفه بالدوين البولوني باعتباره أول ملك منتخب لهذه الولاية الصغيرة الجديدة ، وتوج في القبر المقدس في ٢٥ ديسمبر عام ١١٠٠ ، وإذا نظرنا نظرة شاملة على بداية هذا الحكم الاقطاعي تبين أنه كان يتكون من مرحلتين عامتين في فترتين متتاليتين : مرحلة المملكة الأولى في القرن الثاني عشر ، وهي التي كان يحكمها بالرغم من أنهم منتخبون يرغبون في السيطرة على النبلاء ، ومرحلة المملكة الثانية في القرن الثالث عشر ، وقد صارت وراثية ولكن يحكمها الاقطاع . وفي كلتا الحالتين كانت الكلمة الأولى للكنيسة ، وكان رأى البطريرك اللاتيني لأورشليم حاسما . وكانت المملكة تتكون أساسا من أربع امارات شبه مستقلة وهي أورشليم وأنطاكية والرها وطرابلس . وهذه قسمت الى بارونيات (*) واقطاعات على حين كانت السلطة الحقة للمدن الساحلية مركزة الى حد كبير في المدن التجارية البحرية العظيمة وهي البندقية وجنوا وبيزا .

وقد ظهرت الكنيسة اللاتينية أيضا وكان لها اثنان من البطارقة في أورشليم وفي أنطاكية وثمانية كراسي لمطارنة وستة عشر كرسيًا لأساقفة ، بالإضافة الى عدد كبير من الرهبان . وقد بدأ الأمر أولا كما لو أن أنطاكية ذات الشهرة القديمة ، عاصمة الشرق من أيام السلوقيين حتى الفترة البيزنطية ، سوف تستعيد شهرتها الواسعة التي كانت قد فقدتها منذ هجوم العرب ، وأنها سوف تصبح عاصمة جديدة لمملكة مسيحية أخرى . وبذل بوهمند المستحيل من أجل تحقيق هذا المشروع الطموح . ولكن الغلبة كانت لأورشليم وصارت روما الشرق بما فيها من « القبر المقدس » وفات بوهمند فرصة اكتساب الطابع الملكي السامي بالرغم من أن الكنيسة قد دعت مطالبه وفضلتها على مطالب بالدوين . ويبدو أن داجوبرت رئيس كنيسة أورشليم قد تمتنى لنفسه نوعا من البابوية القيصرية حيث يكون العرش البطريركي - لا السلطة المؤقتة - مركزا عظيما لحكم الكهنة في الأرض المقدسة وهذا يفسر الصراع الشديد

(*) البارونية - في العصور الوسطى - تعنى اقطاعية تؤجر من الملك أو لورد أو نبيل .

بين الكنيسة والحكومة في اورشليم خلال سنى التطور فى القرن الاول
نقيام ذلك الحكم .

وفى كثير من الكتب والمراجع المتداولة بيان تفصيلى للتاريخ السياسى
الداخلى لهذا التنظيم الجديد ، وكذلك لعمليات الاستطلاع العسكرية
المهمة ، وامتداد حدود السلطة . ودون أن نذكر هذا كله هنا يجدر بنا
أن نحاول فحص عوامل القوة وعوامل الضعف فى الحكومة الجديدة ،
فقد يساعد هذا على فهم النقاط البارزة فى الحروب الصليبية . انتهت
– بانتصار الصليبيين – الحرب الصليبية الأولى وترك عبء المحافظة على
هذا النصر على أكتاف الملك الجديد ومن بقى معه فى البلاط الملكى .
وفى الحقيقة أن الاستيلاء على الأرض المقدسة كان ما يزال مقصورا على مدن
قليلة هامة وقطاع من الأراضى الممتدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط
على حين بقيت الأراضى الداخلية فى سوريا الكبرى فى أيدي المسلمين .
ولم تدخل المدن الرئيسية وهى حلب ، ودمشق ، وحمص ، وحماة
على أيدي اللاتينيين فى مملكتهم على الاطلاق .

وفى الداخل ظهرت بذور الخلافات فى الأقسام الاقطاعية فى المملكة
التي لم تستطع أن تحكم نفسها بنفسها ، واستقر المسيحيون باعتبارهم
أجانب على حدود المسلمين المعادين لهم . وقد وفى الحجاج الصليبيون
بقسمهم ورجعوا الى بلادهم فى أوربا على حين بقى الأعداء المهزومون
على أهبة الاستعداد لتحين جميع الفرص لاسترجاع الأملاك الضائعة .
وفى سنة ١١٠٠ اعتقل جماعة تركمان وانشماند من سيواس بوهمند
ولم يطلق سراحه الا فى عام ١١٠٣ . وفى السنة التالية (١١٠٤)
اعتقل العدو بالدوين دى بوج الذى اعتلى العرش فيما بعد ومعه جوسلين
من كورنثارى ، وهما يحاربان فى مقاطعة حران Harran وأطلق سراحهما
فى سنة ١١٠٨ بعد أداء جزية كبيرة ، واستمر موقف المسيحيين فى الشرق
دقيقا للغاية .

وبالإضافة الى الحصار الدائم من الخارج والمناهضة المستمرة من
الداخل أعلن الامبراطور اليكسيوس أن كلا من انطاكية والرها من

الممتلكات البيزنطية بحسب الاتفاقية الأولى مع الصليبيين في القسطنطينية .
وهكذا نتج عن العداء البيزنطى المتزايد ضد الصليبيين هجوم بوهمند
الفاشل على درازو عام ١١٠٨ .

ومن جهة أخرى خلد حكم بالدوين الأول (١١٠٠ - ١١١٨) لأسباب
عملت على تقوية بناء المملكة الوليدة النامية . فلقد كان بعيد النظر
ذا مقدرة جبارة . وقد حارب سياسة الكنيسة الحاكمة التى كانت تتمثل
بقوة فى توسكان بطريرك أورشليم الذى تم خلعها فيما بعد . وسار الى
خليج العقبة واستولى من المصريين على ميناء أيله على البحر الأحمر . وهكذا
قسم العالم العربى قسمين أحدهما فى افريقيا والآخر فى آسيا ، ولأنه
لم يستطع الحصول على تعزيزات من الجنود من ناحية الغرب بدأ سياسة
تحسين العلاقات مع المسيحيين الشرقيين وخاصة المارونيين والأرمن الذين
شجعوا تدريجيا على طاعة الرومان . أما اللاتينيون الذين بدأ استشراقهم
فقد بدأوا يختلطون بالأهالى ويتزوجون من المسيحيين الشرقيين وأحيانا
من المسلمات اللاتى اعتنقن المسيحية . وكذلك أنجبوا جيلا جديدا يسمى
Pullani (*) وقد سلك بالدوين نقوده وعليها الكتابة باللغة العربية حتى
يسهل المعاملة التجارية مع المسلمين ، كما شجع تجار البندقية وجنوا
وبيزا على الاستفادة من امكانيات التجارة على سواحله لكى تظفر المملكة
بموارد جديدة من الدخل .

وبدأ كل من بالدوين الأول وخلفائه سياسة بناء القلاع القوية فوق
أماكن حصينة . ومن هناك استطاع الفرنجة أن يحكموا البلاد حكما قويا .
وكان لهذا أهمية استراتيجية عظيمة . ويعد حصن الشوبك
Kark de Monréale الذى بناه بالدوين فى عام ١١١٥ جنوبى شرق
البحر الميت مثلا رائعا من القلاع العديدة التى بناها الصليبيون فيما بعد
للأغراض الدفاعية وكذلك للأغراض الهجومية . وكانت الشوبك تقع فى
منتصف المسافة بين أورشليم ورأس خليج العقبة ، مشرفة على طرق

(*) التعريف اللاتينى لانتساج التزاوج المختلط بين الأوربيين
والشرقيين فى عهد الحروب الصليبية بالشام (المترجم) .

القوافل بين القاهرة ودمشق وبين دمشق ومكة . وبذلك ساعدت قائد القلعة على فرض رسوم عالية على المسلمين المارين هناك ، سواء كانوا تجارا أو حجاجا . ويعد حصن الاكراد Kark de Chevaliers كذلك من اكبر القلاع وأشهرها ، ويقع على حافة الجبل التي تطل على ممرات القوافل الواقعة في الشمال بين حمص وحماة من جهة وبين طرابلس وطرطوس من جهة أخرى . وبالرغم من أن « فرسان القديس يوحنا » كانوا يحتلونها فان أسامها لم يرس الا بعد الحرب الصليبية الأولى بقليل على موقع قوى لقلعة عربية أو بيزنطية قديمة . أما القلعة الثالثة بين قلاع القرن الثاني عشر العظيمة فهي التي يطلق عليها باللغة العربية اسم كرك وقد شيدت شرقى البحر الميت في صحراء موآب وفيها استقر رجينالد دى شاتيون Reginald of Châtillon . وقد استشارت عصابات المتلصصة التي كانت تدير على قوافل دمشق ومكة والقاهرة ، غضب صلاح الدين وكراهيته ، فوجه الى هذه القلعة أكثر هجماته على القلاع ، وكانت أول قلعة وقعت في يده وذلك في عام ١١١٨ . والمعروف أن هذه القلاع التي مازالت بقاياها قائمة كانت أبنية ضخمة تحيط بها جدران محصنة مزدوجة ، وكانت لها أبهاء عظيمة وكنائس صغيرة للصلاة ، وثكنات ومخازن واسطبلات وأحواض للمياه . وكانت بعض أجزاء هذه القلاع تنحت في صخرة صلبة محوطة بقناة مملوءة بالماء بين الجدارين المشيدين حول القلعة . وكانت المياه الغزيرة تأتيها من الينابيع المجاورة وكان يقيم في هذه القلاع فرسان المنطقة وكبار الاقطاعيين وقلما كان يقيم فيها الملوك .

ولقد استمدت المملكة اللاتينية قوة أكبر من خلق منظمات دينية عسكرية مؤلفة من كهنة عسكريين يجمعون بين الدين ومحاربة أعداء الصليب . وكانت أولى هذه المنظمات هي منظمة «الداوية» Templars التي كونها فارس فرنسي اسمه هيو دى باينس Hugh de Payens وبعض رفائقه الذين أصرروا عام ١١١٩ على تكوين قوة خاصة لحماية الحجاج والدفاع عن الأرض المقدسة . وقد منحهم بالدوين الثاني مكانا للإقامة على مقربة من « هيكل سليمان » ، فسموه باسمه ، وخطط حكمهم القديس برنارد من كليرفو على غرار طريقة الرهبنة البندكتينية يميزه التعبد

الكنير ، ومنحهم البابا هونوريوس الثالث الضمان فى عام ١١٢٨ .
وكانوا يرتدون الملابس البيضاء وعليها الصليب الأحمر .

أما العامل الثانى العظيم الذى قام بدور آخر فى الحفاظ على المملكة اللاتينية وعلى أسباب الحروب الصليبية فقد كان دور الفرسان البيض (أو فرسان القديس يوحنا) ويرجع أصلهم البعيد الى عام ١٠٤٨ قبل الحروب الصليبية ، حينما كان حاكم اورشليم المسلم يسمح لتجار أملفى Amalfi ببناء مستشفى للحجاج المسيحيين ، وبعد الحرب الصليبية الأولى قام بعض أعضاء ذلك المستشفى فعلا بالعناية بالمرضى وتضميد جروح المحاربين . وفى نحو عام ١١٢٠ أصر رايوند دى بى Raymond du Puy وصحبه العاملون معه فى المستشفى على أن يطلقوا على أنفسهم اسم فرسان مستشفى سان جون (القديس يوحنا) فى اورشليم تحذوهم الفضيلة والاحسان ومساعدة المرضى والوقوف فى سبيل الدفاع عن الأرض المقدسة . وكانت قلاعهم الأساسية طوال هذه الفترة فى قلعة الفرسان المشهورة ، وكانوا يرتدون الملابس السوداء وعليها الصليب الأبيض . وقد استمر ظهور مذاهب عسكرية مماثلة للمذهب السابق ذكره ، وربما كان النظام التيوتونى أشهرها جميعا . وكان المفروض على الأعضاء المنتمين لهذه المنظمات أن يكونوا أحرارا وأن تكون لهم شخصية متزنة . وبمرور الوقت بدأوا ينحرفون عن مبادئ حكمهم الأصلية وخاصة الداوية ، وقد أصبح هؤلاء من أغنى المشتغلين بأعمال المضارف فى أوربا الى أن قامت الملكية الفرنسية بالقضاء عليهم بعد أن كانت مدينة لهم بالكثير . ونفذ القضاء عليهم على أثر اجتماع مجمع فينا الدينى سنة ١٣١٢ .

وقد أفسد الداوية والفرسان خدماتهم الجليلة التى أدوها من قبل للمملكة اللاتينية فى اورشليم ، وذلك بفروسياتهم المستمرة لا مجرد الحصول على الحقوق واستثمار الأموال بل فى محيط الحرب الخطر أيضا . ومن المعروف عنهم أنهم كانوا يتحالفون مع الأمراء المسلمين بين آن وآن ، بعضهم ضد بعض . وكل من أطرافهم فى قوة كبيرة وغنى عريض .

وكانوا يمتلكون الأديار في أوروبا وفي جميع أرجاء العالم اللاتيني تقريبا وكانوا يتبعون قانونا صارما ويدعون للبيروقراطية التي تنتهج منهجا واسعا في الجاسوسية ، ولم يدينوا بالطاعة الا لبابا روما مباشرة ، وتبعاً لهذا استطاعوا أن يتخذوا السلطات المركزية دينية أو دنيوية حتى في الأمور ذات الطابع العسكري . ومن الطريف أن نعرف أن فكرة الصليبيين لم تهدأ في أوروبا فيما بين الحربين الصليبيتين الأولى والثانية . ولم يقف اندفاع المحاربين المقدسين ، وإن لم يكن هذا على نطاق عالمي . وقد سجل التاريخ حملتين مما نستطيع وصفه بأنه حروب صليبية بسيطة في الأرض المقدسة . سميت الأولى حرب عام ١١٠١ وأعلنها البابا باسكال الثاني (١٠٩٩ - ١١١٨) عند وصول الأخبار المثيرة عن سقوط أورشليم بعد موت إيربان . وكان أول من استجاب للنداء الجديد أحد المعارضين القدامى لخطاب إيربان عام ١٠٩٥ وهو وليم التاسع دوق اكويتين كونت بواتو Poitou ويعرف بأنه أول من مارس الانشاء الغنائي القصصى في الفرنسية ، وكان من بين زملائه المسلحين كثيرون من الاقطاعيين مثل هيودي لوزجان الأخ غير الشقيق لرايموند التولوزي وأحد رجال الحروب الصليبية السابقين ، وستيفن من بلوا : كل هؤلاء ثم انضم اليهم ثلاثة من الأساقفة الفرنسيين وجملة من المرتزقة من فرنسا وبرجانيا والمانيا ولبارديا . وكانت القسطنطينية ملتقاهم المألوف وأعلنوا أهدافهم ، وهي اطلاق سراح بوهمند من الأسر واطمام أهداف الحرب الصليبية الأولى بأن يستولوا على بغداد مقر الخلافة العباسية . وقد اتبعوا نفس الطريق تقريبا الذي اتبعته الحرب الصليبية الأولى الا أن جيشهم دمر تدميرا في مرسيفان Mersivan وهرقلي Heraclea في آسيا الصغرى ، وذبح الكثيرون منهم وأسر بعضهم وخاصة من النساء ، ووصلت قلة منهم الى الأرض المقدسة سواء عن طريق البحر أو البر .

وكانت الحرب الصليبية النرويجية بقيادة الملك سيجورد Sigurd (١١٣٠ - ١١٣٠) أقل اخفاقا ، فقد كان الملك يجوب البحار على الطريقة النرويجية . ومعه جماعة تبغى الوصول الى أورشليم قادمين من النرويج . وكان معه كذلك أسطول ذو خمس وخمسين سفينة قضت أربع سنوات

فى السىاحة فى انجلترا وفى محاربة العرب المغاربة فى أسبانيا وفى
التأخى مع النورماندين فى صقلية ، وأخيرا عاونوا بالدوين الأول فى
الاستيلاء على ميناء صيدا عام ١١١٠ . وفى العام نفسه ساعد أهل جنوه
الملك فى الاستيلاء على بيروت . وقد خابت جهود بالدوين على كل حال
فى الاستيلاء على صور وكان على خلفه بالدوين الثانى دى بورج (١١١٨-
١١٣١) أن يحقق هذا النصر عام ١١٢٤ بمعاونة الفينيسيين [أهل
البندقية] .

وكان حكم بالدوين الثانى على وجه الاجمال امتدادا لسياسة الملك
السابق فى نقوية مملكته . وقد ضم مقاطعته القديمة الرها الى تاج
أورشليم . وفى الرها ، نصب فى العالم التالى أحد أعوانه وهو جوسلين
من كورتناى ، وفى عام ١١١٩ أصبح حاكم انطاكية . وقد قوى الحرب
ضد الأتراك والمصريين فأنت بنتائج مختلفة ، وأدت مخاطراته الماجنة
الى وقوعه أسيرا فى يد الأتراك عام ١١٢٣ ولكنه أطلق سراحه فى السنة
التالية . وقد بزت الحسنات فى حكمه السيئات بالرغم من أن ضغطه
المتواصل على الحدود السورية والمصرية أدى الى امكان تحالف أعدائه
المنقسمين فيما بعد ، وأيقظ الجيوش الاسلامية من نومها وخمولها ،
فبذرت بذور انهزام المسيحيين ، ولكنها استغرقت المرحلة التالية لكى
تنمو وتثمر

المرحلة الثانية

ان الفترة المتوسطة في حياة مملكة فلسطين لم تكن فترة توازن مستقر بين مملكة الفرنجة المتماسكة وبين حكم المسلمين القوي . وكان هذا عهد فلك الخامس (١) Fulk of Anjou (١١٣١ - ١١٤٣) وولديه بالدوين الثالث [بغدوين] (٢) (١١٤٤ - ١١٦٢) وأملرك الأول (أموري الأول) (١١٦٢ - ١١٧٤) في أورشليم من الجانب المسيحي ، وآل زنكي من ملوك الموصل ؛ ومنهم أتابك عماد الدين (١١٢٨ - ١١٤٦) وابنه وخليفته نور الدين (١١٤٦ - ١١٧٤) من جانب المسلمين . ويعد هذا العهد أيضا عهد الحرب الصليبية الثانية فيما بين (١١٤٦ - ١١٤٨) ، تلك الحرب التي نتجت عن سقوط الرها (٣) . والحق أن انتصارات المسيحيين بلغت ذروتها في نهاية حكم بالدوين الثاني . وقد نجم عن سقوط الرها في أيدي المسلمين دورة بطيئة في الحركة التي استمرت ضد الفرنجة في السنوات التالية .

وربما كانت الضربة الأولى التي قام بها فلك في بداية حكمه هي محاولة محو الخلافات بين اللاتين والبيزنطيين . وقد اتبع خلفاؤه طريقته في الصلح . وتزوج كل من بالدوين الثالث وأخو أملرك الأول من أميرتين تنتميان الى كومننن ، على حين تزوج مانيول الأول من كومنينس (١١٤٣ - ١١٨٠) من ماري من انطاكية ابنة رايموند ، وبالرغم من أنه من الخطأ أن نسلم بأن الكراهية والشك بين اللاتينيين واليونانيين قد اقتلعا وتلاشيا، فإنه كانت هناك فترة سلمية نسبية ، وكان هناك بعض التفاهم في الشرق . وقد أحرز فلك نصرا آخر مع جاره المسلم أنر [معين الدين أنر] حاكم

(١) ابن منقذ ص ٦٥ ويسميه فلك بن فلك .

(٢) ابن منقذ ص ٣٤ .

(٣) كان سقوط الرها الأول عام ١١٤٤ أمام عماد الدين، أما سقوطها النهائي فقد تم بعد سنتين من ذلك التاريخ في نوفمبر عام ١١٤٦ خلال حكم نور الدين بعد اغتيال والده .

دمشق الذى كانت سلطته مهددة بخطر الخطط التوسعية لعماد الدين زنكى حاكم الموصل . وفى السنوات (١١٣٩ - ١١٤٠) سعى أنر الى التحالف مع المملكة اللاتينية ضد أبناء دينه المسلمين . وتضرب سيرة أسامة بن منقذ أمثلة من الصداقة المتزايدة والتسامح الدينى بين المسيحيين المستعمرين وبين العرب من أهل سوريا فى ذلك الوقت .

ومع ذلك أثار استيلاء أسرة زنكى من الموصل على الرها رعب المسيحيين الذين أذكى فى نفوسهم برنارد من كليرفو روح الصليبية حينئذ ، وكان برنارد هذا قديسا فرنسيا فصيحاً فى التعبير عن مبادئه ، وكان يحتل مكانة مرموقة فى أوروبا فى عصره هذا ، وقد أعلن البابا يوجينيوس الثالث الحرب الصليبية الثانية ونادى بها سانت برنارد فى بلاط كل من فرنسا وألمانيا ، وعلى أنها باعتبارها مشروعاً ملكياً كانت أقل شعبية وأقل فى صيغتها الدولية من الحرب الصليبية الأولى . وقد سار كل من ملك فرنسا لويس السابع (١١٣٧ - ١١٨٠) وإمبراطور ألمانيا كونراد الثالث (١١٣٨ - ١١٥٢) على رأس سبعين ألفاً من المرتزقة من كل دولة . وفى فيزلاى ، حيث كان رجال فرنسا يقيدون أسماءهم للحرب ، قيل أن القديس برنارد مزق ثوبه ليتخذ منه صلباناً للمقاتلين حينما نفذ المقدار الذى كان معداً من الصلبان . وقد كان عدد الذين تحمسوا للحرب المقدسة عظيماً . واعتقد كونراد أن الحرب الصليبية يمكن الاستفادة منها فى توحيد شعبه الذى كان عندئذ منقسماً بين حزبي الجولف Guelf والجيللين Ghibelline . وبينما اتخذ الجيشان الأساسيان الطريق البرى نحو القسطنطينية ، أبحر جيش أقل عدداً مكون من خليط من المحاربين الفنلندز ومن انجلترا . ونزل فى البرتغال لمحاربة المغاربة فى شبه جزيرة إيبيريا . وفى عام ١١٤٧ استولوا على لشبونة ووضعوا الأسس للمملكة البرتغالية . وتعتبر هذه نتيجة جانبية للحرب الصليبية الثانية . أما فيما يختص بالجيوش الكبيرة فقد سادت الشكوك وعدم الثقة بين الفرنسيين والألمان الذين ساروا وبينهما مسافة معينة وقد اشترك كل منهما فى الشك المتبادل مع الأتراك . وفى آسيا الصغرى شل الأتراك حركة الغزاة وذلك باتلاف المحصولات وردم معظم ينابيع المياه وبذلك حرّموا المسيحيين كل المؤن اللازمة لحياتهم اليومية . وفى المعركة الثانية فى دوريليام Dory laeum فى أكتوبر عام ١١٤٧ ارتد

الألمان المنهوكون فى غير نظام • وفى يناير عام ١١٤٨ قاسى الفرنسيون هزيمة منكرة فى كاداماس Cadamus وتراجع كونراد الى القسطنطينية مريضا فاقد الأمل ، ثم سار الى ألمانيا دون مجرد القاء نظرة على الأرض المقدسة • وتمكن لويس - بصعوبة - من الوصول الى أنطاكية وقام بالحج الى القبر المقدس فى عيد الفصح عام ١١٤٩ قبل أن يبحر عائدا الى وطنه بعد كوارث الصليبية • وفى طريقه ضايقه البيزنطيون الذين كان لهم الحلق فى أن يرتابوا فى شعوره وعطفه نحو أعدائهم النورمان • وفى الحقيقة نزل لويس فى كالابريا Calabria وتوج روجر ملكا على صقلية ، وبهذا برزت مملكة أخرى نتيجة للحرب الصليبية الثانية • وفى فرنسا امتدت جذور فلسفة ابلارد Abelard أكثر عمقا فى عقول القرن الثانى عشر نتيجة لفشل الصليبيين وقد استخف أتباعه بسياسة سانت لويس •

الا أن أكثر نتائج الحروب الصليبية خطرا على الصليبيين كانت فى الشرق حيث شجع انهزام المسيحيين الأمراء المسلمين الذين كانوا يحكمون الأقاليم الواقعة حول مملكة أورشليم اللاتينية ، على أن يضايقوا الدويلات الصليبية الصغيرة بغير هوادة • بالرغم من أن المسلمين فى الجبهة الجنوبية قد فقدوا عسقلان التى يطلق عليها اسم « عروس سوريا » التى استولى عليها بالدوين الثالث فى عام ١١٥٣ فقد كان السوريون فى الشمال يشكلون أشد الأخطار على اللاتينيين • وانهار تحالف دمشق مع المسيحيين وذلك بسبب العدوان الغاشم من المسيحيين الذين كانوا يهدفون الى اقتطاع أجزاء معينة من ادارة المسلمين لأنفسهم • وفى النهاية خضعت دمشق لنور الدين فى أبريل عام ١١٥٤ وبهذا استفادت قوة وبنيانا على طول المعازل المكشوفة لجيرانهم اللاتينيين •

وبحث الملك اللاتينى عن جبهة أخرى للتوسع المستقبل فى الجنوب ، وذلك لأن قواته لم تكن على قدم المساواة مع الأتراك فى الشمال • وكانت الخلافة الفاطمية فى أيامها الأخيرة فى طريقها الى الانحدار ، وكان الموقف فى مصر يبدو مناسبا لاحتلال آخر ، وكانت مصر غنية فى مصادرها ولكنها كانت تفتقر الى رجال أقوياء يقومون بالزعامة • وطمع كل من أملاك ونور الدين فى الظفر بهذه الفريسة الجديدة ، وأصبح هناك تنافس شديد

بين هذين الرجلين للحصول عليها ، ولذلك قاد أملاك خمس حملات على مصر فيما بين سبتمبر عام ١١٦٣ وديسمبر عام ١١٦٩ وكانت الحملة الأخيرة بمعونة عسكرية بيزنطية ولكنها لم تكن الا حركة اسمية . وفى هذه الأثناء غزا قائد جيوش نور الدين وهو شيركوه البلاد ثلاث مرات . وقد اتاحت حالة مصر الداخلية لذلك السورى فرصا ذهبية ، اذ دعاه الوزير الفاطمى شاور وكان مركزه مهدده لقيام منافس له اسمه ضرغام كان قد نال نصرا محققا فى معركة غزة عام ١١٦٣ ضد الصليبيين فأصبح معبود الجماهير . وبعد احتفاظ شاور بمركزه وقوته بدأ يضع الخطط ضد شيركوه السورى معتبرا اياه مسلما سنيا مكروها يتولى سرا وضع الخطط لانهاء الحكم الفاطمى الشيعى فى مصر . وطلب شاور المعونة من أعدائه الفرنجة وتمت معاهدة عام ١١٦٧ تنص على أن يحتفظ أملاك بقواته فى مصر حتى يفنى جيش شيركوه أو يطرد من البلاد على أن يكون لأملك ٤٠٠.٠٠٠ قطعة ذهبية فى هذه الأثناء يتسلم نصفها فورا .

وقد أرسل هيو حاكم قيصرية الى الخليفة للحصول على توقيع الخليفة نفسه على هذه المعاهدة . ويصف وليم الصورى ذهول هذا الرسول الرسمى حينما رأى القصر الفاطمى العظيم فى القاهرة بما فيه من فخامة وترف . ويقول وليم فى سجل التاريخ الذى كتبه ان المبعوتين قد ساروا فى ممرات ضيقة يحرسهم جنود مسلحون من الحبشة ويستطرد وليم قائلا : « لقد ساروا الى فناء كبير متسع غير مسقوف ، تنفذ اليه أشعة الشمس ، وكان هناك طرقات للنزهة على جانبيها أعمدة من الرخام يعلوها سقف به نقوش بديعة ورسوم جميلة مرصعة بالأحجار المتنوعة الملونة وكذلك أراضيها . وكانت تبدو الفخامة فى كل ما يشهدهونه . وكانت المواد والمهارة البادية فى صناعتها بديعة للغاية حتى أنها كانت تلفت أنظار كل من يراها ، وتظل الأعين معلقة بها لا تمل من النظر اليها وذلك لجمالها النادر ، وكانت هناك برك للأسماك مملوءة بالمياه وطيور من جميع الأنواع التى لا نراها فى المواطن التى نعيش فيها ، وذلك لأن تلك الطيور كانت أكبر من الطيور المعروفة ، وكانت أشكالها وألوانها غريبة علينا أصواتها مختلفة عما تعودناه » .

وحينما اقترب المبعوثون من الخليفة فى داخل القصر ، أظهر الحاكم تبجيله المعتاد للخليفة ، فركع مرتين على الأرض بحسب العادة وقدم الولاء باتضاع كما لو كان يقوم بعبادة اله مقدس ، ثم انحنى مرة ثالثة ملامسا الأرض ووضع عليها سيفه الذى كان يتدلى من رقبته • وحينئذ سحبت فى سرعة بالغة ستائر مطرزة ومرصعة باللآلىء والذهب كانت تحجب العرش وما فتحت لك الستائر حتى ظهر الخليفة بوجهه المسفر على عرش من الذهب يحيط به خاصة مستشاريه وكانت هذه المظاهر أكثر من مظاهر الملك فى فخامتها •

وبعد أن طبع الوزير قبلة بصورة ذليلة على قدم الخليفة ، شرح الوزير ظروف المعاهدة ، فصدق سيده [الخليفة] عليها ، وذلك بأن وضع كفه العارية فى يد الرسول بناء على طلب هيو مما أثار ذعر المصريين ودهشتهم •

وفى الحق أن مصر آلت مباشرة بموجب هذه المعاهدة الغربية الى الحماية الصليبية لأول مرة فى تاريخ الحركة • وقد حاصر أملاك الاسكندرية أسلم شيركوه حكمها الى ابن أخ له شاب اسمه « صلاح الدين » ، وكان مقدرا له أن يصبح بطلا أصيلا من أبطال الاسلام • واتفق الطرفان على ترك مدينة الاسكندرية للمصريين بدلا من الدخول فى معركة مجهولة العواقب • وسار أملاك حينئذ الى القاهرة ونجح فى اقناع شيركوه بأن يترك البلاد كل منهما – ويقول الفرنجة كما يقول المؤرخون العرب أن أملاك قدم لشيركوه رشوة قدرها ٥٠.٠٠٠ قطعة ذهبية ليقبل هذا الاتفاق • وقد وعد شاور بأداء جزية قدرها ١٠٠.٠٠٠ قطعة من الذهب وسمح للملك أن يخصص سكنا لآتينيا فى القاهرة به فرقة لحراسة أبواب المدينة ، ثم غادر البلاد •

وقبل نهاية عام ١١٦٨ اعتزم أملاك خيانة العهد فنزل الى مصر مرة ثانية مصرا فى هذه المرة على الغزو والمؤكد • وفى بلبيس ، شرقى الدلتا ذبح الأهالى ومضى مسرعا خارج جدران مدينة الفسطاط جنوبى مدينة القاهرة الحديثة ، وكانت الفسطاط العاصمة العربية القديمة لمصر ودامت أكثر من ثلاثة قرون . وقررت السلطات المذهولة حينئذ احراق المدينة على حين

أسرع الرسل الى نور الدين يحثونه على انقاذ مصر وانقاذ الخلافة من ذلك الحائن . وقد استخدم عشرون ألف برميل من الزيت وعشرة آلاف من المشاعل فى احراق المدينة بعد أن هجرها أهلها مسرعين . واستمر اشتعال النيران أربعة وخمسين يوما . وأن بقايا مدينة الفسطاط الممتدة أميالا قد أمدت عالم الآثار الحديث بموقع ممتاز لأعمال الحفر والكشف تستغرق سنين طويلة . أما نور الدين فإنه استجاب لهذا بأن أرسل جماعة التركمان تحت قيادة شيركوه القدير ، وفى صحبته ابن أخيه الشاب صلاح الدين . ووصلت الجماعة فى يناير عام ١١٦٩ على حين كان أملاك يواصل مباحثاته بشأن دفع الذهب من جانب شاور ، وأخيرا اضطر الملك اللاتيني للانسحاب دون أن يوجه ضربة واحدة حينما وجد نفسه فجأة مضيقا عليه بين المصريين فى المدينة من جهة والتراكمة فى المؤخرة من سوريا .

وفى هذه الأثناء رقى شيركوه الى منصب وزير وقد أتمته هذه الترقية من الخليفة اقرارا له بالشكر اذ أطاح برأس شاور ، وفتح قصره على مصراعيه يغتم الشعب ما فيه . واختفى شيركوه بعد ذلك بقليل فى ظروف عنيفة (٢٣ مارس) خلفه صلاح الدين فى الحكم . أما وجه العجب فى ظهور الخليفة الشيعى مع وزير سنى فلم يعد له وجود ، وذلك لوفاة العاصد آخر الفاطميين فى ١٣ سبتمبر عام ١١٧١ وكلف خليفة بغداد العباسى السنى صلاح الدين بالقيام بسلطة الحكم فى مصر فى الحال . وبهذا انتهى الحكم الفاطمى فى مصر وعادت اليها الوحدة الدينية للعقيدة الاسلامية الأصيلة . وفى ١٥ مايو عام ١١٧٤ توفى نور الدين أيضا واستطاع صلاح الدين أن يعتلى العرش سلطانا على المنطقة كلها من الموصل الى حلب فى الشمال ومصر فى الجنوب . وبذا تمت الوحدة السياسية على جميع حدود مملكة اورشليم اللاتينية .

وكان دنو الساعة الحاسمة وشيكا . فقد توفى املاك الشجاع فى السنة التى توفى فيها نور الدين (١١ يوليو عام ١١٧٤) تاركا وراءه أخاه الأبرص العاجز بالدوين الرابع (١١٧٤ - ١١٨٥) على عرش اورشليم المتعثر ، ليواجه عملاقا جديدا ذا سلطان موحد على جميع حدوده . وكذلك انتهت المرحلة المتوسطة الى هذه النهاية التعسة .

المرحلة الثالثة

تمثل هذه المرحلة الحاسمة فترة الحكم الاسلامى ازاء فوضى الفرنجة . وفى هذه الفترة انقلب ميزان القوة ضد مملكة اورشليم . انها عهد صلاح الدين وخلفائه الأقوياء من الأيوبيين (١) والمماليك (٢) الذين أخذوا على عاتقهم مهمة القضاء على الحكم اللاتينى فى الأرض المقدسة . ويبدو أن صلاح الدين كان يمكنه التعايش مع اللاتينيين على أساس مواقفهم حتى ريشما يقوى مركزه بالتدريج فى شمال سوريا . لقد قام بعقد معاهدتين مع أعدائه عامى ١١٨٠ ، ١١٨٥ ولكن « ريجنالد دى شاتيون » لورد مونريال كان ينقض كل معاهدة من عشه فى الصحراء من كرك ، وذلك بشن الغارات واعتراض طريق التجار المصريين وقوافل الحجاج القاصدين مكة أو دمشق . وفى عام ١١٨٢ نقل مقادير كافية من الحشب على الجمال الى ميناء ايله التى احتلها على خليج العقبة ، وبنى أسطولا مكونا من خمس سفن حربية ، وأقام بعض الحرف البسيطة ، وتوجه نحو أرض المسلمين المقدسة ، وهى مكة والمدينة ، لكى يخربها ووصل الى عدن واستولى

(١) أسس صلاح الدين الأسرة الأيوبية (١١٦٩ - ١٢٥٠) والاسم الحقيقى هو : الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وقد حكم مصر من ١١٦٩ - ١١٩٣ ، وهو من أصل كردى . وقد بدأ حياته فى خدمة نور الدين زنكى . وكون الامبراطورية المكونة من مصر وسوريا والأماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز ، وكذلك اليمن ، وكثيرا من المقاطعات الشمالية فى العراق .

(٢) السلاطين المماليك يرجعون فى أصلهم الى كونهم عبيد ، فالكلمة مملوك تعنى عبد فى حرس السلطان .
وعندما استولوا على الحكم ساروا فى نفس طريق الأيوبيين . والمماليك نوعان متميزان : ١ - المماليك البحرية وسموا كذلك لأنهم كانوا يسكنون جزيرة الروضة فى النيل وحكموا مصر من ١٢٥٠ - ١٣٨٢ .
٢ - المماليك البرية : وسموا كذلك لأنهم كانوا يسكنون فى القلعة وحكموا مصر من ١٣٨٢ - ١٥١٧ .

على الموانئ البحرية في الحجاز واليمن ، ويقال انه وصل فعلا الى شواطئ الحجاز وتقدم الى مسيرة يوم من المدينة . وكانت خطته خيالية تتصف بالجنون فكانت فاقدة القيمة وكان مقدرا لها الفشل الذريع . وفي عام ١١٨٧ اعتقل رجينالد أخت السلطان نفسه من احدى القوافل المارة . وطلب صلاح الدين من الملك الجديد جاي دى لوزجنون (١١٨٦ - ١١٨٧) أن يوبخه أو يعاقبه ولكن جى Guy لم يستطع على الرغم من رغبته في الاستجابة أن يفعل . وأقسم صلاح الدين أن يفصل بسيفه رأس رجينالد عن جسده .

وخلال ظهور تلك المضايقات كان المسيحيون يعانون الاضطراب ، وكان كل سيد اقطاعي يسلك سلوكا مستقلا داخل اقطاعيته . ونجم عن موت الملك بالدوين الأبرص فوضى لا يمكن حصرها للخلاف على من يخلفه ، وأخيرا حينما استولى جى دى لوزيجنون على العرش ، رفض رايموند كونت طرابلس أن يعترف به ثم تحالف مع صلاح الدين حتى تقوى مكانته ضد السيد الجديد . ولم تنته الخلافات بين جى ورايموند الا بعد انتصارات صلاح الدين عام ١١٨٧ .

وفي هذه الأثناء تخلى الغرب عن النبلاء المنقسمين ، فلم تصل اليهم تعريزات ذات قيمة . وأدى موت مانيول كومنينس ، وكان يعطف على هؤلاء النبلاء ، الى ذبح اللاتينيين في القسطنطينية عام ١١٨٢ ، وأدى استيلاء اندرونيكس كومنينس الأول (١١٨٣ - ١١٨٥) على التاج البيزنطى بالقوة الى فوضى شاملة في الامبراطورية الضعيفة مما أدى الى تغيير مفاجئ في السلالة المالكة . ولم يكن هناك أى أمل في هذه اللحظة ، لا في أوروبا ولا في بيزنطة .

وفي هذه الأثناء كان صلاح الدين يعمل على رآب الصدوع في العالم الاسلامى ، واستطاع أن يوسع حكمه من مصر الى بلاده الأصلية القديمة في شمال سوريا . واستسلمت له حلب عام ١١٨٣ وانضمت الموصل الى حكمه عام ١١٨٥ . أما بقية الامارات الصغيرة في شمال غرب بلاد ما بين النهرين فقد انضمت اليه عام ١١٨٦ . وهكذا تحرر من متاعب المسلمين أبناء الدين الواحد ، وبدأ يتعامل مع المسيحيين فى هدوء .

وفى الناصرة اشتبك جيشه فى معركة سافرة مع الداوية (أول مايو عام ١١٨٧) حيث ألحق بالفرسان هزيمة منكرة وضرب صلاح الدين الحصار حول مدينة طبرية الهامة وكانت هذه بداية النهاية ، لأنها أدت الى معركة حطين الحاسمة حيث دمر صلاح الدين جيوش المسيحيين تدميرا لم يكن يمكن تلافيه .

وكان اللاتينيون قد جمعوا جيوشهم الموحدة عند ينبوع صفورية Safouriya على بعد أميال قليلة من طبرية ، وذلك لمساعدة المدينة التى كانت محاصرة من كل جانب ، وبالرغم من الخلاف بين راييموند والملك كان عليه أن يكون فى مقدمة الجيش ، لأن طبرية فى نطاق مقاطعته وكانت زوجته محاصرة فى قلعتها - وكان عدد الأعداء من المسيحيين يقرب من ١٠٠٠٠ فارس ، ١٨٠٠٠ من الجنود المشاة كلهم على استعداد للحرب ، ولكن يعوزهم التقدير السليم لأهمية القيادة . أما صلاح الدين كان يعرف جفاف السهل الصحراوى ودخلوه من المياه وما فيه من تلال ذات براكين قديمة تعرف باسم « قرون حطين » واقعة بين المسيحيين وبين المدينة الحزينة ، فقد عمل كل ما فى وسعه لجذبهم الى ذلك الموقع الحربى القاسى قبل أن يهاجمهم ، وحيثما نصح راييموند قادة الجيوش أن يستمعوا لصوت الحكمة فيحجموا عن هذه الخطوة بالرغم من مصالحه ومن الخطر الذى كان يهدد زوجته ، انهزم الملك ومستشاروه المتسرعون أمثال ريجنالدو دى شاتيون بالجبن وأمروا الجيوش بالتقدم . كان هذا فى الأيام الأولى من شهر يوليو بما فيها من حرارة الصيف وصحو السماء . وقضى الجيش الليل فى وسط الصحراء عند موقع لا يستطيعون منه العودة . وما أسرع أن حاصرهم المسلمون وناوشوهم من كل جانب وذلك عن طريق الخيالة المحاربين بالقوس والسهم . وصوبوا أسلحتهم الى الخيل بعد أن فصلوا الفرسان عن المشاة . فنزل أولئك الفرسان عن جيادهم يقاسون من ثقل دروعهم واحتوتهم بقعة شديدة القیظ ليس فيها قطرة ماء .

وقد نشبت معركة حطين ، فى ٤ يوليو عام ١١٨٧ تاركة من الجانب المسيحى من لم يموتوا من الرجال والجياد ، منهوكين يكادون يهلكون ظمأ

فوق رمال الصحراء المتوهجة . ولكى يزيد صلاح الدين من عذابهم لاحظ اتجاه الريح وأشعل النيران فى البرارى المجاورة ، وذلك لكى يخفهم الدخان . وكان اللاتينيون قد اتخذوا صليب الآلام رمزا لهم فى المعركة الحاسمة . وقد أرسله بطريرك أورشليم القديم من القبر المقدس وتظاهر بالمرض حينئذ . وصودر هذا الصليب وأرسل الى بغداد ، وهكذا فقدوا ما يرمز الى أهم عقائدهم المقدسة . واستطاع قلة من الفرسان الذين أحسوا بحرج الموقف منذ البداية أمنال رايموند وباليان دى ابلين أن يحاربوا ويجدوا طريقهم الى الحرية . أما بقية الجيش ومعه الملك والمتسرع رجينالد فانهم لم يفلتوا ، وبدأ الرجال يلقون دروعهم صارخين متضرعين يطلبون الماء . وكان صلاح الدين قد أحرز ضربة عظيمة لموقع حربى ممتاز بحكمة عسكرية بالغة على حين بلغ المسيحيون قمة الحماسة ودفعوا الثمن من أرواحهم غاليا . وأمر السلطان أن يصلب على الفور مائتا فارس قوى من الداوية ومن فرسان القديس يوحنا . أما رأس رجينالد دى شاتيون فقد انتظرت سيف صلاح الدين نفسه تنفيذا لقسمه السابق . وعومل الملك والنبلاء العظام معاملة طيبة ، وسقوا ماء باردا يشفى غليلهم ، وسمح لهم بالعودة بعد أداء جزية . ومن الباقين من قتل ، ومنهم من بيع فى أسواق الرقيق ، فزخرت بهم تلك الأسواق ، وكان من جراء ذلك هبوط أثمان الأرقاء .

وهكذا أصبح الطريق الى أورشليم مفتوحا ، ولكن صلاح الدين أراد أن يشغل كل الحدود حول العاصمة حتى يكون الحصار قصيرا ، وقد سلمت طبرية فى اليوم التالى وسقطت عكا فى ٩ يوليو ، وما ان حل شهر سبتمبر حتى كان الاستيلاء قد تم على بيروت ويافا وعسقلان وصيدا وجبيل (التى كانت تسمى ببلوس Byblos أيام الفينيقيين) . وقد أسرع السلطان فى فرض الحصار على القلاع القريبة مقدرا لها أن تسلم دون ضربها اذا انتشر المسلمون على الحدود المحيطة بها . وغالبا ما كان يعرض بكل حكمة على حراس هذه المراكز المحصنة حريتهم الشخصية اذا ما تركوها لمصلحة المسلمين دون الدخول فى صراع ظاهر .

ولم يبق فى أيدي المسيحيين من الموانئ البحرية سوى صور وطرابلس

وأنطاكية حينما أصر صلاح الدين على أن يتوج انتصاراته بغزو أورشليم . وبعد حصار قصير دام اثني عشر يوما سقطت المدينة المقدسة يوم ٢ أكتوبر عام ١١٨٧ وكان الاستيلاء يختلف كل الاختلاف عن منظر الهجوم القاسي في الحرب الصليبية الأولى عام ١٠٩٩ . فقد منح صلاح الدين غضب رجاله وثورتهم ، وجعلهم يتوقفون عن إيقاع أى أذى ، وأعطى للسكان الأثرياء مهلة أربعين يوما ليؤدوا الجزية التى فرضت عليهم ، ثم يذهبون حيث شاءوا . وقد قبل مقادير معقولة لتحرير جماعات من الفقراء كما قبل العرض النبيل من أخيه لمنح الحرية لألف منهم دون دفع أية جزية ، واستجاب لرجاء عدويه البارزين البطريك اللاتينى وباليان اللذين كانا يقودان الدفاع عن المدينة بأن يطلق سراح ألف آخرين . وبناء على الرغبة النابعة من نفسه هو أطلق سراح ١٥٠٠٠ أسيرا . وكانت هذه لمحة من الكرم . وفى لغة العصر الحاضر : احسانا لنفسه ، وطلباً لطمأنينة روحه . وقد حمى القبر المقدس من الحرائق المتعمدة ، وأعلن استعداداه أن يسمح للحجاج المسيحيين بالدخول إليه . ويجمع المؤرخون اللاتينيون على فروسية صلاح الدين وانسانيته وشهامته ويؤيد المؤرخون العرب حبه للناس واستقامة طريقه وعقله الملهم . وتتصل هذه الصفات الرفيعة طبعا بجهاذه المتواصل ، دون تعب وكلال ، وعبقريته العسكرية . تلك الصفات التى تكمل صورته الخالدة .

وقد انتشر الذعر والدهشة فى جميع أنحاء أوروبا عند سماع نبأ الكارثة التى حلت بأورشليم . وفى الحال حمل ثلاثة ملوك الصليب وبدأوا الحرب الصليبية الثالثة . وقد عبأ الامبراطور فردريك بربروسا جيشا عظيما وسار فى الطريق البرى عام ١١٩٠ ، وبعد أن هزم السلاجقة خارج دونيه Donia وصل الى سيليسيا وأدركه الفرق لثقل دروعه وهو يعبر نهر سالف Seleph فى ١٠ يونيو عام ١١٩٠ . وتفرقت فلول جيشه قبل وصوله الى الأرض المقدسة .

وفى هذه الأثناء كان البابا يقنع فيليب أوغسطس ملك فرنسا وريتشارد الأول قلب الأسد بأن يدفنا خلافتهما وأن يتعاونوا فى الحرب المقدسة . وأبحر فيليب من ميسينا فى ٣٠ مارس عام ١١٩١ ورسا خارج

عكا فى ٢٠ أبريل ، وتبعه ريتشارد فأقلع فى ١٠ أبريل ولكن سفنه ساقنها الرياح الى قبرص فغزاها واستول عليها من أحد البيزنطيين وكان قد أخذها عنوة ، واسمه ايزاك كومنينوس ، ثم بيعت للداوية فباءوها فيما بعد للوزجنيين . وفى يونية رسا ريتشارد فى عكا وسلمت المدينة فى ١٢ يوليو عندما وجدت نفسها مواجهة لهجوم متعدد . ثم عاد فيليب الى فرنسا بعد أن حدثت بعض المنازعات مع ريتشارد مع أنه ترك معظم قواته فى الأرض المقدسة ، وبذلك أصبح ريتشارد القائد الوحيد للحرب الصليبية التى اشتهر فيها بفروسيته وقوته . وأخيرا عقد الصلح مع صلاح الدين فى ٣ سبتمبر عام ١١٩٢ . وأصبح الشاطيء من صور الى يافا ملكا للاتينيين واشترط أن يضمن الحجاج المسيحيون سلامة طريقهم لزيارة أورشليم التى بقيت فى أيدي المسلمين .

وتوالى الأحداث فى كل من انجلترا وفرنسا مما اضطر ريتشارد أن يعود الى أوروبا مع مجموعة من الحجاج فى ١٠ أكتوبر عام ١١٩٢ . بعد أن أقام طريقة طابعها التسامح الدينى المتزايد بين الحجاج الآتين من الغرب وبين الأهالى المسلمين فى الشرق الأدنى (أما قصة اعتقال ريتشارد فى وسط أوروبا ثم اطلاق سراحه فهى بعيدة عن نطاق هذه الدراسة) . وفى السنة التالية (١١٩٣) ذهب بطل حطين الى دمشق مريضا بالحمى رجلا متعبا منهوكا فى سن الخامسة والخمسين وتوفى فى ٤ مارس قبل أن يرى محو آخر الممتلكات اللاتينية فى فلسطين .

واستمرت فكرة الحروب الصليبية أثناء القرن التالى لأغراض مختلفة، وكان الامبراطور هنرى السادس ابن فردريك بربروسا يود أن يحقق ما لم يسمح بتحقيقه وفاة أبيه الأليمة . ولذا أخذ الصليب عام ١١٩٥ وكون جيشا من ستين ألف مقاتل وأسطولا من أربع وأربعين سفينة حربية ، وأتى بهم الى شواطئ ابيوليا فى الجزء الجنوبى من الامبراطورية تحت الأبنين Appenines ثم منح الملكية لأرمينيا وقبرص وأصبحت كل منها مملكة متحالفة معه فى النضال التالى . كما ظهر أيضا النظام التيوتونى فى ذلك الحين وانضم أيضا الى قوات هنرى . وما أن حل عام ١١٩٧ حتى كانت الاستعدادات للحروب الصليبية الألمانية قد تمت .

وأبحر الأسطول بقيادة أسقف فورزبرج حتى لحق الامبراطور في تاريخ متأخر في الأرض المقدسة وقد رسا الصليبيون بالقرب من صيدا واشتركوا مع الفرنجة في استرداد بيروت . وفيما بعد - حين كانوا يحاصرون قلعة تورون - وصلت أخبار موت الامبراطور في موعد غير مناسب أدى الى هبوط الروح المعنوية للجنود ، فتركوا أماكنهم وعادوا الى وطنهم . ولعل النتيجة الوحيدة الهامة لهذه الحرب الصليبية هي قيام النظام العسكري التيوتوني للدين الذي كان مقدر له أن يقوم بدور تاريخي في تطوير بروسيا .

وبمجيء البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢٩٦) بدأ المحاربون عن الكنيسة ينادون باستئناف الحرب المقدسة . وفي النهاية أثمرت تصريحات البابا . ولكن الحرب الصليبية الرابعة التي بدأها انوسنت بصورة جدية لاسترداد اورشليم ، أخرجتها المطامع الشخصية عن طريقها المرسوم ولم تصبح أكثر من هجوم وضيع على القسطنطينية . وكانت الجماعات الثلاث المنحرفة على هذا النحو الشائن هي : أهالي البندقية والفرنسيون والإفلمنكيون ويرجع دافع الاستيلاء على الامبراطورية الشرقية الى فيليب الصوابي وزوج أخته ومحسوبه الكسيوس أحد المطالبين بعرش بيزنطة، مع أن أحد والديه فقط كان يونانيا وبالطبع كان الدوق الاعلى المسمى انريكو داندولو من البندقية ، وراء مشروع مد الامتيازات التجارية في المنطقة التي يحكمها في الشرق امتدادا لم يشهد أهالي البندقية مثله في الماضي .

وقد اتفق أن تجتمع فرق الفلمنكيين الفرنسيين في بقعة معينة على بحيرات جمهورية سان مارك من الفلاندرز ومارسيليا . وفي نوفمبر عام ١٢٠٢ أبحروا على سفن حربية من البندقية قبل أن يتقدموا الى القسطنطينية . وقد تخلى سيمون دي مونتفورت Simon de Montfort وكثيرون من الصليبيين الناقمين على هذه الحال عن المعركة لاطهار احتجاجهم على هذا الموقف ، وتوجهوا توا الى عكا في الأرض المقدسة . على حين أبحر الجنود البالغ عددهم ٢٠.٠٠٠ في اتجاه البسفور . وكان هؤلاء مقسمين بالتساوي بين أهالي البندقية والفرنج الفلمنكيين ، وقد انتهى

الهجوم على عاصمة الشرق - ولم يكن ميسورا - بسقوط الامبراطورية اليونانية الضعيفة . وبعد أن نصبوا امبراطورهم الذى كان لعبة فى أيديهم والذى اغتاله رعاياه فى الحال فى فترة من الفوضى الشاملة أصر الصليبيون على تنصيب امبراطور لاتينى بديلا له ، وكان هذا ممثلا فى شخص بالدوين من الفلاندرز . وتركت المدينة العظيمة مفتوحة بصفة رسمية للنهب وللحصول على الغنائم مدة ثلاثة أيام . ويصعب تصديق حالة النهب والسلب فى أكثر مدن المسيحية حضارة . وهى التى كانت حصن أوربا فى الشرق . وكتب فيلهاردون Villehardouin شاهد العيان الفرنسى المعاصر مؤرخا لهذا الحادث قائلا : « منذ بدء الخليقة لم يحدث مثل هذا النهب والسرقة فى أية مدينة » . ولقد أصبح النهب والتخريب شيئا عاما . واشترك فى هذا السلب البارونات وحكام الكنائس اللاتينيون الذين يتبعون مذاهب مقدسة على حد سواء . كل هؤلاء كانوا ينهبون ما استطاعوا حمله . وفى هذه الفوضى خربت أو سُرقت الأعمال الفنية العظيمة والمخطوطات القيمة وكانت تباع الملفات والمخطوطات الخاصة بأرسطو وديموئينوس بأرخص الأسعار . واغتصبت الكنوز الغالية من القصور ، كما سرق كل ما يدل على الشعائر الدينية من الكنائس من كفوس وصلبان ذهبية وفضية ، وكل ما كان يزينها . وشحنت السفن الحربية بالمواد الكمالية والفراء الجميلة واختلطت الأربعة الجياد البروتزية الرائعة التى كانت معلقة على كنيسة سان مارك من حلبة السباق البيزنطية . وتعد سرقة هذه التحف من أكبر أعمال النهب والسلب فى التاريخ . كما اختفى كل ما كان على مذبح القديسة صوفيا المحمل بالأدوات القيمة . وأخيرا قام جنود الصليب علانية باغتصاب النساء وبالدمارة ، ولم ينج من عنفهم حتى الراهبات العذارى . ويذكر نسيئاس شونيئاتس Nicetas Choniates شاهد العيان اليونانى والمؤرخ لهذه الحوادث المؤسفة حزنه على مصير تلك المدينة فيقول :

« أيتها المدينة يا قرّة عين المدن جميعا ، يا موضوع جميع قصص العالم ، يا محط أنظار العالم ، يا مدعمة الكنائس ، يا قائدة الايمان ، يا مرشدة الأرثوذكسية وحامية التعلم ، يا مقر كل شيء حسن . لقد

شربت كأس غضب الاله حتى الثمالة لقد زارتك نيران أكثر ضراوة من تلك التى نزلت على المدن الخمس » .

وبهذه الحالة التى لا يمكن وصفها حلت الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية محل الامبراطورية البيزنطية حتى عام ١٢٦١ ، ونصت معاهدة التقسيم على تسليم العرش الامبراطورى وخمسة اثمان المدينة الى بالدوين ، أما البطركية اللاتينية الجديدة ومعها الثلاثة الاثمان الباقية والقديسة صوفيا فقد تركت للبندقية . وكان توماس موريوسينى اول بطريرك فينيسى . أما تراقيا وأراضى الدردنيل الساحلية وجزائر بحر ايجه العظيمة فقد كانت من نصيب الاقطاعيين الفرنجة الفلمنكيين الفرنسيين على حين أصبحت المراكز التجارية فى تراقيا وعلى الادرياتيك ومعها الجزائر (الدوديكان والايونيين والبلوبونيسس) وجزيرة كريت من نصيب فينيسيا . وكان هذا هو نصيب الأسد فى أكبر السراقات التى عرفها التاريخ . وكان على البابا انوسنت أن يغضى عن ذلك كله بالرغم من غضبه الشديد لانحراف الصليبيين عن محاربة المسلمين الى هجوم فظيع على الحدود المسيحية . وبالرغم من أن اضطراب اليونانيين الى التجسس بالجنسية الرومانية هدا من نفس البابا ، فان الاحتلال المؤقت للبلاد كان يمهد الطريق للعدوان التركى بعد ذلك بقرنين . واتسعت الهوة التى كانت تفصل المسيحيين فى الشرق عن الغرب اتساعا لم يسبق له مثيل .

وأراد انوسنت الثالث أن يعالج فضيحة الحرب الصليبية الرابعة عن طريق ايقاظ ضمائر المسيحيين بضرورة استرداد الأماكن المقدسة ومحاربة الامبراطورية الاسلامية فى الشرق . وجاءت الاستجابة لنداء البابا فى هذا الوقت من أطفال أوروبا الغربية أكثر مما أتت من الجيوش المنظمة . وكان هذا يعد مقدمة للحرب الصليبية الخامسة التى كان لها هى الأخرى صفاتها المميزة بالرغم من أنها لم تتلاءم مع الروح المرحية للبابا المقدس . وقد كانت حرب الأطفال الصليبية عام ١٢١٢ احدى المآسى الكبيرة فى ذلك العصر . وكان الواعظ لها طفلا عمره اثنتا عشرة سنة اسمه ستيفن . ظهر هذا الطفل فى بلاط فيليب أوغسطس ومع

رسالة مزعومة من السيد المسيح الى ملك فرنسا يحثه فيها على الحرب المقدسة بقيادة طفل من الأطفال . وفى هذا العصر الذى كان يصدق فيه كل شىء ، حين كان يتعاقب الجهل مع الخرافات ، لم تستطع حكمة الملك وعدم مبالاته من منع انتشار الحركة التى كانت تعجب الجماهير . ويقال ان نحو ٣٠٠٠٠ طفل ومن بينهم عدد كبير من أسر النبلاء قد اشتركوا فى الحرب الصليبية وتبعوا الناسك الجديد « بطرس الناسك » فى طريقه الى مرسيليا حيث كانوا يتوقعون أن ينشق البحر بمعجزة أمام تقدم الحجاج مثلما حدث أيام موسى عند الخروج من مصر كما هو وارد فى التوراة .

وفى الحال كان للقوات الفرنسية نظائرها فى ألمانيا حيث تبعت جماعة أخرى طفلا آخر اسمه نيقولا من كولونيا . وسار الألمان فى صفين عبر جبال الألب الى جنوه وبرنديزى عن طريق روما ولم تهبط الا عزيمة القليلين منهم فلم يواصلوا الرحلة . ولقد مات كثيرون منهم فى الطريق على حين تلكأ البعض فى القرى ، أما البقية فقد وقفوا على الساحل منتظرين حدوث المعجزة وانشقاق المياه الى الأراضى الواقعة خلفها . ولما لم تحدث المعجزة اقترح اثنان من الرجال ، هيو الحديدى ووليم الخنزير وهما من مرسيليا ، أن يتبرعا بنقل القوات الى الأرض المقدسة . وقد ساقا الأطفال لبيعهم فى أسواق الرق فى شمال افريقيا ومصر . وقيل ان هذه القصة قد تأكدت عام ١٢٣٠ حينما صحب كاهن شاب الطفل ستيفن الى مصر لهذا الغرض ، وبعد سنوات من الخدمة التى تتصف بالأمانة فى مصر استطاع أن يسترد حريته وأن يعود ثانية الى موطنه . أما ما قاساه الألمان فقد كان أقل نسبيا ، ذلك لان جنوه وكثيرا من المناطق الإيطالية والموانئ البحرية قد استوعبت الكثير منهم ، وعاد الباقيون الى وطنهم ، واستطاع البعض أن يجد الوسيلة التى توصله الى فلسطين .

ويجب تتبع منشأ الحرب الصليبية الخامسة الى موعد تنويج فردريك الثانى فى ٢٥ يوليو عام ١٢١٥ فى آخن ، وقد أخذ الامبراطور الجديد الصليب فى هذه المناسبة بمحض اختياره ، ويبدو أنه كان فى أيام شبابه تسيطر عليه فكرة قيادة العالم المسيحى بأجمعه تحت هدف عالمى ، وقد

نباطاً فى الوفاء بالقسم • وفى مجلس اللاتيران (*) the Nov. Lateran البابوى فى نوفمبر من السنة نفسها حدد البابا انوسنت الثالث تاريخ قيام الحرب الصليبية فى بدء عام ١٢١٧ ، ولم تأت الاستجابة لدعوته من الامبراطور بل من ثلاثة ملوك صغار : اندرو ملك المجر ، وهيو دى لوزجنان ملك قبرص ، وجون دى برين John de Brienne ملك بيت المقدس • وبدأت قواهم المتحدة بالرغم من ضعفها سلسلة من المعارك الصغيرة الفاشلة • وكانوا يشنون غاراتهم من القاعدة المسيحية فى عكا على سهل الأردن وذلك فى أثناء عام ١٢١٧ • وفيما بعد انسحب اندرو الى المجر ثم مات هيو ، وبقي قليل من الالمان مع جون حتى وصل لتدعيم مركزه أسطول من التعزيزات القادمة من فريسيان • وأعلن أن مفتاح أورشليم فى القاهرة لا فى الأراضى المختلفة • فتقرر أن يبحروا وهدفهم القيام بحرب صليبية على مصر • ورسوا فى دمياط وفرضوا عليها الحصار من مايو عام ١٢١٨ الى ٥ نوفمبر عام ١٢١٩ يوم اسنولوا على المدينة • وأدى انتشار نبأ هذا النصر الى وصول المزيد من التعزيزات تحت قيادة مندوب الكاردينال الاسبانى بلاجيوس من البانو وكان متحمسا للغاية ، ولكنه كان عنيدا متعاليا •

وورث السلطان الكامل محمد (١٢١٨ - ١٢٣٨) مهمة الدفاع عن مصر عن أبيه العادل سيف الدين أبو بكر الذى كان يعرفه الصليبيون الأولون باسم « صفى الدين » وهو أخو صلاح الدين الذى انقسم سلطانه الموحد ، وحكم شقيق الكامل واسمه المعظم (١٢١٨ - ١٢٢٧) حكما مضطربا فى دمشق ، وكلاهما كان أقل من سابقه مركزا • وقد عرض الكامل سلطان مصر عرضا يصعب تصديقه وهو التخلي عن أورشليم وممتلكات الفرنجة الأصلية فى الأرض المقدسة قبل عام ١١٨٧ للصليبيين نظير اعلانهم السلام وتركهم مدينة دمياط • ولقى هذا العرض القبول من جون دى برين ولكن بلاجيوس أصر على اتمام غزو مصر والاستمرار فى الحرب حتى وصول جيش فردريك الثانى • ودخل الصليبيون الدلتا فى عام ١٢٢١ فى منتصف الصيف • وكان الجو حارا رطبا وكانت مياه

(*) اللاتيران مكان بالفاتيكان •

النيل تستمر في الارتفاع بسبب الفيضان السنوى • فحطم المصريون السدود المقامة على كل القنوات ووجد الغزاة أنفسهم وسط بحيرة كبيرة على مقربة من أعدائهم المصريين • ومع هذه المتاعب لم تصل أية امدادات من الامبراطور • ولهذا فشلت هذه الحملة فشلا ذريعا واضطر بلاجيوس أن يقبل شروط « الكامل » الجديدة وهى السلام وتسليم دمياط • وفى أثناء تلك المعركة استطاع الراهب المسكين فرانسيس الاسيس الذى كان مصاحبا للصليبيين أن يقنع بلاجيوس بأن يسمح له بعبور خط المعركة ليصل الى معسكر السلطان خارج فارسكور عند بحيرة المنزلة ومعه راية الهدنة بقصد محاولة تغيير دين السلطان الى المسيحية • وأصغى السلطان فى دهشة بكل اهتمام وسرور الى مناقشات ذلك الزائر الاشعث المنظر واعتقد أنه مجنون وأمر بعودته سالما الى الجانب المسيحى •

ولم تأت الدعوة المسالمة الجديدة من مجهودات ارسالية القديس فرنسيس ولكنها أتت عن طريق حرب صليبية جديدة ذات طابع مختلف كل الاختلاف عما سبقها ، وقد بدا هذه الحرب « الامبراطور الكافر » الذى يصعب فهم شخصيته فردريك الثانى (١٢١١ - ١٢٥٠) وكان من أشد المعارضين فى زمنه • وهو رمز اكتمال نهضة القرن الثانى عشر • فقد كان بارعا متسامحا محبا للتعليم ، محدثا لبقا باللغات اليونانية والعبرية والعربية وكان ما يطلق عليه حقيقة وهو أنه الرجل العجيب Stupor Mundi ومع ذلك فقد وصف بأنه أتوقراطى عديم المبالاة ، مشغوف بالملذات ، ملحد ، يجدف فى حق موسى والمسيح ومحمد • وتسبب فى غضب البابا عليه فأصدر قرارا بحرمانه • وقد تكاثرت فلاسفة العرب فى بلاطه وكان بالغ الصداقة مع المسلمين •

ومهما يكن لفردريك من رذائل فان فضائله لم تجعله متناسبا مع عصر له حب أعمى للحرب • وقام على رأس حرب صليبية خاصة من وحي تفكيره متحديا بذلك الكنيسة • وتعرف هذه الحرب عادة باسم الحرب الصليبية السادسة • ولعل فردريك كان فى أول الأمر جادا فى الذهاب على رأس جيش الى الأرض المقدسة فى أثناء عام ١٢٢٧ ولكن لم يعرف حتى الآن هل كان ينوى استخدام الجيش فى الحرب أو كان ذلك لضغط

دبلوماسى . وعلى أية حال فقد أصيب بالطاعون فطلب التأجيل من البابا . أما جريجورى التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١) الذى كان يتبع سياسة البابوية فى العداء لفردريك فقد رفض قبول أى تأجيل مهما تكن الأسباب . ولهذا فان فردريك الذى حكم عليه بالحرمان . وكان يقاسى من رواسب الحكم قرر باعتباره وصيا لابنه كونراد أن يركب سفينة حربية صغيرة وينذهب فى رحلة سالمة الى الشرق . ولم يكن على السفينة معه الا بحارة مسلمون من صقلية ، وجماعة محدودة العدد من خدمه الخاص . ووصل الى عكا عن طريق قبرص ، وعاش فى ظروف شديدة القسوة ، ولما كان منبوذا من البطريرك اللاتينى فقد تتبع حركات السلطان من مكان الى آخر ، وكان يتباحث معه ويتناقش من أجل الوصول الى معاهدة لتحرير فلسطين . وقد أعجب رسل السلطان بمعرفته لثقافة العرب ولغتهم ، وأخيرا حدد « الكامل » شروط المعاهدة فى ١١ فبراير عام ١٢٢٩ وأنعم فردريك على أهم سفراء السلطان وهو فخر الدين بوسام الفروسية ذكرى لهذا النصر الدبلوماسى .

وعادت المدن الثلاث المقدسة : أورشليم وبيت لحم والناصرية الى المسيحيين وعادت معها توروبون فى الجليل واللد وصيدا وقليل من الاماكن الأخرى مكونة ممرا من الساحل الفينيقي الى الداخل لمروور الحجاج المسيحيين فى أمان . وبقي مسجد الصخرة وغيره من أماكن المسلمين المقدسة فى حوزة المسلمين . ووعد الامبراطور بأن يقف تدعيم أية حرب صليبية مسلحة ضد مصر الى الأبد . ونفذت الهدنة عشر سنوات ميلادية . أى ما يوازي عشرة سنوات هجرية وبضعة أشهر . وكانت هذه أكبر ضربة دبلوماسية من رجل كان يفهم عقلية عدوه . ودخل فردريك بكل نصر وكبرياء مدينة أورشليم فى ١٨ مارس وتوج نفسه ملكا لاتينيا بأن وضع التاج بنفسه على رأسه فى كنيسة القبر المقدس ، وذلك لأن أحدا من رجال الكنيسة لم يتسن له القيام بهذه السلطة من أجل شخص انحرف عن دينه وحرمته البابوية من صلته بها . ويضاف الى هذا انه باسم بطريركية أورشليم اللاتينية وضع رئيس أساقفة قيصرية بعض القيود على أورشليم فهجرها الصليبيون والحجاج واضطر بطل هذا الزمان

أن يعود سريعا الى بلاده ليحمي في ايطاليا مملكته التي غزتها جيوش البابا بأمر من جون دى برين . وكان هذا بلا شك من سخيرية القدر .

ويبدو أن البابا كان يود الحصول على اورشليم عن طريق الغزو وارقة الدماء فقط . وسادت الحروب الأهلية خلال الأعوام العشرين التالية بين رجال الامبراطور والفرنجة المحليين والاقطاعيين . وبينما كان الفرسان البيض والداوية طرفى نزاع لم تهتم الدوائر الايطالية الا بمصالح تجارتها . ولم ينقذ المملكة اللاتينية الهزيلة الا قيام المسلمين بالمعارك الداخلية . وتشبه الأيام الأخيرة من الحكم الأيوبي تلك الأيام التي سبقت الحرب الصليبية الاولى . وتحالف اللاتينيون مع رؤساء دمشق المحليين ضد مصر فطلب السلطان الأيوبي المساعدة من الأتراك الخوارزميين ، وتمكن المسلمون من الاستيلاء على اورشليم فى أغسطس عام ١٢٤٤ . وقبل أن يحل عام ١٢٤٥ كانوا قد استردوا معظم فلسطين . ودفع سقوط اورشليم للمرة الثانية لويس التاسع (١٢٢٦ - ١٢٧٠) ملك فرنسا القديس الى بدء حرب صليبية جديدة ضد مصر . وسقطت دمياط فى أكتوبر عام ١٢٤٩ ثم اتجهت الحملة نحو القاهرة وتكررت خطط المصريين نفسها وأدت هذه الى خسائر فادحة تجشمتها الصليبيون ، وتوقف تقدمهم عند المنصورة حيث تمت هزيمة الصليبيين وأسر الملك ومعه معظم نبلائه بعد المعركة الحاسمة فى فبراير عام ١٢٥٠ . وقد سرد قصة هذه الحوادث المثيرة بالتفصيل شاهد العيان جونفيل Joinville مؤرخ القصر الذى يعد عمله أول تاريخ عظيم باللغة الفرنسية العامة كتب عن هذا العصر . وبدأت المباحثات الخاصة بشروط الافراج عن الملك وهو سجين . وكان على الصليبيين أن يجلوا عن دمياط تماما وحددت جزية قدرها نصف مليون جنيه توروئى (*) أى ما يساوى مليون [بيزانت] besant وفى أوائل مايو أبحر المراقبون ومعهم الملك الى عكا بعد أن أدوا كل ما استطاعوا جمعه من أموال خاصة من الداوية الأغنياء ، وبقي لويس ما يقرب من أربع سنوات فى الأرض المقدسة محاولا أن يعوض بعض الخسائر التى جرتها هزيمته فى مصر من كبار اللاتينيين فى الشرق .

(*) عملة مسكوكة بمدينة تورز بجنوب فرنسا . (المترجم)

واستطاع أن يجمع الفرنجة المنقسمين في ممتلكاتهم الهزيلة وتحالف مع الحشاشين Assassians المعروفين بثباتهم ومعاقلهم اللبنانية . ثم أبحر عائدا الى وطنه فرنسا في أبريل عام ١٢٥٤ . وعلى كل حال فقد بقى الملك فى حالة قلق حتى بدأ الحرب الصليبية من جديد فى شمال افريقيا حيث مات خارج تونس فى ٢٥ أغسطس عام ١٢٧٠ وعلى شفثيه هذه الكلمة :

« أورشليم ! أورشليم ! »

وفى هذه الأثناء قامت حربان صليبيتان قصيرتان ثانويتان لا أثر لهما . الأولى قام بها لقطاع أراجون عام ١٢٦٩ والثانية قام بها ادوارد أمير انجلترا عام ١٢٧١ . وعلى الاجمال فقد شهد القرن الثالث عشر تغييرا جذريا فى معنى الصليبية وروحها . فغزو القسطنطينية عام ١٢٠٤ والحرب الصليبية الألبيجنسية (*) عام ١٢٠٨ والحملات الأوربية المتعددة ضد أصحاب المذاهب الكنسية المنشقة أولا ثم ضد المسيحيين المتمردين المعادين للبابوات - كل هذه العناصر اشتركت فى تغيير المفهوم الأساسى لمثالية الصليبية الأصلية . حدث كل هذا والمسلمون فى الشرق يجمعون القوات ويستولون على الأراضى . فحينما انتهى الحكم الأيوبى بمقتل توران شاه عام ١٢٥٠ أصبح ورثتهم سلالة السلاطين المماليك الذين كانوا يخدمون سادتهم القدامى كحرس من العبيد . وقد تم الوفاق بين أيبك (١٢٥٠ - ١٢٥٧) أول المماليك وبين لويس التاسع . وشهد أحد خلفائه قطز (١٢٥٩ - ١٢٦٠) هزيمة المغول الأقوياء بقيادة هولاكو فى معركة عين جالوت عام ١٢٦٠ . وكان بطل هذه المعركة الحاسمة بيبوس (١٢٦٠ - ١٢٧٧) الذى قتل سيده واعتلى عرشه . وبعد ذلك استرد المماليك - واحدا بعد آخر - ممتلكات الفرنجة شيئا فشيئا ، حتى استولى الأشرف خليل (١٢٩٠ - ١٢٩٣) أخيرا على عكا فى مايو عام ١٢٩١ . وما أن حل عام ١٢٩٢ حتى كانت جميع مراكز المسيحيين الغربية ومن بينها صور وصيدا وبירות قد سلمت وقذف بتاج أورشليم من عكا فى عرض البحر الى جزيرة قبرص .

(*) نسبة الى البيجنس Albigenses وهى طائفة دينية ازدهرت فى جنوب فرنسا (١٠٢٠ - ١٢٥٠) وأقمعت نظرا لهرطقتها .

الفصل الثالث

الحروب الصليبية في أواخر القرون الوسطى

أصبحت الحروب الصليبية - من الناحية التاريخية - موضع مراجعة وتصحيح . وقد سبق أن ذكرنا ذلك ، وأن الأفكار القديمة قد أفسحت الطريق لمدارس فكرية جديدة . وحتى عهد قريب ، حيد رجال التاريخ الحركة الصليبية بفترة استمرار مملكة أورشليم اللاتينية فوق الأراضى الآسيوية . وقد بدأت الحروب المقدسة بخطبة اريان الثانى التى لا تنسى فى كليرمونت فيراند عام ١٠٩٥ وانتهت تلك الفترة بجلاء الفرنجة المحزن عن فلسطين عام ١٢٩١ - ١٢٩٢ ؛ وفى ضوء الأبحاث المتزايدة فى هذا المجال لم يعترف أحد بتلك الفكرة الجديدة المبالغتة عن الحروب الصليبية . وفى هذا الباب محاولة لتحديد مصير الحروب الصليبية بعد سقوط عكا على ساحل سوريا فى أيدي المصريين قرب نهاية القرن الثالث عشر . فبالرغم من التغيرات الظاهرية للأهداف الرئيسية للحروب الصليبية فإن استمرار الحركات الصليبية فى أواخر العصور الوسطى سوف نقدم عليه برهانا قاطعا بسرد سريع للأحداث . ولا مجال للشك فى أن القرن الرابع عشر كان عهد الحروب الصليبية الأخيرة بمعناها الصحيح . فبعد ذلك فى أثناء القرن الخامس عشر بدأت الحروب الصليبية تفقد قيمتها الحقيقية وانتهت حينما أصبحت تسعى الى هدف يائس لا أمل فى احيائه .

وفي الأدب الشائع أن التحركات الصليبية عادت في النصف الأول من القرن الرابع عشر الممتد من (١٢٩٢ - ١٣٤٤) . أما النصف الثاني من القرن الرابع عشر الممتد من (١٣٤٤ - ١٣٩٦) فهو فترة المعارك الصليبية المتتالية في الشرق . وقد شهد هذا القرن العديد من التغيرات الأثرية التي رسمت الحدود التقليدية لمواقع الحروب الصليبية . وحتى ذلك الحين كانت الحروب المقدسة مقصورة على الشرق الأدنى - أما في أواخر العصور الوسطى فقد بلغت آفاقا تبعد عن الأرض المقدسة في كل اتجاه تقريبا . وبالرغم من أن الحروب الصليبية في القرن الرابع عشر كانت تعوزها صفات الشجاعة والقوة والمكاسب المعنوية التي اتصفت بها الحروب الصليبية الأولى ، إلا أنها تركت تأثيرها في تاريخ البشرية وذلك بفتح الطريق إلى الصين . ولقد سجلت مغامرات الرسول اللاتيني الاستكشافية في بلاط مملكة خان بالق المغولية ثورة على الحقائق الجغرافية في العصور الوسطى فان فكرة الاتحاد مع المغول بعد اعتناق المسيحية في النضال ضد السلاطين المماليك في مصر وسوريا قد أطلق عليه في بعض الأحيان اسم « صليبية التتار » ولقد أصبح هذا من الملامح الرئيسية في الأدب الشائع في ذلك الحين . وقد اعتنق تلك الفكرة البابوات والملوك وكان تكبير خريطة العالم القديم إلى حد ما نتيجة جانبية للحروب الصليبية الأخيرة .

وبالرغم من أن الهدف الرئيسي لكل الحركة الصليبية كان الاستيلاء على الأرض المقدسة فإنه يبدو أن الصليبيين في القرن الرابع عشر قد لجأوا إلى طرق متعددة بمهاجمة مراكز كانت تبدو أكثر أهمية في الإمبراطورية الإسلامية كان من الواجب أن تضعف وتفتقر قبل أي احتلال جدي لشواطئ فلسطين . وسوف نرى أن الحروب الصليبية لم تكن ضد الأراضي المقدسة بقدر ما كانت ضد الأناضول ومصر وشمال أفريقيا والبلقان .

وأصبح سقوط عكا على أيدي المسلمين عام ١٢٩١ مثل سقوط أورشليم عام ١١٨٧ وسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ بمثابة تذكارات للأوروبيين للحالة التوسعية في الشرق ؛ كما أصبح الملوك الجوالون في أقطار الشرق الأدنى

تذكّارا آخر لتلك الحال • فلقد قضى بيتر الأول اللوزجنى الذى أطلق عليه
وذر خزانته فيليب دى ميزير لقب مناضل المسيحية ثلاث سنوات تقريبا
(١٣٦٢ - ١٣٦٥) متنقلا من بلاط الى بلاط فى كل أنحاء قارة أوروبا
يطلب المعونة من أجل خططه الحربية • وفى باريس عام ١٣٩٣ مات
ليو السادس ملك ارمينيا الذى كان لاجئا يائسا بلا تاج ، دون أن يخلفه
ولد • وفيما بين (١٣٩٩ - ١٤٠١) ترك مانيول الثانى بلايولوجس
بيزنطة فى رحلة الى أوروبا الغربية ليرجو من كبير الأساقفة المقدس وملوك
فرنسا وانجلترا الأقوياء ارسال النجدة الى عاصمته التى طال عليها حصار
العثمانيين المتتالى وهجماتهم • وحتى بعد زوال الامبراطورية الشرقية
وسقوط تلك المدينة العظيمة لجأ الى روما شخص يدعى أنه الامبراطور
توماس بلايولوجوس • وعلى كل حال فان الحروب الصليبية قد صارت
حركة للدفاع لا للهجوم وذلك فى أثناء القرن الخامس عشر •

المبشرون والارساليات فى القرن الرابع عشر

كان القرن الرابع عشر حقا عصر التبشير للحروب الصليبية ، خاصة فى عشرات السنين الأولى منه • وكان هذا رد الفعل الطبيعى لضمير الأوروبيين تجاه الحالة التى تسير بخطى ثابتة نحو اليأس فى الشرق • وكان اخفاق الصليبيين فى انقاذ مملكة اورشليم اللاتينية والدفاع عن مدينة عكا من أهم الصفات المميزة لذلك العهد ؛ وكان على أوروبا أن تبحث عن أسباب اخفاقها فى مواجهة الاسلام • وهذا سبب تدفق الأدب الشائع الذى كان يميز تلك الحقبة من الزمن • وفى الحقيقة يبدو أن مؤيدى فكرة الحروب الصليبية قد جاءوا من كل الطبقات فى مجتمع العصور الوسطى ؛ فكان من بينهم البابوات والملوك والمحاربين والأدباء والوزراء والأساقفة وسيل لا ينقطع من الحجاج العائدين من المدينة المقدسة بقصصهم الشائقة عن الشرق . وكان أصحاب الرأى منهم يفكرون لا فى مجرد الاستيلاء ثانية على مكان مولد السيد المسيح بل فى الطريقة الثانية التى يبقئ بها هذا المكان فى أيدي المسيحيين بعد ارجاع مملكة اورشليم التى كانوا قد خسروها وضاعت من أيديهم •

ولقد بدأ هذه الحركة شاهد عيان من نابولى اسمه ثاديو وذلك عن طريق كتابه الذى أسماه "Hystoria" (التاريخ) وفيه يصف مصير آخر قلعة من قلاع المسيحية اللاتينية على شواطئ فلسطين • وكانت دعوته للاتحاد بين كل أمراء المسيحيين تحت قيادة الكنيسة لانقاذ «ماورثناه» عن أجدادنا « متفقة مع سياسة الباباوية الرسمية • ولقد اقترح معاصره نيقولا الرابع (١٢٨٨ – ١٢٩٢) « حجا جماعيا » بمعاونة شارل الثانى من اينو نحو عام ١٣٠٩ ، وزاد من تعلقه بذلك أحقيته لطلب تاج مملكة اورشليم اللاتينية • وحتى قبل سقوط عكا نصح أحد الفرنسييسكان واسمه فيد نزيو من باديو البابا نيقولا بما يتبع فى خطة المعركة المقترحة

وذلك فى كتاب عنوانه «تحرير الأرض المقدسه» Liber Recuperationis Terre Sancta. وقد ناقش المؤلف التحصينات العسكرية على ساحل الامبراطورية الاسلاميه كما ناقش مشكله القواعد العسكريه فى أرمينيا وسوريا والقرى البحريه والبريه والطرق المؤديه الى الشرق ، كما ناقش موضوعات أخرى هامه ، وذلك بافتراض أن عكا ما تزال فى أيدي المسيحيين **مما قلل أهمية بعض أوجه نصحه ، ومع ذلك فإن إرشادات نيقولا الرابع** كانت شاهدا على مولد فترة جديدة فى الدعاية الأدبيه والدبلوماسيه من أجل الحروب الصليبيه .

ان انتاج المبشرين للدعوة الصليبيه هائل فى أبعاده . ولذا يجب أن نستعين بمقياس دقيق للنخبه الممتازة منها حين دراسة بعض نماذجها أو بعض ما يتميز فيها بصفات خاصة بارزة . ولعل أحدث شرح لهذا الموضوع هو ما نسب الى رايموند لل الكتالونى . وقد ولد فى عام ١٢٣٢ وقتله المسلمون الغاضبون على شواطئ شمال افريقيا عام ١٣١٥ أو ١٣١٦ . وكان كل من الشخصيات العجيبه فى عصره بل فى أى عصر آخر .

فلقد كان شاعرا وفيلسوبا . ألف مئات متعددة من الكتب بطريقة جديدة فى الفلسفه مبنية على اتحاد المعرفة ووحدتها وأوضح ذلك فى كتابه شجرة العلوم Arbor Seientiae “ وفوق ذلك كان من بين أقدم المستشرقين الذين اتقنوا اللغة العربيه حتى أنه كان ينظم الشعر العربى . وبالرغم من أنه قد بدأ حياته يتبنى فكرة خطه جديدة للصليبيه ظهرت فى كتابه « التحرير النهائى » .

فانه سرعان ما فكر فى أنه قد يكون من الأفضل أن يحاول كسب المسلمين باعتناقهم المسيحيه . وأنه عن طريق انقاذ أرواحهم مما حسبه ضلالا سوف يكسب الأرض المقدسه مستقبلا ومعها العالم الاسلامى بأكمله الى حظيرة المخلص دون عنف ولا سفك للدماء . ولذلك كانت دراسته للغة العربيه والاسلام وسيله للوعظ من أجل المسيحيه ، وبذلك صار رسولا للارسلاليه المسيحيه بين المسلمين . ولقد عبر البحر ثلاث مرات الى شمال افريقيا من أجل بلوغ ذلك الهدف المحفوف بالأخطار . وكانت مناقشاته

فى رحلته الأولى مع ابن عمار مفتى تونس العظيم ، وظهرت تلك المناقشات فى كتاب « محاورات رايموند المسيحى وعمار الساراسينى » أما فى رحلته الثانية فقد قبضت عليه السلطات التونسية وأودعته السجن حتى أطلق سراحه وأرجعه الحاكم المسلم الى بلده . أما فى رحلته الثانية فقد توج بتاج الشهداء الذى كان يأمل الحصول عليه . وذلك حينما قتله الدهماء خارج ميناء بوجيا (بجاية) الجزائرية . وقد بلغ من العمر اثنتين وثمانين سنة . وأنقذ جثته بعض بحارة جنوه ودفنوها فى كاتدرائية بلده الأصلية لاس بالماس فى جزيرة ميورته [من جزر بليار] .

وفى تلك الأثناء كانت الروح التقليدية للصليبية تلقى الرعاية والاهتمام الكبيرين فى بلاط فرنسا حيث كان فيليب الرابع (١٢٨٥ - ١٣١٤) بعد أن أهان البابا بونيفاس الثالث (١٢٩٤ - ١٣٠٣) فى روما ، وبعد أن أقام الباباوية فى نطاق مملكته فى أفينيون ، أراد أن يمد سلطان فرنسا وقيادتها الى معظم دول العالم . وعلى رأس الأشياء الكثيرة التى كان يرغب فى تحقيقها ، تنصيب أحد أبنائه رئيس لامبراطورية شرقية جديدة تشمل بيزنطة والأرض المقدسة وسلطة الممالك فى مصر . ويبدو أنه كان يعتبر نفسه الوارث الشرعى للقيادة العالمية لكبار الأساقفة المقدسين . وكانت الصليبية أساسا لسياسته الخارجية . وتبعاً لهذا أدى بلاطه كل ما كان يغذى آماله بالوثائق والدعايات للصليبية مما كان يجذب اهتمامه . ومن اشتهر بين هؤلاء اثنان من المستشارين الفرنسيين المشهورين وهما بيير ديبوا ووليم النوجارتى . ولقد جاءه كذلك كثيرون من رجال الأعمال البارزين مثل : جيمس دى مولاي كبير رؤساء الداوية ، وفولك دى فيلارت كبير رؤساء فرسان القديس يوحنا فى أورشليم ، وهنرى الثانى دى لوزجنان ، وملك قبرص اللاتينى ، وبنيتو زكاريا Benito Zaccharia قائد جنوه للبحرية الفرنسية . كل هؤلاء جاءوا الى الملك ليقدّموا مساعدتهم حتى ينفذ خطته .

وخير ما يمثل الأفكار السائدة فى بلاطه حينئذ هو كتاب ديبوا - وكان من المؤلفين النادرين فى العصور الوسطى - وقد سن ديبوا قوانين تحكم العالم بأجمعه اذ كان سيده الملك هو الشخصية التى تملك زمام

السلطة . وكان الهدف هو القضاء على الخلافات السياسية بين الأمراء فى الغرب عن طريق الاقناع والسياسة ؛ واذا استدعى الأمر فيكون ذلك بالقوة ، فكان لابد أن تقام محكمة أوربية تتألف من ثلاثة من كبار رجال الدين ، وثلاثة من الأهالى من أجل المشكلات الدولية . وبذلك كان من الممكن فرض التشريعات الاقتصادية على الولايات العنيدة المناهضة للملك . وفى هذه القوانين التى وضعها ديبوا فى كتابه ، الإبقاء على حق الرجوع الى البابا كما هو ، ولكن على البابوات أن يعيشوا فى فرنسا داخل منطقة نفوذ ملك فرنسا كما كانوا يفعلون منذ بداية الاستيلاء على بابيلونيا فى أفينيون . وكان على الملك أن يحكم أراضى الكنيسة وأن يعود الكهنة الى الوضع الأصيل أى الفقر . وكان على نظامى فرسان أورشليم وكذلك فرسان القديس يوحنا أن ينضموا الى تنظيم واحد ، وأن تصدر مواردهم لتمويل المعارك الشرقية ، وكان على دستور الامبراطورية الرومانية المقدسة أن يتحول الى نظام وراثى على رأسه أمير فرنسى ، وبذلك يتم تنويع ابن فيليب بتاج مصر والأرض المقدسة بعد استردادها . وقد أدلى ديبوا بالتفاصيل عن حكومة الشرق العسكرية الجديدة ، وعن عمل الارساليات بين المسيحيين الشرقيين وبين المسلمين ، وقال ان على من يقوم بهذا العمل أن يتقن اللغات الشرقية . ومما لا شك فيه أن تلك الأفكار الغربية كانت تستخدم كأداة للصليبية حتى تؤكد سيادة فرنسا على بقية أنحاء العالم . وعلى كل حال فان ديبوا الذى قام بتلك الدعاية لم تكن له خبرة شخصية فى هذا المجال . أما مارينو سانودو الأكبر (١٢٧٤ - ١٣٤٣) فقد كان من أصحاب الدعاية أيضا ولكن شخصيته كانت تختلف تمام الاختلاف عن شخصية ديبوا . فقد كان سانودو مفكرا عاقلا قضى معظم حياته فى الشرق وكان من سلالة ناكسوس دون البندقية فى الأرخبيل ولقد كان رجلا شديد الذكاء والفتنة ، عظيم المعرفة والخبرة بتلك المنطقة التى جاب أطرافها . وفى أثناء تجواله استطاع أن يجمع كمية عظيمة من المعلومات الصحيحة عن دول الشرق الأدنى مزودة بأوصاف دقيقة واحصائيات . والحقيقة أن سانودو يستحق لقب أول احصائى فى تاريخ أوربا . وكانت مناقشاتة مبنية على مستوى عال من الاعتبارات الاقتصادية . وقد ذهب الى أنه اذا أمكن تجريد سلطان مصر من المصدر الأساسى لميزانيته وهو التجارة فانه بلا شك سوف يقع فى افلاس مادى وعسكرى ، ونتيجة لهذه يمكن

للمسيحيين أن يتغلبوا على جيوشه ويستردوا الأرض المقدسة بدون مشقة كبيرة . وكانت متاجر امبراطورية المماليك هي الأماكن الوحيدة التي تستقبل عطارة الشرق وتجار الفلفل ؛ وكانت القوى البحرية في جنوب أوروبا تسعى بكل حماس للحصول عليها . ولذا كانوا يدفعون ضرائب كبيرة لأعداء الصليب من أجل الحصول على تلك العطارة . وعلاوة على شراء خزائن السلطان من تلك الضرائب فإن جنوة وغيرها من البلاد الإيطالية كانت تملكه - كجزء من تبادل التجارة بينهما - بأدوات الحرب والعبيد من أسواق كافا وغيرها من البلاد التي كانت تمتد كتائب المماليك بالعبيد .

ولقد سجل مارينو سانودو انفعالاته الشخصية إزاء تلك الأحوال ، كما سجل أفكاره من أجل إيجاد الحل لأحوال الغرب السيئة ، ولقد سجل كل هذا في كتاب أثري «سر الصليبية المخلص» *Secreta Fidelium Crucis* وأهدى الطبعة الأولى منه للبابا كليمنت الخامس في عام ١٣٠٩ كما أهدى الطبعة الثانية للملك فرنسا شارل الرابع .

وبعد استفسارات دقيقة اقترح حظر التجارة مع حدود المسلمين بالرغم من أن هذا يؤدي إلى قطع الصلات بينهما . وعلاوة على ذلك أشار إلى أنه لا بد من إقامة مناطق حصار ساحلية عسكرية تحت قيادة البابا ، وذلك لمراقبة حظر التجارة مع المسلمين وحتى تمتص كل موارد مصر ويصبح جيشها في أمس الحاجة إلى الجنود والعتاد الحربي . ولقد قدر لهذا العمل ثلاث سنوات ليأتي بالنتائج المنشودة . ولكن بالرغم من أن رئيس الأساقفة المقدس قد دعم هذه الخطة في الحال فإنها فشلت فشلا ذريعا وذلك لسببين رئيسيين أولهما سماح البابا لبعض سفن البندقية بمعاودة التجارة مع العدو . وثانيهما خيانة أهل جنوة الذين أخذوا يهربون عتاد الحرب والصبيبة إلى الأسواق المصرية وذلك مقابل الضروريات القيمة وبعض المزايا التجارية .

وقد يكون من غير جدوى أن نحاول إجراء عرض كامل لجميع من قاموا بالتبشير للحرب الصليبية في القرن الرابع عشر . ومع ذلك فعلينا ألا نتجاهل فكرة رئيسية في ذلك الحين وهي التحالف مع التتار لتكون الحروب الصليبية أشد بأسا ضد المسلمين . ولقد ألهمت هذه الفكرة خيال

الغرب ودفعت الى بعث ارسالية لاتينية الى التتار مما أدى الى نتائج عظيمة من أجل الصليبية . وان أعظم فترة أثناء ارسالية الكاثوليك الى الصين التي بدأت أثناء قيام رئيس الأساقفة اينوسنت الرابع (١٢٤٣ - ١٢٥٤) وأثناء حكم ملك فرنسا القديس لويس (١٢٢٦ - ١٢٧٠) يمكن أن ترتبط بأسماء جون من دير كورينو John of Monke Corrino ، أودريون من بوردينون Oderio of Por denone ولقد ذهب جون بمحض ارادته وبدون أى ضجة الى مملكة خان بالق ويقال انه قام بتعميد ٥٠٠٠ نفس في بكين عام ١٣٠٤ ، وأقام كنيستين وترجم المزامير والعهد الجديد الى لغة تلك البلاد . وبعد عشر سنوات لحق به أودريك الذى دار حول آسيا عن طريق ايران والهند وجزر اندونيسيا . وعاد أودريك الى أفينيون عام ١٣٣٠ مجهدا أشد الاجهاد ، وتوفى فى السنة التالية فى يودين Udine . وخلال تلك الفترة قام البابا بتعيين يوحنا رئيسا للأساقفة فى سلطانيا Sultaniya وفى الشرق الأقصى اعترافا بانتصاراته ، كما أرسل البابا سبعة من الأساقفة لمعاونة يوحنا فى عمله الدينى الجديد . ومات يوحنا عام ١٣٢٨ كما قتل آخر خلفائه يوحنا الفلورنسى فى مكان مجهول فى قلب الصين عام ١٣٦٢ . وبذلك دق جرس انتهاء الديانة الكاثوليكية الرومانية فى الصين فى العصور الوسطى . ولكن الجهود المشتركة مع منغوليا قد أحيائها كرسنوفر كولومبس الذى أراد أن يصل الى الهند بالطريق الغربى واعترض العالم الجديد طريقه وأدى اكتشاف أمريكا الى تغيير وجه التاريخ بأكمله والى التغيير فى الصليبية .

عصر الحروب الصليبية الاخرة

كان من نتائج الدعاية الصليبية التى استمرت عشرات السنين أن استؤنفت الحروب المقدسة التى انتصرت فيها الصليبية فى سلسلة من المعارك فى النصف الأخير من القرن الرابع عشر • وكان أول جزء من تلك الحروب هو الحروب الصليبية الأجنينية التى تكون فيها القطاع المقدس من البندقية وقبرص وفرسان القديس يوحنا تحت قيادة البابا كليمنت السادس • وقد نجح هذا القطاع فى استرداد أزمير من أيدي الأتراك عام ١٣٤٤ ، واستمرت حماية فرسان القديس يوحنا حتى فك تيمور حصار المسيحيين حولها عام ١٤٠٢ • وقد استولى الأتراك على الحكم فى كل الأناضول بعد انسحاب المغول من شبه الجزيرة •

وبالرغم من أن نزول القوات اللاتينية فى آسيا لم يكن ذا أهمية بالغة فإن أوروبا قد رحبت به واعتبرته بداية لانتهاء الامبراطورية الاسلامية • لذا أقيمت صلوات الشكر والاحتفالات الشعبية فى كثير من مدن الغرب ؛ ودعا بابا أفينيون كليمنت السادس ملك إنجلترا ادوارد الثالث وملك فرنسا فيليب السادس ليجنبا ثمار ذلك الانتصار المسيحى فى الشرق ، وذلك بأن يوحدا جهودهم وأسلحتهم من أجل عمل حاسم ضد عدوهم المشترك بدلا من الاستمرار فى معارك حرب المائة عام • وهكذا بدأ الموقف مناسباً كل المناسبة للاحتفالات العظيمة الحاسمة للصليبيين وعاشت المسيحية فى انتظار شخص آخر مثل جود فرى من بويون لقيادة قواتها الى القتال •

وفى تلك الأثناء اعتنق أحد الاقطاعيين التعساء المجهولين فكرة الحرب الصليبية مقتنعا بأسبابها ، وهو من جنوب شرقى فرنسا واسمه همبرت

الثانى ، أكبر أبناء ملك فرنسا من فينوا . وأقنع البابا أن يمنحه لقب «القائد العام للصليبية ضد الأتراك وغير المخلصين لكنيسة روما المقدسة» على شرط أن يزود خمس سفن حربية باثنى عشر علما و ٣٠٠ فارس وألف رامى قوس ليحاربوا فى الشرق حيث كان عليه أن يبقى ثلاث سنوات على الأقل . وكان قبل ذلك قد فقد همبرت ابنه ووارثه الوحيد وأصبح فى حالة لا يمكن تعزيتة فيها . ثم كان أيضا قد قام بنزاع مع الكنيسة ولم ينقذه من طرده من الكنيسة الا رحمة البابا وعفوه . فلما سنحت فرصة القتال من أجل الصليب وجد فرصة لدفن أحزانه على وفاة ابنه كما هيات له فرصة التفكير عن خطاياہ الماضية ضد الكنيسة المقدسة . ولذلك تنازل عن حقوقه الشرعية باعتباره ولى عهد ملك فرنسا مكرسا نفسه لخدمة كبير الأساقفة المقدس فى الحرب الصليبية .

وكانت الصليبية تحت قيادة همبرت استمرارا لمعركة بحر ايجه ، وقام البابا بتصميم تلك الحملة ليساعد أهل جنوة فى مستعمرتهم كافا فى القرم التى كان يحاصرها التتار ثم يهاجم الأتراك فى الأناضول . ولقد أبحر ولى عهد فرنسا السابق من مارسيليا فى أغسطس عام ١٣٤٥ ، وعبر سهل لمبارديا بعد أن نزل فى جنوة ليستأنف رحلته مع قواته من البندقية الى نجرو بونتس ولأنه لم يستطع المغامرة والمرور فى الممر الخطر فى ممره . كان عليه التدخل فى المنازعات والخلافات المحلية فى الامارات اللاتينية ولم يستطع القيام بشئ سوى التدخل فى منازعات بسيطة مع البحارة والأتراك فى بحر ايجه ثم فى أزمير فيما بعد . وقد أدى اذعانه لكل أوامر البابا الصغير منها والكبير الى ترده فى كثير من الأعمال . كما أن نبأ وفاة زوجته قد ألقى ظلالا جديدة من اليأس على حياته . وفى صيف عام ١٣٤٧ قرر أن يصبح راهبا دومينيكيا ، فأعفاه البابا من واجباته العسكرية ومنحه لقب « بطريك الأسكندرية » وعينه رئيس أساقفة باريس فيما بعد عام ١٣٥٤ . ومات فى سن مبكرة اذ كان قد بلغ الثالثة والأربعين حينما كان يمر فى جنوب فرنسا متجها الى عمله الدينى الجديد بعد أن أخفقت حياته الدنيوية .

كانت أول رحلة حقيقية للحج العام محجوزة ملوك قبرص من لوزيجنان تلك الجزيرة التى جعلها موقعها الجغرافى السياسى مقرا لاجتماع جميع

الصلبيين والتجار اللاتينيين • وشجعهم على ذلك الاستيلاء على بعض موانئ الساحل الجنوبي للأناضول ومن بينها جوريجوس وأصاليا عام ١٣٦١ • وفى ذلك الحين كان ثلاثة من أبطال فكرة الصليبية مجتمعين فى قبرص وهم : الملك بيير الأول دى لوزجنان (١٣٥٩ - ١٣٦٩) وبيتر دى توماس (مات عام ١٣٦٦) البطريرك اللاتينى للقسطنطينية والمبعوث الدينى للشرق منذ عام ١٣٦٢ • أما الثالث فكان فيليب دى ميزير (مات عام ١٤٠٥) الذى أصبح المستشار الأول لمملكة قبرص وكان من أبعاد الدعاة للصليبية صيتا فى ذلك العهد • وقد قضى فيليب سنوات عمره الأخيرة فى الكتابة من أجل الدعوة لخطته الدينية العسكرية والتى أطلق عليها اسم " Militia Passionis Jhesu Christi " وكان يحلم بخلق اخاء عسكرى موحد فى كل أنحاء أوربا تحت لواء جيشه الجديد الذى كان يجب أن يتألف من كل الأنظمة العسكرية ومعها رجال الاقطاع فى أوربا أملا فى استرداد الأرض المقدسة •

وفى ذلك الوقت اصطحب ملك قبرص فى جولة لجمع التبرعات والمرزقة لتنفيذ مشروعاته المستقبلية من أجل الصليبية ، وذلك فى فترة من فترات سلطته الملكية فى أوربا (١٣٦٢ - ١٣٦٥) أيام كانت تلك السلطة ممتدة من بولندا الى فرنسا ومن انجلترا الى البندقية • وهكذا تجمعت أطراف أوربا المتباعدة وتلاقت فى مياه رودس • وأبحر بطرس الأول من البندقية فى يونيو عام ١٣٦٥ ليقود أسطولاً يتكون من ١٦٥ سفينة ضد هدف مجهول فيما وراء البحار • ولقد حافظ الملك على سر أهدافه كما حافظ مستشاراه الرئيسيان على كتمانها ، وهما بيير دى توماس ، فيليب دى ميزير خوفاً من خديعة البندقية أو جنوه عن طريق تنبيه العدو وإيقاظه •

ولم يذع سر اتجاههم الى الاسكندرية الا حينما أبحرت الكتائب فى وسط البحر وكانت على مرآى من المدينة يوم الخميس ٩ أكتوبر عام ١٣٦٥ ورسيت على شاطئ مينائها الغربى فى اليوم التالى • وقد دام حصار المدينة سبعة أيام • وأتى ذلك الحصار بنتائج لا يمكن قياسها •

وقد حدث فى أثناء حكم السلطان شعبان (١٣٦٣ - ١٣٧٦) ولم يكن الا طفلا لم يتجاوز عمره الحادية عشرة على حين كان حاكم المدينة

ابن عرام يؤدى فريضة الحج فى أرض الحجاز . وكان بلاط المماليك منقسماً بسبب ما فيه من شقاق . أما أتابك يلبغا الذى كان يقوم بالوصاية على السلطة ، فلم يستطع أن يسير جيوشاً كافية الى الاسكندرية لرد عدوه الا بصعوبة . فكان عليه أن يدور عند حافة الصحراء الغربية بسبب فيضان نهر النيل فى الدلتا . وبمجرد أن ظهر الجيش المصرى فى منطقة مريوط جلت القوات المسيحية عن المدينة فى ١٦ أكتوبر دون أية محاولة جدية للدفاع عن المدينة التى كانوا قد احتلوها معارضين فى ذلك أوامر الملك ونصيحة بيتر دى توماس وفيليب دى ميزير . فبعد أن سطوا على كنوز المدينة واشعلوا النار فى أبنيتها العامة ومخازنها الرئيسية كان كل همهم وشغلهم الشاغل هو العودة الى قبرص بسلام ومعهم غنائمهم العظيمة التى نهبوها وسلبوها . وهكذا انتهت مأساة أكثر المخاطر الصليبية نجاحاً فى القرن الرابع عشر . ولم ينس المصريون قط ذلك التخريب الذى حدث لمدينتهم بما فيها من فن رائع ، وكان على أهل قبرص أن يدفعوا الثمن غالياً فى القرن التالى جزاء ما ارتكبوه فى الاسكندرية .

وعلى كل حال فقد أدت نتائج هذا الحادث الى قيام حرب صليبية أخرى ، وسرعان ما انتشرت أخبار ذلك النصر الوقتى فى الاسكندرية فى الغرب كما حدث فى المعارك السابقة فى الشرق . فأمر البابا اربان الخامس جميع المخلصين للصليبية بالقيام بمثل هذه الحملة حتى يصلوا الى نصر محقق فى نهاية الأمر . وكان أكثر الجميع تجاوباً جاداً لهذا النداء أميديو السادس كونت سافوى الذى تناول الصليب سابقاً من يد البابا نفسه ومعه الملك بيتر دى لوزجنان عند أفينيون .

وقد أدى الزواج بين أفراد سلالته وبين أسرة بلايولوجي The Palaeologi الى تغيير خطة الاستيلاء على قبرص التى اختطها أول الأمر ، وحول مجرى حملته الى الحرب للحصول على بيزنطة من الغزاة الأتراك وبعض حلفائهم من المسيحيين والمنتفعين من الأراضى فى البلقان . وأبحر أميديو السادس من البندقية فى يونيو عام ١٣٦٦ على رأس جيشه الاقطاعى ولحق به جيش من الجنود المرتزقة من ايطاليا وألمانيا وفرنسا وانجلترا والتقوا به فى كورن فى شبه جزيرة المورة ، حيث قامت خمس عشرة سفينة حربية

وكان هدفها الأول غالبولى • وكانت شبه الجزيرة الصغيرة فى حوزة العثمانيين منذ حكم السلطان أرخان (١٣٢٥ - ١٣٦٠) وهى عظمة القيمة للأتراك باعتبارها مرسى ينزل فيه الجنود وقاعدة لعمليات التوسع فى شبه جزيرة البلقان • وقد فاجأ الصليبيون حرسها وكان استردادها فى أغسطس لطمه قاسية للأتراك • وفيما بعد ذهب الكونت الى القسطنطينية حيث تبين أن قريبا له وهو الامبراطور جون الخامس البلايولوجى قد أسره شيشمان ملك بلغاريا • ولهذا اضطر الى الهجوم من أجل سراح الامبراطور بدلا من جنى ثمرة كسبه الثمين الجديد من الأتراك • وبعد توغله فى بلغاريا من البحر الأسود حتى فارنه نجح فى مفاوضاته من أجل اطلاق سراح الامبراطور الأسير • وبنهاية عام ١٣٦٦ كانت موارده المادية قد نضبت فاضطر الى الانسحاب الى القسطنطينية حيث دفع له جون مبلغ ١٥ ألف فلورين [من العملة الانجليزية] مقابل تسليم الحدود التى كان قد استولى عليها • وساعده هذا المبلغ على دفع أجور الجند المرتزقة وأعفاهم من عملهم قبل منتصف عام ١٣٦٧ •

أما الحرب الصليبية التالية فقد قامت فى عام ١٣٩٠ ضد مملكة تونس • اذ نظمت حملة مشتركة من أهالى جنوه ومملكة فرنسا من أجل أهداف مختلفة • فبينما كان أهل جنوه يهدفون الى تأديب القراصنة البرابرة الذين كانوا يعترضون سفنهم التجارية فى مياه غربى البحر الأبيض المتوسط ، كان نبلاء فرنسا تحت قيادة الدوق لويس الثانى من عائلة البربون يفكرون فى مناصرة سانت لويس ضد المسلمين فى تونس • وكان المراكشيون المسلمون قد استقروا فى بلدة « المهديّة » التى تعرف فى المصادر الفرنسية باسم Cité d'Auffrique وكانوا حينئذ فى مأواهم هذا تحت حماية الملوك الحفصيين فى تونس • واتفق الطرفان المتحالفان فى الحروب الصليبية على أن تمد جنوا الحملة بأسطول كامل مجهز بجيش من البحارة ، وكان على الدوق أن يمدهم بالقوى البرية من النبلاء الاقطاعيين والفرسان والجنود المسلحين • وقد بارك البابا كليمنت السابع المشروع وأعلن رسميا قيام الحرب الصليبية على حين انضم الرجال من فرنسا وانجلترا وهينو (*) والفلاندرز حتى بلغ عددهم ١٥ ألفا الى جانب قوى

(*) هينو Hainault فى جنوب غرب بلجيكا •

الدوق . أما أهل جنوه فقد بلغ عددهم ستة آلاف ، وكان منهم ألفان من الرماة الجبابرة الشجعان ، والجنود المسلحين ، وكان الباكون منهم بحارة مهر تحت قيادة الاميرال جيوفانى سنتيوريون دى الترامارينو الذى كان يهدف الى الحصول على جزيرة كونيجلييرا ، وكانت على بعد ستة عشر فرسخا من ساحل افريقيا ، وكان يسهل الوصول اليها عن طريق الميناء لساحل المهديّة .

وهناك اجتمعت السفن المسيحية بعد رحلة قاسية . وقرر المجلس الحربى الخطط التاكتيكية قبل حصار المدينة . وحينما وصلوا الى الاراضى الافريقية تعرضوا لهجمات عصابات من الجيوش المشتركة من تونس وبجاية وتلمسان . وكانت تلمسان تتجنب أية معركة منظمة مع أعداء أشد منها قوة . ومن الناحية الأخرى استخدم الأوروبيون كل وسائل الحرب الحديثة محاولين فى ذلك تخريب جدران المدينة وأبوابها ، وكان من بين تلك الوسائل المستحدثة استعمال البارود . ومع ذلك لم يستطيعوا بلوغ هدفهم الرئيسى . ولما رأى أهل جنوة العمليون الصعاب التى كانت تحاصرهم بدأوا سرا فى المباحثات والوصول الى اتفاقات من جانب واحد مع العدو الذى كان على وشك الانهيار . واتفق الجانبان على الهدنة مدة عشر سنوات مع ايقاف أعمال القرصنة ، ووافق ملك تونس على أداء ضريبة سنوية مدة خمسة عشر عاما من أجل الاحتفاظ بالمهدية دون حرب وعلى دفع تعويض مباشر قدره ٢٥ ألف قطعة ذهبية (دوكات) تقسم بين الولاية وبين الدوق . واجتمع المجلس الحربى ليعتمد المعاهدة المعروضة بالرغم من معارضة الدوق الذى أعلن غاضبا أنه سيكون آخر الصليبيين الذين يركبون سفينة حربية . وأخيرا عادوا الى وطنهم فى أكتوبر عام ١٣٩٠ بعد أن استخدم تجار البندقية الحاذقون الفرنسيين مخلب قط لهم من أجل حل احدى مشاكلهم الرئيسية .

أما أعظم الغزوات الصليبية التى تعد بلا جدال أكثرها جرا للمصائب فى القرن الرابع عشر فهى ما قام فيها بعد عام ١٣٩٦ لمواجهة الموجة العارمة لتوسع العثمانيين فى أوروبا الشرقية . فقد ظهر هذا التهديد الجديد فى المجر وقد أبلغ أخبار هذا التهديد نيكولاس كانيزساي كبير أساقفة جران

وزیر خزانه المجر ، وأبلغ هذه الأخبار بلاط فرنسا عام ١٣٩٥ على لسان الملك سيجموند الذى بعثه ليستنجد بمعونة الغرب . وحوالى ذلك التاريخ كتب فيليب دى ميزير رسالته الهامة - التى لم تكن قد نشرت حتى ذلك الحين - الى ملك انجلترا ريتشارد الثانى (١٣٧٧ - ١٣٩٩) بناء على أمر ملك فرنسا شارل السادس (١٣٨٠ - ١٤٢٢) يطلب عودة السلام بين البلدين ويحث على توحيد الجهود فى الشرق .

ولكن الانظار كانت متجهة الى أغنى رجل فى أوربا وهو فيليب الجسور (١) دوق برجندى (١٣٦٣ - ١٤٠٤) من أجل البداية المفيدة للحركة - وفى الحال قام فيليب بالعمل من أجل الهدف الجديد . فقد كان يود من كل قلبه أن يصبح ابنه ووارثه جون دى نيفير (٢) الملقب فيما بعد بالباسل (٣) وإن يأخذ لقب الفارس النبيل أثناء محاربته للخونة . ولذلك عين فيليب ابنه جون لقيادة القوات الفرنسية البرجندية . ولقد أصدر كل من بابا أفينون بنديكت الثالث عشر (١٣٩٤ - ١٤١٥) وبابا روما بونيفاس التاسع (١٣٨٩ - ١٤٠٤) أوامرها من أجل دعم كل منهما للصليبية فى حدود سلطته القانونية . وقامت أفخر الاستعدادات وأعظمها من أجل الحملة العالمية . وأسرع أشهر الرجال ليقيدوا أسماءهم تحت قيادة نيفير ، كما فعل ذلك مؤيدوهم الاقطاعيون وقوات الجيوش المستأجرة (٤) . وكثيرون غيرهم أسرعوا للانضمام تحت لواء نيفير منضمين بذلك الى أتباع الاقطاعيين وجيوش المرتزقة .

Philip the Bold. (١)

John de Nevers. (٢)

John de Fearlers. (٣)

(٤) ومن بين مشاهير الرجال الفرنسيين .

John le Meingre, dit Boucicaut, marshal of the realm.

Admiral John de Vienne

Enguerrand de Coucy

Philip and Henry de Bar

Guy and Guillaume de la Trémouille

الأميرال جون من فينا

انجيراند دى كوسى

فيليب وهنرى دى بار

جى وجيوم دى لا ترموى

• وكان رد الفعل لذلك أكثر تعميما • فلقد أتى الحلفاء والألمان تحت قيادة الكونت بلاتين ، وربرخت بيبان كونت كاتزنلنبوجن ، الكونت هومان الثانى من سيلى ، بورجراف جون الثالث من نورمبرج ، واشترك كل من جون هولاند إيرل هنتنجدون وجون بوفورت ابن دوق لانكستر فى قيادة قوة منفصلة تبلغ ألف فارس انجليزى • وعلاوة على ذلك تطوع الكثيرون من المرتزقة من اسبانيا وايطاليا وألحقت السفن الحربية التابعة لفرسان القديس يوحنا وهى فى طريقها الى الدانوب بأسطول البندقية وجنوه المشترك • وقد اشترك ملك المجر سيجمند الذى أصبح فيما بعد الامبراطور الرومانى المقدس (١٤١٠ - ١٤٣٧) ومعه كثيرون من مملكته وكونوا القوات المسلحة الرئيسية • وجاءت جماعات أخرى من النمسا وبوهيميا وبولندا وبصفة خاصة من ولاشيا (*) • ومنذ قيام الحرب الصليبية الأولى لم تجتمع مثل هذه الجيوش العظيمة • وقد قدرت المجموع بحوالى مائة ألف كان اجتماعهم فى بودا (Buda) حيث اجتمع مجلس الحرب العام لأول مرة فى صيف عام ١٣٩٦ لرسم الخطط وتاكتيكات المعركة •

وكان سيجموند بحكمته يجذب الخطط الدفاعية لأنه كان يعلم من خبرته السابقة أنها أكثر افادة فى محاربة الأتراك • ولكن القادة الغربيين لم يعملوا بنصيحته ويبدو هذا واضحا مما قاله فرواسارت Froissart « لقد جاءوا ليقهروا كل تركيا وليواصلوا سيرهم الى امبراطورية الفرس ... • الى مملكة سوريا • والأرض المقدسة » • فلم يأخذوا محاولتهم هذه مأخذ الجد وكانت خبرتهم بجغرافية الشرق مهوشة ومضللة •

وسارت القوات المتحدة على محاذاة نهر الدانوب حتى اورسوبا حيث عبروا النهر عند البداية الحديدية المشهورة التى تؤدى الى بلغاريا • وكانت فى نطاق المملكة التركية فى ذلك الحين • وحينما استولى الصليبيون على مدن ودن Widdin وراهوبا لم يميزوا بين قوات الحرس التركية المعادية لهم وبين الأصدقاء من المواطنين المسيحيين الارثوذكس : وفى ١٠ سبتمبر لاقوا لأول مرة مصاعب شديدة ومواقف خطيرة عند

(*) فى جنوب شرق أوروبا وتقع الآن فى رومانيا •

التحصينات القوية فى مدينة نيكوبولس الواقعة على تل يطل على الدانوب شمالا وعلى سهل جنوبا . فاستقر رأيهم على فرض الحصار على نيكوبولس من جهة ، وحاصرت السفن الحربية التابعة للبندقية وجنوا وفرسان القديس يوحنا المدينة من النهر . واستمر الحصار خمسة عشر يوما . وفى أثناء تلك المدة لم يحققوا الا القليل وقد أضاعوا الوقت فى القمار والسكر والعريضة .

أما فى المعسكر التركى فقد كانت الحال عكس ذلك . فبمجرد سماع أخبار وصول المسيحيين أمر السلطان بايزيد الأول بفك الحصار الذى سبق أن أمر بفرضه حول القسطنطينية . وجمع كل قواته الآسيوية والأوربية وسار لنجدة نيكوبولس ومعه ١٠٠٠٠٠ من الرجال تحت قيادة المنظمة . ووصل الى التلال الواقعة على جنوب السهل بالقرب من نيكوبولس فى ٢٤ سبتمبر . ونظم جيشه بطريقة عسكرية ماهرة فى موقع محصن بالقرب من قمة التل . وانتظر وقوع المعركة الهائلة المنظمة التى وقعت فى اليوم التالى . ودعا سيجمند الى وضع المجريين - الذين كانت لهم معرفة ودراية بطرق الأتراك الحربية - فى مواجهة العدو كما دعا الى وضع البولشيين معهم اذ كان يشك فى اخلاصهم ، على أن تبقى القوات الفرنسية والأجنبية فى المؤخرة من أجل الضربة الحاسمة . ولكن الفرنسيين الأقوياء أبوا تنفيذ هذا الرجاء الذى طلبه سيجمند ، واتهموه بأنه يحاول أن يسلبهم حق الفخر بيوم عظيم مشهود . وكون فرسان بايزيد غير المنظمين أول خط عثمانى متحرك فى المعركة ، وكانوا يخفون خلفهم حقلا من أعمدة مسنونة كانت تفصلهم عن الخط الثانى من المشاة الذين يستخدمون الأقواس والسهم . وحينما واجهت حواجز الأعمدة المسيحيين نزل كثيرون منهم عن جيادهم - تحت وابل من السهام - لانتزاع الأعمدة من الأرض وذلك ليفسحوا الطريق لغيرهم من المهاجمين . وسرعان ما نجحوا فى ذلك وقاموا بذبح الكثيرين من الأتراك بعد حرب متوحشة احتدم فيها القتال وجها لوجه . ثم اقتفوا أثر الهاربين منهم فوق قمة التل وقد وصلوا اليها وهم فى حالة من الاعياء الشديد معتقدين أن ذلك هو نهاية يوم عظيم .

وقد فزعوا حينما أدركوا أن ذلك لم يكن الا بداية النهاية ، اذ رأوا خلف خط الأفق فرسان بايزيد وقواته الموالية من جنود العرب تحت قيادة ستيفن لازاروفتش ، وكان عددهم حوالى ٤٠.٠٠٠ وكان مظهرهم يدل على أنهم على استعداد لبداية مرحلة جديدة من المعركة . وانعكست المذبحة وولى المهاجمون الأدبار واقتفى أثرهم من كانوا يقتفون أثره وأسر من بقى منهم على قيد الحياة . وفى هذه الأثناء اندفعت الجياد التى لم يكن يركبها أحد والتى أهملها الفرنسيون فى بدء المعركة فى حالة من الفوضى - الى المؤخرة عبر السهول وقد أصابتها سهام الاتراك . وعندما رآها المجريون والولشيون اعتبروها رمزا أكيدا لهزيمة أصحابها حلفائهم - وكان هؤلاء قد ولوا الأدبار هاربين . ونجح سيجسموند وهو حاكم رودس ووالى نورمبرج فى انقاذهم بصعوبة على ظهر سفينة من البندقية أبحرت منحدره مع التيار وبدأ العثمانيون فى الظهور بين المسيحيين الباقين .

وحينما سكنت أصوات المعركة وأصبح للسلطان وقت كاف لتفقد مكانها ، انزعج أشد الانزعاج لما أصابه من خسائر ، قدرت بثلاثين ألف مقاتل . ولذلك أظهر سخطه فى اليوم التالى بشنق ثلاثة آلاف من أسرى الحرب . وتبين بايزيد أن من بين الأسرى جاك دى هلى الذى كان قد استخدمه سابقا فى معاركه فى الشرق والذى كان يعرف اللغة التركية . ونتيجة لمحادثات « جاك » واتفاقاته مع الاتراك نجا النبلاء الفرنسيون من الشنق ومن بينهم : جون دى نيفير ، وانجوبراند دى كوسى ، وفيليب دى ارتوا ، وجى دى لايرموى وغيرهم . ولكنهم ظلوا رهائن تنتظر دفع جزية قدرها ٢٠٠.٠٠٠ فلورين من العملة الذهبية . وازعجت أنباء تلك المصائب أوروبا التى انتشر فيها الحزن والأسى . وحدد حظ الفرسان الغربيين العاثر فى نيكوبولس نهاية مرحلة وبداية مرحلة أخرى فى العلاقات بين الشرق والغرب . وأخذ الأمل فى حرب صليبية ناجحة يضعف رويدا رويدا الى أن اضطر الغربيون الى قبول الاتراك عضوا فى أمم الكومنولث الأوروبية بالرغم من اختلاف دينهم وعنصرهم .

وبعد الكارثة التى حلت بالفرسان المسيحيين فى نيكوبولس لم يبق

لدى الأمم أى استعداد للدخول فى مغامرات خطيرة لهزيمة قوة الاسلام أو لوضع نهاية لسيطرة الأتراك . وبدأت تخدم ثورة الدعاية العظيمة التى ظهرت فى أوائل القرن بالرغم من وجود بعض الكتاب الذين كانوا ينادون باستئناف الحروب الصليبية . وأكثر هؤلاء شهرة فيليب دى ميزير الذى قضى سنواته الاخيرة فى عزلة فى دير بندكتينى فى باريس ، يقوم فيها بتحرير كتب متعددة ضخمة دفاعا عن الصليبية . وبعد الهزيمة فى ١٣٩٦ فى بلغاريا تناول قلمه ليؤلف رسالة هامة عنوانها « رسالة حزينة ومعزية » Epistle lamentable et consolatoire أهداها الى دون برجنديا .

ولقد حاول دى ميزير أن يحلل أسباب فشل المسيحيين فى الشرق كما أخذ يصف العلاج لهذا الفشل . وقال ان سبب عجز المسيحيين راجع الى نقص الفضائل الأربع اللازمة : الترتيب والنظام والطاعة والعدل . فبدلا من هذه الفضائل كان المجتمع يحكمه ثلاث رذائل من بنات ابليس وهى الغرور والطمع والرفاهية . وأعلن ميزير أنه يمكن الوصول الى قمة الكمال Summa Ferfectio عن طريق تبني أفكاره الدينية الجديدة التى يمكن بها انقاذ مكان مولد المسيح . وكان هذا التنظيم أو طريق الدين ذو الطابع العسكرى هو الطريق الوحيد للوصول الى حرب صليبية ناجحة وذلك اذا أمكن احياء الرغبة القديمة فى الصليبية . وعلينا أن نلاحظ أن ميزير وصف نفسه وصفا يليق به . فقد صور نفسه حاجا عجوزا وحالما مسنا ليس فى نفسه الا صدى للأيام الغابرة .

القرن الخامس عشر

ان الهزيمة المنكرة لجيوش أوروبا ومحققها واعمال السيف في خلاصة الفروسية الغربية في البلقان أيقظت الملوك المسيحيين الأقوياء على حقيقة الصليبية وزوال قيمتها كأداة لحل مشكلات الروابط بين الشرق والغرب . وعلاوة على هذا أتى القرن الخامس عشر بمشاكل وقتية جرت الى نتائج سريعة مما حول اهتمام الشعوب بعيدا عن الهدف القديم [الصليبية] فاستثناف حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا بما فيها من تخريب متوحش قاس - من ناحية - وحركة الصلح لانهاء الانقسام الكبير في الكنيسة الغربية - من جانب آخر - كل هذا قد استحوذ على اهتمام الشعوب في كل أنحاء أوروبا الغربية .

وبالرغم من ذلك فمن الخطأ الاعتقاد بأن الصليبية - فكرة وعملا - قد خمدت . فمع أن الحركة الصليبية قد بدأت تفقد مميزاتها وطابعها يمكن اقتفاء آثارها في سلسلة من النضال المحلي لايقاف التوسع العثماني في أوروبا الشرقية وفي الشرق :

فأولا : أصبحت برجنديا - التي كانت تتحمل النصيب الأكبر من الجزية الكبيرة التي تدفع للسلطان بايزيد الأول لاطلاق سراح أسرى الحرب - مركزا للتدبير من أجل الانتقام . وقد أدى هذا الى انتاج أدبي للدعاية للصليبية بقي محصورا في النطاق النظري .

وثانيا : أصبحت امارات شرقي أوروبا الوسطى تحت قيادة مملكة المجر حصنا قويا للمسيحية . وكثيرا ما كانت تسمى أية مقاومة في تلك المنطقة باسم الصليبية المجرية .

وثالثا : كان يتميز منتصف ذلك القرن بأمانى البطولة اليائسة من أجل الدفاع عن مدينة القسطنطينية التي كان الأتراك يحاصرونها بصفة تكاد تكون مستمرة حتى انتهاء الامبراطورية البيزنطية . ومجمل القول

ان كل ما قام من حروب دفاعية ضد العثمانيين بعد ذلك كان يقوم تحت اسم « الصليبية » وهو اسم على غير مسمى .

وحتى ذلك الحين كان فيليب الصالح دوق برجنديا تراوده فكرة قيادة الحرب المقدسة ، ولكنه كان يفضل أن يتقدم بكل حذر حتى يتجنب أية كارثة أخرى . وحتى يفهم مركز عدوه فهما كاملا أرسل اثنين من سفرائه واحدا بعد الآخر الى البلاد فيما وراء البحار لمحاولة جمع المعلومات الحقيقية عن سياسة الاسلام ، ولكي يكتب تقريراً ومعه كل توصياتهما . وكان أول المبعوثين الاثنين جلبرت دى لانوى الذى قضى السنوات من ١٤٢٠ الى ١٤٢٣ فى الشرق الأدنى أما الثانى فكان برتراند دى لافروكيير الذى دامت سفارته من عام ١٤٣٢ الى ١٤٣٩ . وبينما كرس لاتوى معظم وقته واهتمامه لمصر والأرض المقدسة قام دى لافروكيير بالحج الى اورشليم وكل الأماكن المقدسة حتى سيناء ثم اتجه شمالا حيث بدأ بحوثه عن أرمنيا والاناضول وبيزنطة وفوق كل هذا حدود البلقان التى كانت فى حوزة العاهل التركى العظيم . وزار بلاط السلطان مراد الثانى (١٤٢١ - ١٤٥١) فى أدنة وكان تعليقه أن الأتراك أكثر صداقة للاتينيين مما كان اليونانيون للاتينيين أنفسهم . ووصف الجيوش التركية وأسلحتها وكل أنظمة العثمانيين العسكرية ، حتى يحيط الدوق علما بكل ما يتصل بالعثمانيين من أمور .

ومن أصحاب الدعاية للصليبية التابعين للبلاط البرجندى الأسقف جان جرمين الذى كان مستشارا لجماعة « الصوت الذهبى » Golden Fleece وكان هذا مختلفا فى شخصيته عن غيره من الدعاة الصليبيين ولقد أعد خطابا سياسيا يبرهن فيه على أن الموقف العام لا يزال فى خدمة المسيحيين أكثر مما هو فى جانب المسلمين وأن الوقت لم يفت بعد لاستئناف الحركة الصليبية . وقد كتب جان جرمين ذلك ليلة سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٢ . ويبدو انه كان مهتما بموضوع الاتحاد الدينى بين المسيحيين الشرقيين مع روما . ذلك الاتحاد الذى تقرر فى مجلس فلورنسا عام ١٣٤٩ وكان حسب تقديره سوف يضم لصفوف الصليبية ٢٠٠.٠٠٠ محارب من أرمنيا ، و ٥٠.٠٠٠ من جورجيا ، وبعض المرتزقة من الامبراطوريات

اليونانية للقسطنطينية وطرابيزون ، واليعاقبة الأحباش ، وروسيا ،
والقديس جون من الهند . وكانت الصورة المزدهرة التي رسمها للقادة
المسيحيين ذات قيمة ثانوية لأن كاتبها قد أقام مناقشاته على أساس
الأمانى التي يريدونها وعلى أساس خياله ورغباته لا على أساس المعرفة
الحقيقية . فهو لم يكن له اتصال مباشر أو معرفة مباشرة عن الشرق ؛
وقد استقى معلوماته من مصادر متعددة . [فوز جديد] وقد برق وميض
الأمل فى الدفاع عن المسيحية من الشعوب التى تعاني الطغيان فى شرقى
أواسط أوربا ، وبدأ هذا فيما أطلق عليه اسم الصليبية المجرية على حين
أخذت التعزيزات الآتية من الغرب تقل تدريجيا وكان محور الشخصيات
فى هذا الصراع جون هنيادى (١٤٤٤ - ١٤٥٦) نائب ملك المجر ،
وأمر ترانسلفانيا وقد ذكر تاريخه البطولى فى القصص المعاصرة فى تاريخ
البلقان الذى تضاف اليه الأحداث التاريخية كل عام . وكان لهجومه
الحماسى على الأتراك الأثر الذى كاد يؤده الى النهاية الفاجعة لحكم مراد
الثانى (١٤٢١ - ١٤٥١) وقد بدأت القصة بهجوم السلطان المفاجيء
عام ١٤٣٨ على ترانسلفانيا عبر الدانوب حتى مدينة هرمانستد شمالا
وحتى أبواب بلغراد فى صربيا غربا ، وفى هذا الموقف الخطير الدقيق ظهر
على المسرح هنيادى مع لاديسلاى الذى كان ملكا على بولندا (١٤٣٤ -
١٤٤٤) والمجر منذ ١٤٤٠ كما ظهر جورج برانكوفتش طاغية صربيا
(١٤٢٧ - ١٤٥٦) .

وفى بادىء الأمر قاد كل من القادة الثلاثة قوات ضد قوات الأتراك ،
وكان كل منهم مستقلا فى نطاق مملكته . وحينما عاود مراد غزو
ترانسلفانيا فى عام ١٤٤٢ هزم فى هرمانستد وخسر عشرين ألفا من
القتلى . وفى غضبه قام بمحاولة ثالثة يائسة للاغارة على المدينة ولكنه
قاسى مثل النتائج السابقة . ولقد أسر هنيادى خمسة آلاف من المحاربين
الأتراك ومائتى غلام عثمانى . وذهبت أدراج الرياح تلك القصة
التي كانت تؤكد أن قوة الأتراك لا يمكن قهرها ، وتشجع هنيادى فى أن
يتخذ موقف الهجوم جنوب الدانوب بدلا من موقف الدفاع الذى كان يلتزمه
من قبل . شجعه على ذلك وصول عدد من القوات الصليبية اللاتينية المتفرقة

(١) Voyavode لقب يوجوسلافى بمعنى «أمير» (المترجم)

تحت قيادة الكاردينال جوليان سيسارين عام ١٤٤٣ على اتخاذ موقف العدوان جنوب الدانوب . وقد سار جون هينياى ثانية ومعه الملك لاديسلاس ، وجون برانكوفتش الى داخل صربيا وحقق نصرا جديدا اذ هزم الأتراك فى نيش (Nish) قبل أن يستولى على صوفيا العاصمة البلغارية . وحتى الألبانيون الذين كانوا جنود مراد المأجورين قد شجعهم تلك الانتصارات المؤقتة على الجرأة حتى انهم توقفوا عن خدمة الحكومة التركية وأعلنوا الثورة الصريحة المكشوفة تحت قيادة كاستريوتا الذى كان مشهورا باسم سكاندربرج . وفى ١٥ يوليو عام ١٤٤٤ اضطر مراد الى توقيع اتفاقية سجدى Szegedin مع انفراد المتحالفين ضده . ومن شروط تلك المعاهدة عودة جورج برانكوفتش الى صربيا وأن يدفع السلطان جزية قدرها ٦٠.٠٠٠ دوكات ذهبية من أجل الافراج عن أزواج بناته المعتقلين، كما وافق الجميع على عقد هدنة مدة عشر سنوات . ولكن هذه الهدنة قد خرقت فيما بعد تحت ضغط الكاردينال سيسارينى ؛ وفى النهاية اضطر السلطان البائس الى التخلي عن سلطانه واختفى من مسرح المعارك متوغلا فى الأناضول .

وانتعشت الآمال ثانية فى الغرب بمجرد سماع أخبار الانتصارات الجديدة ، فتسلم فيليب الصالح دون برجنديا (١٤١٩ - ١٤٦٧) منصب سفير من قبل الامبراطور البيزنطى جون الثامن (١٤٢٥ - ١٤٤٨) طالبا التأييد من بلاط شالون سير ساون Châlons-sur Saône ، ولذا جهز أربع سفن حربية تحت قيادة جوفروى دى توازى ، ومارتن الفونس ؛ وقدم البابا ايوجينيوس الرابع (١٤٣١ - ١٤٤٧) بعض السفن تحت قيادة ابن أخيه فرانسيسكو كوند وميبرى لمحاربة الأتراك . فاشتعلت نيران الصليبية مرة أخرى وقوى مركز الكاردينال سيسارونى عندما حث هينياى على خرق الهدنة التى لم يكن لها قوة من حيث المبدأ اذ أنها عقدت مع شخص اعتبروه كافرا . وعلاوة على ذلك وعد أمير ترنسلفانيا بتاج بلغاريا بمجرد تحريرها نهائيا من نير الأتراك .

وكان الهدف الأول للقوات المتحالفة هو الحصول على بلدة فارنة الواقعة على ساحل البحر الأسود . وفى طريقهم اليها ساعد الأسطول

المسيحي الآتى من الغرب فرسان القديس يوحنا الذين كان يحاصريهم
المصريون وهم فى قلعته فى جزيرة رودس خلال عام ١٤٤٤ • وتقدم رجال
الحرب - فيما بعد - الى البحر الأسود مباشرة يشتركون فى حصار فارنا
المدينة القوية التى كانت محاصرة من قبل من جهة البر والنرى كانت
الحشود المعادية تضربها بشدة تحت قيادة هنيادى الجرى • وبدأ للعيان
أن هذا النصر الثانى سوف يتحطم حينما عاد السلطان فجأة على رأس
قوة قوامها ٤٠.٠٠٠ ممن قد نقلهم أهل جنوه من آسيا الى أوروبا من أجل
الكسب والوعود بمميزات التجارة • وأثناء حدوث القتال المميت خارج
فارنا سقط كل من لاديسلاس والكاردينال سيسارينى تاركين عبء
العمليات الدفاعية على أكتاف هنيادى وحده ، وانهارت معنويات البولنديين
واللاتينيين بسبب اختفاء قوادهم المفاجيء من أرض المعركة ، وواجه
المجريون الاستئصال الكامل من عدد لم يمكنهم قهره • ولم يجد هنيادى
بدا من الهرب فى ١٠ نوفمبر عام ١٤٤٤ وذلك لانقاذ البقية الباقية من
جيشه المنهار •

ومع ذلك استمرت الثورة الألبانية تحت قيادة سكاندربرج الشجاع
حتى عام ١٤٤٨ ، حينما جمع هنيادى من جديد جيشا آخر يبلغ ٢٤.٠٠٠
وعبر الدانوب عند البوابة الحديدية لغزو صربيا • وكان مراد ينتظره
على رأس جيش ممتاز يبلغ ١٥٠.٠٠٠ • وتقابلوا فى الموقع القديم
كوسوفو بولاى Kossovo-Polye فلم تنقذ بطولة هنيادى وشجاعة أتباعه
وقوع الكارثة بجيشه • فان قلة عددهم عن أعدائهم ، واضطراب نظامهم ،
وعدم احكام الخطط من الألبانيين والمجريين ، ونفاذ البارود من أيدي مشاة
الألمان والبهيميين مما جعل بنادقهم غير ذات قيمة ، والشك فى ولاء
الولشيين • كل هذه كانت العوامل التى ساهمت فى مأساة المعركة الثانية
فى كوسوفو (١٧ - ١٩ أكتوبر عام ١٤٤٨) والتى أنهت الصليبية
المجرية بآبادة كاملة لم تستطيع مقاومتها • وربما كانت النتيجة الوحيدة
الأكيدة لهذا الفصل المؤلم فى تاريخ الصليبية اطالة عذاب الامبراطورية
البيزنطية المتعثرة سنوات قليلة أخرى • فحتى قبل سقوط القسطنطينية
عام ١٤٥٣ كان معظم أفراد الأسرة الحاكمة معترفين وراضين عن حكم
السلطان لتلك المدينة الرئيسية • وبعد موت جون الثامن عام ١٤٤٨

رجا اخوته الثلاثة السلطان مراد الثانى الموافقة على حقوقهم فى الخلافة على العرش الامبراطورى . ووقع اختيار السلطان على قسطنطين دراجاسس آخر امبراطور قدر له الدفاع عن المدينة بحياته . وقد وصف بعض المعاصرين الدفاع عن هذه الدعامة الأخيرة فى المسيحية الشرقية بالصليبية ، واشترك فيها بعض القرى المنفصلة من الغرب المسيحى . ومع ذلك فان قصة النصر بدخول السلطان محمد الثانى (١٤٥١ - ١٤٨١) الى القسطنطينية فى ٢٩ مايو عام ١٤٥٣ يجب اعتبارها سببا لانهاء نضال الأتراك ضد الصليبية وسوف يعالج هذا الموضوع فى موقع آخر من هذا الكتاب .

وبالرغم من أن سقوط القسطنطينية النهائى على أيدي العثمانيين عام ١٤٥٣ كان متوقعا منذ زمن بعيد فان وقعه على أوروبا المسيحية طولا وعرضا كان شديد المرارة والألم ، وأصبح هرب كثير من الشخصيات اليونانية للالتجاء الى الغرب تذكرة حية للحوادث القائمة فى أوروبا الشرقية . وقد استقر توماس آخر البلايلوجيين وأخو قسطنطين دراجاسس نهائيا فى البلاط البابوى (*) الرومانية عام ١٤٦١ وأخذ معه رأس الرسول اندراوس احدى البقايا المقدسة التى لا تقدر بثمن وكان قد أنقذها من التدمير . أما البابا بيوس الثانى (أنياس سيلفياس بيكولومينى) (١٤٥٨ - ١٤٦٤) وكان مرتبطا فى الماضى بفكرة الصليبية التى كانت تموت رويدا رويدا باعتباره مبشرا مخلصا للحرب المقدسة ، فقد أدعى أنه الامبراطور المنتظر وأخذ الصليب بنفسه ودعا جميع الملوك الأوربيين للاشتراك فى حرب صليبية عالمية من أجل استرداد بيزنطة ، والاستيلاء ثانية على الأرض المقدسة . وجاءت الاستجابة الوحيدة لدعوته من فيليب الصالح الذى وعد باتباع البابا المقدس ومعه ستة آلاف رجل . وبعد ذلك بقليل طلب دوق برجند فترة استراحة مدتها سنة ، وألقى اللوم على لويس الحادى عشر الذى كان ينوى الشر لدوقيته . وفى الحقيقة كان بيوس الثانى نفسه يعانى المرض الشديد فى ذلك الحين ، وبموته فى عام ١٤٦٤ دفن معه المشروع بأكمله . أما بول الثانى (١٤٦٤ - ١٤٧١) وارثه

Curia Romana. (*)

وخليفته على العرش فقد كان أقل طموحا ولكنه كان عمليا أكثر منه .
فأصر على ارسال النقود التي جمعت من أجل الصليبية الى المجر والبندقية
مشاركة منه فى تكاليف حروبهم المتقطعة مع الأتراك . ولقد تلاشى النداء
الى الحرب الصليبية تدريجيا بالرغم من أن صدى هذا النداء ظل يرن فى
عقول الأمراء الغربيين حتى القرن السابع عشر . وحاول البابا اينوسنت
الثامن (١٤٨٤ - ١٤٩٢) بلا فائدة أن يجدد فكرة لارسال حملة ضد
الأتراك . وشجعه على ذلك أن أخا بايزيد الثانى وغريمه فى نفس الوقت
جم وصل الى روما هاربا من عدالة أخيه . ورأى أنوسنت الثامن أن يشعل
ثورة فى تركيا لمصلحة من أتى ليحتسب به ، ولكن يقال ان رسل السلطان
أقنعوه بالتوقف عن تنفيذ ذلك المشروع وذلك بمنحه جائزة قدرها
٣٠٠٠٠٠ من الدوكات الذهبية مقابل تسليم جثة جم .

وجاء الاسكندر السادس (١٤٩٢ - ١٥٠٣) بعد البابا انوسنت
وأصبح البطل الحقيقى فى تلك المأساة الغامضة بالاشتراك مع ملك فرنسا
شارل الثامن (١٤٨٣ - ١٤٩٨) وسلم البابا المقدس أسيره للملك .
وبعد ذلك نسمح عن وفاة جم غير الطبيعية خلال عام ١٤٩٥ ، وبذلك
تخلص السلطان من هذا التهديد . وفى الحال بدأ من جديد توغله المفاجيء
فى المجر وكرواتيا [حاليا يوغوسلافيا] ومولدافيا حتى وصل الى بولنده
البعيدة . وحل السلام بعد معاهدة عام ١٥٠٣ التى منحت أوروبا فترة من
الزمن قدرها سبعة عشر عاما تسترد فيها أنفاسها . واتخذ كل من
البابوات وملوك الغرب موقفا محايدا ، ولكنهم ظلوا مستعدين للدفاع عن
أنفسهم ، وأخذوا ينتظرون خائفين من الخطوة التالية التى يتخذها الباب
العالى . وفى عام ١٥١٥ فكر البابا ليو العاشر (١٥١٣ - ١٥٢١) جديا
فى تجديد العداء ضد الامبراطورية العثمانية بالاشتراك مع فرانسيس
الأول ملك فرنسا (١٥١٥ - ١٥٤٧) ومكسميليان الأول (١٤٩٣ -
١٥١٩) امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ، ولكن خططهم بقيت
فى نطاق النقاش ولم تخرج الى حيز التنفيذ . وربما كان العمل الايجابى
الوحيد الذى تم فى تلك الفترة هو أن الامبراطور شارل الخامس (١٥١٩ -
١٥٥٦) قد أعطى فرسان القديس يوحنا مأوى جديدا فى جزيرة مالطة
عام ١٥٣٠ بعد أن طردهم السلطان سليمان العظيم (١٥٢٠ - ١٥٦٦)

من رودس • وبعد ذلك نزل عدد من الانفصاليين عن الامبراطورية في الجزائر خلال عام ١٥٤١ وعلى شواطئ المهديّة مرة ثانية في عام ١٥٥٠ ، وذلك لكي يؤدّبوا القراصنة المتوحشين • ومن ناحية أخرى حفزت تلك الانتصارات الثانوية التي حققها الامبراطور عدوه فرانسيس الأول أن يغير سياسة فرنسا تجاه انهاء التحالف الذي تم عام ١٥٣٦ مع الباب العالي وتحددت به البداية المشهورة للتسليم للعدو • ولم تستطع أوروبا أن تقف تقدم الغزوات التركية الا عند أبواب فيينا عام ١٥٢٩ وفي مياہ لبانتو (*) عام ١٥٧١ •

وبعد ذلك انتقلت الحروب التركية الى أوروبا الوسطى لتصبح حروبا محلية • وفي القرن التالى لا نسمع عن تحرير أورشلیم من حين الى حين الا كحلم من الأحلام • وقد تحدث الكاردينال ريشلييه (١٦٤٢ - ١٥٨٥) والدبلوماسى الفرنسى المشهور الأب يوسف (١٥٧٧ - ١٦٣٨) عن الأرض المقدسة وعن كيفية انقاذها • وحينما نزل فرديناند الأول ملك توسكانى الى جزيرة قبرص خلال (١٦٠٧ - ١٦٠٨) حاول أن يثير رعايا الأتراك الغاضبين ليشتركوا فى عمل ايجابى ضد سيدهم السلطان أحمد الأول (١٦٠٣ - ١٦١٧) ولم تؤد المحاولة الى أية نتائج عملية ، وذلك لأن فرديناند نفسه مات بعد ذلك بقليل عام ١٦٠٩ • وفى تلك السنوات كتب أب اسمه جيوفانى دوميتيلى أحد الكهنة الايطاليين وكان يعيش فى القاهرة فى ذلك الحين ، ما يعتبر آخر وثيقة للتبشير تلخص مشروعا لانقاذ أورشلیم والأماكن المقدسة • وفيها يقول ان الوقت كان مناسباً للغاية للنزول فى فلسطين حيث أن السلطان مشغول بالحرب فى جبهات متعددة فى آسيا وأربا على حين كان رجاله تملأهم روح التمرد ، وفى الوقت نفسه كان رعاياه المسيحيون ينتظرون الوقت المناسب ويهيئون الفرص للثورة ضد الحكومة وذلك لانهاء نير الاستعباد الثقيل • ولم يسمع صوت الأب دوميتيلى الخافت فى ذلك العالم المتغير وأصبحت أيام الصليبية مجرد ذكريات •

(*) بالقرب من كورنثوس باليونان •

الفصل الرابع

النتائج : مناهضة الصليبية

نتائج الحروب الصليبية

• عند مناقشة نتائج الحروب الصليبية يجب التمييز بين نتائج تاريخ العالم من جهة ، والتأثيرات المحلية المنفصلة ذات الطابع الخاص بناحية معينة أو مؤسسة أو مجتمع من جهة أخرى . فالقسم الأول يتضمن مناهضة تجارة الصليبية وثقافتها ، وسنتناولها هنا بشيء من التفصيل . فقد صارت مناهضة الصليبية رد الفعل المباشر من العالم الاسلامي لمضايقات الصليبية في الشرق الأدنى . فان ظاهرة التطور في تجارة الشرق في أواخر الفترة الوسطى جاءت نتيجة طبيعية منطقية لمعرفة الأوروبيين لامكانيات الأسواق الشرقية الواقعة على نهاية الطرق التجارية البرية للقوافل والبحرية في آسيا ؛ أما موضوع الثقافة فان مناطق الاتصال بين المسلمين والمسيحيين يجب أن تمتد فيما وراء فلسطين الى صقلية واسبانيا في أواسط البحر الأبيض وغربيه . وفي الحقيقة ان تأثير حضارة العرب وأفكارهم كان قويا في كل من صقلية واسبانيا ، ولكنه أخذ يتلاشى في الشرق الأدنى . وسوف يحدد مدى الدور الذي قامت به المسيحية في كل من هاتين الجبهتين في الصفحات التالية .

كان الباحثون - يوما ما - يبالغون في تقدير آثار الحروب الصليبية ، وكان كل تغيير في المجتمع الأوربي في نهاية العصور الوسطى يغرى الى

حد ما الى تأثير ذلك الانقلاب التاريخي ؛ ولكن ذلك انقلب فجأة وعالجت مدرسة حديثة موضوع الصليبية باعتبارها حوادث مركزية وغير مترابطة لا أثر لها على الاطلاق فى المجرى العام للتاريخ . هناك اعتراض على كل من الاتجاهين لأن كليهما لا يمثل الحقيقة كاملة . فليست نتائج الصليبية متماثلة فى كل الأحيان وفى كل المجالات . وسوف تقدر كل حالة أو كل مجال حدث فيه هذا الأثر ككيان منفصل حتى يمكننا تقدير حقيقة ارتباطه بالحركة كلها .

ولنبداً بذكر آثار الصليبية التى كان لها تأثيرها فى الكنيسة وإدارتها المركزية فى البلاط البابوى . فقد حققت البابوية انتصارات عديدة حاسمة على الكنيسة الرومانية المقدسة فى المنافسة على منح الألقاب ، وأصبح الأباطرة أذلاء وانحدروا الى مركز ثانوى فى السياسة العالمية . وكان البابا المقدس قد خطا خطوات ضخمة فى طريقه الى السيطرة الدولية . وقدمت الصليبية لاربان الثانى وخلفائه قاعدة دستور جديدة قوية ذات مظهر عالمى من أجل سياسة بابوية خارجية أجنبية . وهكذا سارت الكنيسة فى طريق حرب الصليب . وكان يصاحب كل حرب صليبية رسول البابا ليكون « وكيل » الله فى حقل العمل يصدر الأوامر العليا للقوى المسلحة . ولكن علينا أن نتذكر أنه فى داخل حدود جمهورية أورشليم اللاتينية ، كانت السلطات المدنية تعارض الاتجاه الى جعل الحكومة خاضعة للكهنة ، ونجحوا الى حد ما فى كبح جماح البابا فى الحكومة الجديدة . وبالرغم من أن الجميع كانوا يعترفون بقوة البابوات على الحكم وفى الدعاية للصليبية ، فانه لم تعط لهم الحرية فى قيادة الحرب الحقيقية الا فى أحوال نادرة مثل المرحلة الأخيرة فى الحرب الصليبية الخامسة . وان تحول الصليبية من الحرب ضد المسلمين فى الشرق من أجل تحرير الأماكن المقدسة الى اكراه المسيحيين فى أوروبا الغربية سواء أكانوا كفرة مثلما حدث فى صليبية ألبى [مدينة فى جنوب فرنسا] أم كانوا أعداء شخصيين للبابوية مثل فردريك الثانى . كل هذا أصبح عاملاً

فى اضعاف سلطة البابا واثارة التشكك فى الروح والمغزى للحركة بأكملها • وقد ظهر نوع من التحرر من القيود قليل من شأن البابوية نتيجة ذهاب المتدينين من الناس بالذهاب الى الحروب الصليبية بدلا من دفع العشور •

ومن النتائج الهامة للصليبية ابتداء النظم العسكرية للدين • ومن أبرز هذه القوات الدينية المحاربة : الداوية ، والفرسان البيض • ومع أن اشتراكهم فى الحرب الصليبية كان مستمرا ، فقد بدأوا فى الحال يساعدون الاتجاهات المستقلة مثل التنظيمات نصف الدنيوية بسياساتهم الخاصة التى كانت تتعارض معهم وتؤدى الى احتكاكات مكشوفة بينهم ؛ وأصبح الداوية - علاوة على ذلك - الرواد الأوائل فى نظام البنوك الدولية فى أوربا خلال العصور الوسطى • وبهذه الطريقة انصرفوا باخوتهم عن العهد الذى أخذوه على أنفسهم عند مبدأ تكوينهم مما عجل بسقوطهم وتدميرهم الكامل على يد المملكة الفرنسية عام ١٣١٠ • وقد صدر التأييد البابوى لذلك عام ١٣١٢ بعد أكثر المحاكمات افتراء وبشاعة فى أى عهد • ومن جهة أخرى فان الفرسان البيض ظلوا أقوىاء قرونا عدة • وحينما طردوا من الأرض المقدسة بعد سقوط عكا عام ١٢٩١ التجأوا الى مملكة جزيرة قبرص بضع سنين وبعد ذلك استولوا على رودس التى أصبحت مقرا لهم حتى طردهم منها السلطان سليمان العظيم وضم الجزيرة لتركيا عام ١٥٢٢ وفى هذه المناسبة اعطاهم الامبراطور شارل (١٥١٩ - ١٥٦٦) مالطة حيث استقروا الى أن هزمهم نابليون بونابرت عام ١٧٩٨ وهو فى طريقه الى مصر •

وقد برزت أنظمة عسكرية أخرى أثناء تلك الفترة خارج الأرض المقدسة ؛ فقد أسس انوسنت الثالث عام ١٢٠٤ نظام السيف The order of the Sword ، وولقت الفروسية التيوتونية أثناء الحرب الصليبية الثالثة ، وتحالف الاثنان فيما بعد من أجل القضاء على الالحاد فى بروسيا.

وهذه الحالة هي التي أدت الى قيام جهودهم العظيمة . وربما كانت أكثر ردود الفعل لتحويل الأنظمة الدينية بصفة مستقرة الى دنيوية قيام الأنظمة الجديدة للاستجداء وأولها وأهمها نظام الفرنسيسكان أو الأخوة الصغار (١) ويرجع انشاؤها الى القديس العظيم فرنسيس الأسيسى (١١٨٢ - ١٢٢٦) بعد عودته الى ايطاليا من الحروب الصليبية المصرية (١٢١٨ - ١٢٢٠) . وبلى هذا النظام في الأهمية نظام الدومنيكان الذي كرس أعضاؤه أنفسهم لمعارضة كل ما يناهض الكهنوتية والى محاربة التهديد الجديد للبدع الألبيجينية وكان مؤسس هذا النظام القديس دومنيك وهو اسباني متحمس كان يهتم بواجبات الوعظ في النظام الدومنيكي (٢) . وقد أدت خدماتهم الى حصولهم على الموافقة البابوية من انوسنت الثالث عام ١٢١٥ .

وفي الحقيقة ان أحكام هذين النظامين قد صمما على طراز واحد . فكلاهما كان شديد الاهتمام بعوامل الفقر ، ويهدف الى الإيعاز بالتأجيل تجاه مناطق نفوذ البابا وخاصة في المناطق المتحضرة المتمدنة حيث ربطوا الدعوة الدينية بالتعليم العام . وانه لمن سوء الحظ أن يتورط الدومنيكان في عنف محاكم التفتيش ضد الكفر . ومن جهة أخرى وسع الفرنسيسكان نشاطهم في معركة التبشير خارج البلاد . وكثيرا ما كان يطلق على عملهم في آسيا اسم الصليبية المنغولية لأنهم خطوا الخطوة الأولى اذ عبروا قارة آسيا بأكملها محاولين ادخال التتار في المسيحية . وكان هدفهم من ذلك أن يتحد الشرق الأقصى مع الغرب المسيحي في هجوم شامل على الامبراطورية المسلحة في الشرق الأدنى . ومن الضروري ربط كل تلك التطورات التاريخية الى حد ما بعصر الصليبية .

أما من ناحية السياسة فقد ساعدت الصليبية على تطور القوة المركزية

(١) كان يطلق عليهم أيضا اسم الرهبان الروماديون نسبة الى اللون الرمادي للملابسهم .

(٢) وكانوا يسمون أيضا الرهبان السود .

للملكية على حساب نبلاء الاقطاع . فان فقر الاقطاع نتيجة للاشتراك في حرب مرتفعة التكاليف فيما وراء البحار قد قلل من نفوذ الارستقراطية في موطنها الاصلى . وقد رهن بعض النبلاء اراضيهم ومقاطعاتهم . وباع البعض حقوقهم الشرعية في الارث ، ومات بعضهم دون انجاب أطفال وتنازلوا عن ولاياتهم لصاحب التاج . وفي تلك الاثناء فرضت ضرائب ملكية من أجل الابقاء على الأرض المقدسة وقد فرض تلك الضرائب لويس السابع ملك فرنسا عامى ١١٤٦ ، ١١٦٥ ، وهنرى الثامن ملك انجلترا عامى ١١٦٦ ، ١١٨٤ ، وفيليب أوغسطس عام ١١٨٤ مدة ثلاث سنوات . وفرضت « عشور » صلاح الدين في كل من انجلترا وفرنسا عام ١١٨٨ بعد سقوط اورشليم . ويمكن - الى حد ما - ارجاع البداية المتواضعة لنظام الضرائب الحديث الى حالات فرض الضرائب والواجبات من أجل الصليبية . وعلاوة على ذلك ما ان بدأ الاقطاع يأخذ طريقه الطويل للتلاشى حتى بدأت الطبقة الوسطى الجديدة تخرج وتبدأ الى حيز الوجود . وكان أهل المدن يشتررون حريتهم من النبلاء المجندين المشتركين في الصليبية ويتحالفون مع الملكية ضد أى اعتداء قد يقوم به مستقبلا سادة الأرض من أمراء الاقطاع هؤلاء . وكان هذا التحالف بين البرجوازيين والتاج هو ما أبرز الوطنية الحديثة أولا في صورة الملكية التى كانت موجودة حينما تفتت الاقطاع عاجلا بعد الحروب الصليبية . وبهذه الطريقة بدأت نواة الولايات الحديثة في الظهور تدريجيا حول شخصيات الملوك . وبرهن هذا على قيام ثورة اقتصادية اجتماعية كان مقدرا لها أن تغير وجه أوروبا في أواخر العصور الوسطى .

وقد تأثر في النظام العسكرى في أوروبا في العصور الوسطى تأثرا شديدا باتصال أوروبا المباشر باليونانيين والعرب . ومن الطبيعى أن يكون اللاتينيون مهينين لتحسين فنونهم الحربية في مواجهة الخطر الدائم ، وقد ساعدهم على ذلك استقرارهم مسلحين على أرض حليفة . وان تحقيق ذلك في بناء القلاع والحصون بجدران مزدوجة ومركز محصن يرجع الى

أصل شرقي بالرغم من أنه كثيرا ما يناقش على أنه تطور ونتيجة طبيعية
أملتها الرغبة في زيادة العقبات في طريق القوى المغادية التي تضرب
الحصن . وعلى كل حال فالحق أن أول مثال لقلعة أوربية بنيت على الطريقة
الحديثة هي قلعة جيلارد التي شيدها ريتشارد الأول في نورمانديا بعد
عودته من الحروب الصليبية الثالثة .

وأنا نستطيع رد بعض الخواص الأخرى الى تأثير الشرق . ومن بينها
دخول الآلة في الوسائل العسكرية وكان المزغل [آلة لالقلاء القاذورات
على العدو] فتحة بين افاريز الجدار الخارجي أو على أرض الممرات أو على
سطح بوابة القلعة - من أجل اسقاط سوائل في حالة غليان أو رمى
بعض القذائف على المغيرين من الخارج - وقد عرفت تلك الطريقة منذ
أمد طويل في الشرق . وتظهر أمثلة من المزاغل في الأبنية المحصنة
والقلاع ، وفي أسوار المدن في مصر والأرض المقدسة قبل أن يتبناها
مهندسو المباني العسكريون في غرب أوربا . وأصبحت طرق الحصار
وخاصة حفر الخنادق والمناجم واستخدام النيران اليونانية والمنجنيقات
من الاختراعات التي كانت الصليبية مسئولة عنها في أوربا . وكان القوس
ذو الزناد أيضا سلاحا شرقيا . وقد أخذت فكرة العباسة من المحاربين
المسلمين الذين كانوا يستخدمونها للوقاية من وهج الشمس الواقعة على
الأسلحة المعدنية . وقد نقلت فكرة الحشو بالقطن تحت الدروع المصنوعة
من الصلب الى أوربا تقليدا لاستخدام العرب لها في المعركة . والغطاء
الذي يستخدم لحماية الرأس من شمس الشرق القاسية ما هو الا الكوفية
العربية بمعناها الحرفي . والبرجاس تشبه الى حد بعيد لعبة التحطيب
وهي من الألعاب المشهورة في الشرق . واستخدام الحمام لنقل الرسائل
الحربية كان قديما من الشرق وقد قلده الصليبيون . ومن ناحية استخدام
الرسوم والرموز على الدروع كان هذا منتشرا في عصر الصليبية ويمكن
ارجاع كثير من الرموز الغربية الى أصل شركسي . وزهرة الزنبق والصقر
ذو الرأسين ، والأسد والكأس ومضارب البولو : كلها جاءت من بين
أمثلة عديدة لرموز كانت معروفة في الشرق قبل الصليبية .

ومن الأهمية بمكان ملاحظة أن الكتابة الفرنسية العامية كانت تلقى دفعا عظيما خلال فترة الصليبية . في « تاريخ الحرب المقدسة » الذى كتبه أمبرواز . و « انهزام القسطنطينية » الذى كتبه فلهاردون . و « تاريخ القديس لويس » الذى كتبه جوانفيل . و « تاريخ هرقل » الذى كتبه وليم الصورى . و « حركات القبارصة » ، و « أنشودة انطاكية » ، و « الاستيلاء على الاسكندرية » الذى كتبه جيوم دى ماشوه ، و«أنشودة الصليبيين الألبانيين » كل هذه وغيرها تكون جزءا من الدورة الأدبية للصليبية باللغة الفرنسية ذات اللهجة القديمة . وبالرغم من العداء بين الجانبين فاننا نستطيع قراءة ما بين السطور وهو يبين اتجاهها ناميا نحو الفهم والدين فى أدب ذلك العصر . فمثلا حينما كتب رئيس الأساقفة وليم الصورى - عن العرب فى ذلك العصر ، كتب عن استيلاء المسلمين الأول على الأرض المقدسة قائلا : لقد سمحوا للمهزومين على كل حال بالبقاء على الكنائس المخربة وأن يكون لهم قسيسهم وان يتبعوا الدين المسيحى بلا أية قيود . وكان وليم نفسه يتحدث اللغة العربية ويقدر العالم الشرقى الذى كان يعيش فيه منذ طفولته المبكرة .

وكان من الواضح أن الصليبيين قد عادوا الى بلادهم ومعهم الكثير من الأدوات الجديدة ذات القيمة الهندسية ، ويشير جيبون Gibbon الى أن استيراد الطواحين الهوائية من آسيا الصغرى يعد من أعظم الفوائد لدول أوروبا . وقد أدى اختلاط المحاربين الأجلاف بالحضارة العظيمة الى استخدام الحمامات العامة والخاصة . ومن هذا الطريق نفسه عرفت أوروبا لأول مرة السماد وبدأت فى استخدامه ، كما راقب الفنيون والبناءون من الصليبيين بكل دهشة أعمال النحت والصب الهائلة التى امتاز بها السوريون من قديم الزمان ، فرجعوا الى بلادهم يحملون مثلا فنية جديدة ليضعوا أساس الطراز الغوطى فى أوروبا . كما أن طريقة صنع الزجاج المنقوش وطريقة صنع الأسلحة من الصلب فى دمشق وهى التى بقيت سرا حتى ذلك الحين ، نقلها الصليبيون الى المصانع الأوربية أثناء الصليبية . أما عن

الحرير والسكر والكثير من الكماليات فقد جاء بها الصليبيون أيضا . على أننا سنعالج هذا الموضوع عندما نتحدث عن التجارة في العصور الوسطى .

وجاءت روح المخاطرة التي يتميز بها حملة الصليب بعصر الكشف والاستكشاف فقد أدى الاهتمام بالمغول الى فتح الطريق الى الصين البعيدة عبر الطرق التي لم تكن قد طرقت بعد في آسيا الوسطى . وكان نشاط ارسالية الكنيسة الرومانية التي بعث بها لويس التاسع وتولى أمرها البابوات ، من المميزات الهامة البارزة في ذلك العصر . ومهما يكن من شيء فمن الواجب أن تذكر أنه بموت جياكومو الفلورنسي آخر البطارقة اليونانيين في مملكة خان بالق عام ١٣٦٢ انتهى فجأة أى تطلع الى الاتحاد مع المغول . ومع ذلك فان حلم الصليبية المغولية ظل يراود خيال بابوات أوروبا الغربية وأمرائها مدة طويلة ، وبين حين وحين قامت المحاولات لاهياء قضية الصليبية التي كانت في طريقها الى الاندثار .

وقرب نهاية القرن الخامس عشر قام فرديناند وايزابلا على رأس حروبهم الصليبية الأخيرة ضد العرب المغاربة في الأندلس واستسلمت غرناطة لاسبان المسيحيين في يناير عام ١٤٩٢ . وباتمام ذلك الانتصار الثانى بدأ الملكان الكاثوليكيان يتطلعان الى جبهات جديدة للانتصار للمسيحية فيما وراء شبه جزيرة ايبيريا - ومن أجل ذلك الغرض اقتنعا باعطاء الاذن لكروستوفر كولمبس - وكان بحارا مغمورا مغامرا من أهل جنوة - لمحاولة الوصول الى الهند ومقاطعات أمراء الصين عن طريق البحر الغربى . وقد دون هدف تلك البعثة بدقة باللغة في الجريدة التي كتبها كولومبس والتي حفظت ضمن التاريخ السنوى الذى كتبه لاس كاساس ويوجه ذلك المكتشف كلماته الى الملوك الذين ساعدوه بتلك الكلمات :

« ان جلالتم بوصفكم من المسيحيين الطيبين ، والأمراء الكاثوليك المتدينين ، والناشرين للعقيدة المسيحية . وانكم فوق ذلك باعتباركم عدوا لمذهب محمد وكل الوثنيين والكفرة قد اعتنقتم فكرة ارسالنا

كريستوفر كولومبس الى بلاد الهند لأرى الأمراء والشعوب والحدود ومواقعها وكل شيء آخر . والطريق الذى نستطيع أن نتقدم به لتحويل تلك المناطق الى ايماننا المقدس » .

وعلى كل حال فان الطموح للوصول الى الهند غلبه الكشف المنتظر لأمريكا وقد سد الطريق الغربى الى الهند والى الشرق الأقصى . وفاقت الآمال العظيمة فى عالم جديد بأكمله كل اهتمام بالصين . وفى الحقيقة ليس من فساد الرأى فى شيء القول بأن اكتشاف أمريكا كان نتيجة جانبية غير مباشرة للحركة الصليبية . الا أنها نتيجة جانبية لها مظاهر التحول الجديد فى تاريخ العالم .

وان التوسع فى الآفاق الانسانية فيما وراء ما قد تم فى الماضى وجمع الثروة وازدياد الفراغ المترتب على ذلك فى المجتمعات التجارية فى جنوب أوروبا ، قد أدى الى ثروة فى الأعمال الفنية والأدبية التى تشير الى مولد جديد لعالم متغير . وعصر النهضة وفجر العصور الجديدة هو - الى حد ما - نتيجة للحروب الصليبية وآثارها البعيدة المدى فى الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية . وكانت الاتجاهات للتقدم الطبيعى فى الداخل علاوة على اتصال الأوربيين بحضارة العرب المتقدمة فى صقلية واسبانيا عوامل متوازية لا يجب نسيانها فى أية بداية للتحول القريب فى المسرح الأوروبى . أما فى الشرق حيث بدأت الصليبية لحماية المواطنين المسيحيين وتقويتهم فمن الضرورى ملاحظة أن الحركة انتهت بمأساة تامة . وبالرغم من أن آسيا الصغرى قد عادت فى فترات متفرقة الى اليونانيين فان الأتراك بدأوا من جديد وبلا رحمة فى الهجوم على الحدود البيزنطية كلما عادت حركة المد والجزر للصليبية . ولكن الكارثة الحقيقية التى لحقت بالامبراطورية الرومانية الشرقية جاءت خلال الحرب الصليبية الرابعة بكل ما لا يمكن اصلاحه ممهدة الطريق لسقوط بيزنطة النهائى فى يد الأتراك فى عام ١٤٥٣ وقوت العداء التقليدى بين الشعوب والكنائس فى الشرق المسيحى وبين الغرب المسيحى .

وبالمثل أنت الصليبية بالمصائب على الأقليات المسيحية في الامبراطورية العربية . وكان قد تعلم هؤلاء المسيحيون الذين يتبعون القانون كيف يعيشون في سلام مع جيرانهم المسلمين وان يعالجوا أى خلاف ينشأ بين مجتمعاتهم علجا وديا . وفي ذلك الحين كان الصليبيون يعاملونهم معاملة لهم للخوارج ويكنون لهم من العداة أكثر مما يكنون للملحدين . ولذا حرموهم من حقوقهم المحلية التي كانوا يتمتعون بها في ظلال الحكم الاسلامي . وفي تلك الأثناء أدت الحالة الجديدة للعدوان المسيحي من جهة الغرب الى غضب الخلفاء على جميع المسيحيين شرقيين وغربيين دون أى تمييز بينهم . ونتيجة ليأس المسيحيين من حياة مسالة - تحول بعض المسيحيين الى الاسلام ، كما أن بعضهم تجنس بالجنسية الرومانية بحثا عن حياة مسالة . وكان تحول الموارنة في لبنان وبعض الأرمن في صقلية الى المذهب الكاثوليكي ، يرجع الى حد كبير الى الصليبية . وهكذا ضعف اتحاد الكنائس الشرقية القديمة . وكان على المواطنين المسيحيين أن يبدأوا من جديد في اصلاح مركزهم المتزعزع في بلادهم في نطاق نظام الحكومة الاسلامية بعد انتهاء الحرب المقدسة . وكانت تلك العملية بطيئة ومؤلمة ولكنها كانت ضرورية .

مناهضة الصليبية (*)

مهما كانت نتائج الصليبية فهناك شيء واحد يبدو واضحا من بحث الحوادث المترتبة عليها • فالعنف قد أدى الى العنف وايقظت حروب الصليبية الآتية من الغرب روح « الجهاد » النائمة أو النضال الاسلامي المقدس ضد جميع المسيحيين • وبمعنى آخر أدت الصليبية الى نتيجة سريعة ومدمرة ألا وهي مناهضة الصليبية • فبالرغم من أن هذه الفترة كانت طويلة ومهمة بلا داع • أو انها قد درست في بعض المؤلفات الشائعة في ذلك الحين ، فانه من المستحيل تقليل مركزها في تطور خريطة الشرق الأدنى والأوسط • ويؤدي البحث الدقيق الى كشف مناهضة الصليبية كتاريخ مسجل ، وفي نفس مرتبة الصليبية ، ما عدا اختلاف رئيسي واحد هو أن مناهضة الصليبية ومقاومتها خلفت آثارها الدائمة في مجرى التاريخ على حين أدت الصليبية نفسها الى الافلاس الأكيد •

وان الفجوة الظاهرة في معلوماتنا وفيما ألف عن هذا الموضوع الشائق يرجع الى ندرة ما طبع من المواد الأصلية • فبالرغم من العدد الضخم للاتفاقات والمعاهدات التي تركها الكتاب المسلمون في هذا الموضوع فان أغلب هذه المؤلفات بقيت مكتوبة بخط اليد ومدفونة أو مبعثرة في المخازن • ومن النظرة الأولى لمئات تلك المخطوطات تصبح المواد الرئيسية المكونة لهذا الموضوع واضحة تمام الوضوح • ولنحاول تحليلا مختصرا كمقدمة لما ينبغي أن يؤلف فيما بعد تاركين مهمة التحليل الدقيق للعقول الباحثة من بين الدارسين والمستشرقين في المستقبل •

(*) ترجمة للكلمة Crusade — Counter وهي الحركات الاسلامية التي قامت لمقاومة الصليبيين — المراجع •

ويجب أن نفهم - فوق كل الاعتبارات - أن مصادر مناهضة الصليبية ومراحلها توازي مصادر الصليبية ومراحلها . فالدعوة للمسيحية في الغرب كانت تقابلها دعوة مضادة من المسلمين للجهاد في الشرق . وأدت الهجمات على فلسطين وغيرها من بلاد المسلمين الى عداء المسلمين التلقائي . وكان من نتيجتها غزو منظم للولايات المسيحية في نطاقهم بمجرد أن استراح المسلمون من التهديد الغربي . وهناك برزت السياسة الجديدة للغزو الاسلامي من مصدرين رئيسيين أولهما سلطنة المماليك في مصر وثانيهما الأتراك العثمانيون الذين هجموا على أوروبا الشرقية وشرق أوروبا الوسطى .

وقد جاءت الدعوة للاسلام أولا من الاعتبارات لمبدأ « الجهاد » أو الحرب المقدسة التي يجب اقتفاء آثارها حتى الأيام الأولى لقيام الاسلام أثناء حياة النبي محمد (٥٧٠ - ٦٣٢) وأربعة الخلفاء الراشدين . وقد قام مبدأ « الجهاد » هذا منذ البداية تأسيسا على عدد غير قليل من آيات السور المدنية التي نزلت في القرآن . وفي الحال اعترف به عظماء رجال الشريعة المسلمين واعتبروه دعامة سادسة من دعائم الاسلام . وكلمة الجهاد معناها النضال سرا وعلانية (*) . ويميز أئمة الدين بين أربعة أشكال للجهاد : جهاد النفس لمحاربة الخطيئة المستترة ويعتبر هذا أصعب

(*) ان الأركان الخمسة أو العقائد الأساسية هي : أولا - « الشهادة » وهي اعلان عبارة منطوقها « لا اله الا الله ومحمد رسول الله » وعندما يعلن أى شخص هذه الشهادة فإنه يصير مسلما ، اذ يخضع نفسه لله . والكلمة « اسلام » تعنى الخضوع للمشيئة الالهية . ثانيا - الصلاة وهي السجود والركوع وآيات وابتهالات تكرر خمس مرات يوميا عند الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء . ثالثا - الزكاة وهي ما يدفعه الفرد للدولة عينا وبنسب مختلفة طبقا للنوع سواء أكانت جاه أو جاه أو طبقا لما يراه أهل الرأي . رابعا - صوم شهر رمضان . وهو الامتناع عن الطعام والشراب تماما أو أية مادة تدخل الفم أو الأنف بما في ذلك العطور والدخان . وكذلك المضاجعة الجنسية وذلك من الفجر وحتى غروب الشمس . خامسا - الحج الى مكة لمن استطاع الى ذلك سبيلا .

أنواع الجهاد وأكثرها امتداحا • وجهاد اليد فى الأعمال الظاهرة • وجهاد
السيف ضد المشركين وأعداء الاسلام (وهذا ما يوصف بالجهاد الأصغر)
وقد صار معنى الجهاد الحرب المقدسة • وأخيرا الجهاد باعتباره فرضا على
كل المسلمين القادرين (فرض الكفاية) أن يحاربوا كل من هم من غير
المسلمين حتى يخضع كل العالم للاسلام ويستسلم لله •

وقد اعتمد الاسلام نظريا فى توسعه على « الرسالة » أى على كسب
الآخرين بالكلمة الطيبة • ولما لم تسرع كلمة الاسلام النابعة من صدر
الاسلام بالنتيجة المطلوبة اعترف رجال الشريعة فيما بعد بأن الجهاد
وسيلة مقبولة لنشر الدعوة الاسلامية • واذا اعتبرنا الحروب التى قامت
فى حياة النبى محمد ذات صبغة دفاعية أصلا ، فاننا سوف نجد فى
الحال أن الحكم الجديد قد أصبح نافذا خلال سنوات قليلة بعد وفاته كما
فى حالة « أهل الردة » الذين تحولوا عن الاسلام الى العبادات الوثنية
أو اتبعوا أنبياء كاذبين • ولم يظهر الاسلام أية رحمة تجاه المرتدين
فكانوا يقتلون بالسيف وكان هذا العمل سابقة اتبعت فى الأجيال
اللاحقة • ونتيجة لهذا انقسم العالم الى معسكرين المؤمنين فى « دار
الاسلام » وغير المؤمنين فى « دار الحرب » وبذا أصبح الجهاد واجبا تحت
قيادة الخليفة حتى يتحد العالم أجمعه فى دار الاسلام • وهذا النظام هو
نقطة البداية التى بدأ بها جميع من يقومون بالدعوة للاسلام فى كتبهم عن
موضوع الحرب المقدسة • وكان كل ما كتبوه يهدف الى دفع المؤمنين الى
الحرب دفاعا عن الأماكن المقدسة وعن أماكن حج المسلمين • ويمكن تقسيم
ما كتبوه الى ثلاثة أقسام :

أولا : كتب الزيارات ، وفيها يفسر المؤلفون لمجتمع المسلمين أن مناسك
الحج ليست مقصورة على الأرض المقدسة وهى مكة والمدينة فى بلاد الحجاز •
وقالوا بأنه كى يؤدى المسلم الحج كاملا عليه أن يواصل الزيارة الى
الأضرحة والقبور الرئيسية لأنبياء الدين اليهودى والدين المسيحى •

ولم يتحدث النبي ضد الأنبياء القدامى ، ولا أنكر الاسلام تعاليمهم ولا كتبهم المقدسة . ففى هذين الدينين لم يعترض الاسلام الا على ما كان يسمى « عنصر الفساد » أو التزييف . وما أدخل نتيجة لهذا على التوراة والأنجيل . وكانت زيارة الأماكن القديمة التى يحتفى بها الأنبياء تعد واجبا ثانويا يدعم ايمان المسلم . ويؤكد أحد المؤلفين أن صلاة واحدة تقام فى بيت المقدس تعادل ألف صلاة تقام فى مكان آخر . واذا لم يستطع المسلم أن يؤدي هذا الواجب فعليه أن يرسل زيتا الى القبور المقدسة فى المدينة المقدسة . ويزيد بعض الكتاب فيزعمون (*) ان الحج بمعناه الكامل يجب أن يشمل زيارة أصحاب النبي أنما كانت أضرحتهم حتى خارج شبه الجزيرة العربية ، علاوة على زيارة قبور الشيوخ الصالحين الآخرين التى أصبحت الأجيال المتعاقبة تحترمهم وتقديسهم . ومما كتبه أبو بكر الهروى (سنة ٦٤١ هـ أى ١٢١٤ م) وشهاب الدين المقدسى (٧٦٥ هـ أى ١٣٦٣ م) وموفق الدين الحزرى (٧٨٠ هـ أى ١٣٧٨ م) يصل القارئ الى النتيجة بأن المسلم لا يفرض عليه دينه زيارة تلك الأماكن فحسب بل المحافظة عليها وابقاؤها فى نطاق الامبراطورية الاسلامية . وعليه أن يدافع عنها ضد الصليبيين الذين كانوا يعتبرون مسيحيين غير مخلصين وملحدين حقيقيين ومشركين ، وان مجرد وجودهم ينجس القبور المقدسة .

ثانيا : « كتب الفضائل » وفيها يعدد المؤلفون فضائل الأقطار الاسلامية والمدن الاسلامية وأماكن المسلمين البارزة . وكان يجب حماية الحدود الحرة تحت الحكم الاسلامى من أى اعتداء مسيحي ، ويجب تخليص الأماكن التى يستولى عليها الصليبيين من نيرهم . ان فلسطين هى ارث المسلمين المؤمنين وحدهم . وان المدعين وعبداء الصليب يجب ألا يسمح لهم بالبقاء فى اورشليم . ويقدم أحد الكتب الشهيرة المجهولة المؤلف فى

(*) ترجمت هذه العبارة بتصرف من المراجع .

القرن الرابع عشر وعنوانه « فضائل الشام » مقالا غريبا يؤكد أن سوريا (التي تشمل فلسطين طبعاً) فيها تسعة أعشار ثروة العالم . وهي علاوة على هذا أرض البعث . وعلى هذا فإن ساكن سوريا واثق من قبوله في الجنة مستقبلا ومن تمتعه بالشراء في العالم الدنيوى . ولم يقف كتاب هذا القسم من الكتب عند حد امتداح مراكز الحج وحدها ولكنهم كانوا يمتدحون كل الأماكن حتى يثيروا اهتمام الناس بكل مدينة هامة تحت الحكم الاسلامى . وقد وجد السيوطى أنه من الأهمية بمكان أن يكتب « رسالة في فضائل الاسكندرية » وهي مازال مخطوطة بخط يده .

وكان جلال الدين السيوطى (١٤٤٥ - ١٥٠٥) أبرز هؤلاء الكتاب وأكثرهم تفوقا وكانت كتاباته أكثر إنتاجا وأخلد آثارا وأقرب الى الموسوعات وتمثل كتابته عن الاسكندرية أسلوب الكتابة الخاص به . فهو يبدأ باقتباس حديث من الأحاديث النبوية عن الاسكندرية ، ثم يصف حياتها الدينية ومراكزها الدينية (*) ويقول ان ثلاثة أيام تقضى في أحدها تساوى سبعين عاما في البلاد الواقعة بين الروم والعرب . وان قضاء شهر على شاطئها يساوى ستين زيارة للحج في مكان آخر . ويقول ان للاسكندرية بوابتين تؤديان الى الجنة وتعرف احدهما باسم «بوابة محمد» والثانية باسم « بوابة الرحمة » ، وسوف تضمن أربع صلوات مدة أربعين يوما في عسقلان أو قيصرية أو الاسكندرية لصاحبها مكانا في الجنة ، وتحكى قصص الذين يرتحلون من أماكن بعيدة مثل ابن خديمه الذى جاء فى عام ١١٦٤م من خراسان البعيدة للاستجمام والتعبد فى الاسكندرية .

ثالثا : « كتب الجهاد » وهى الكتب التى تتناول موضوع الحرب المقدسة . وهى أكثر فى عددها من القسمين السابقين . فالحرب المقدسة كانت اتمام عهد المسلم . وتظهر مناقشة مبدأ الحرب المقدسة بارزة فى الأدب المتوسع للفقهاء الاسلامى مما كتبه البخارى (٨١٠ - ٨٧٠) ثم

(*) كان يطلق على المركز الدينى اسم « الرباط » .

السيوطي الذي اقتبسنا منه القليل فيما سلف ، ثم ما جاء في كل من كتب السنية ومذاهبها الأربعة (الشافعي - المالكي - الحنفي - الحنبلي) ، وفي كتب الشيعة • وليس هناك اختلاف جوهري في الرأي بين المعلقين على المذاهب أو العقائد المختلفة في الاسلام حول موضوع « الجهاد » •

وقبل قيام الصليبية بأكثر من قرن ، ألف القاضي النعمان بن محمد (٩٧٤ م) كتابا في الفقه الاسلامي عنوانه « دعائم الاسلام » يمثل كتاب الجهاد الذي نشر في السنوات الأخيرة • وبما أنه قد بقى المرجع الأساسي للفاطميين في شئون الفقه ، وبما أن الصليبيين هبوا أيام الفاطميين فاز المحاولة السريعة لتحليل محتويات ذلك المرجع العظيم تكون شائقا للغاية • يبدأ النعمان بسلسلة الاقتباسات من القرآن التي تدعو الى القتال في سبيل الاسلام • ويلى ذلك مقتطفات من حديث النبي محمد • وبعد ذلك يقسم تلك الأوامر المقدسة تحت سلسلة من العناوين المختلفة التي تشمل الدعوة للحرب المقدسة ، ومكان الخيل في المعركة ، وسلوك المستركين فيها ، وواجبات القادة أو الأمراء • ثم يتبع هذا كله تعليقا الخاص على بعض الموضوعات مثل النداء لقائد الجيش ، ونظام العدل • ودراسة الطبقات الاجتماعية ، وصلاتها بالحكام والضرائب وخطط الأعداء للحرب ، وهزيمة الكافرين ، ومركز الأسرى والسلوك المسالم ، والهدنة ومعاهدة السلام والجزية والغنائم وتقسيمها ، ومحاربة الخارجين عن الدين والحكم بالنسبة لغنائمهم • وقد لقيت التفاصيل الدقيقة عن الحرب المقدسة اهتماما بالغاً في الشريعة الاسلامية •

ولكن هذا وجه واحد من الكتب التي كتبت عن الجهاد والتي خصصت للمعالجة النظرية للموضوع • أما الوجه الآخر فقد تناوله الكتاب أكثر مما تناولوا الوجه الأول • والحق لقد نشأ أدب بأكمله ليعالج النواحي العملية لفنون الحرب في الشرق وخاصة في الفترة الأخيرة من العصور الوسطى • وكان المحاربون والقادة ذوو الخبرات العظيمة والمعرفة الدقيقة بفنوز

الحرب ينظمون المقالات ويجمعونها ، وكانت تلك المقالات تعالج موضوعات فنون الفروسية والأسلحة والطريقة الصحيحة لاستخدام كل سلاح وطريقة الحرب والخطط ونظام المعارك . وإن الانتاج الكبير للكتاب المسلمين فى هذا المجال الهام يبرر الدراسة الأثرية لتاريخ الفنون الشرقية للحروب كما بحثت أعمال كويلر ، ولبروك ، وأومان عن شئون الحرب فى الغرب .

ولنراجع باختصار ما كتبه كاتب عسكرى فى القرن الرابع عشر اسمه ابن منكالى (١٣٧١) وهو مخطوط فى برلين ويعتبر نموذجا مصورا لما نتوقع أن نجده فى مؤلفات عن موضوعات لم تكن قد طرقت من قبل حتى ذلك الحين . فقد كتب رسالة موجهة الى السلطان قايتباى (١٤٦٨ - ١٤٩٦) تعد عملا فنيا حقيقيا . وتنقسم الى قسمين رئيسيين: أحدهما فنون الفروسية والثانى الخطط الاستراتيجية . فبعد المقدمة المعتادة المقتبسة من القرآن الكريم والحديث الشريف اللذين يعتبران أساس كل المعرفة فى الاسلام ، يخصص الكاتب سلسلة من الأبواب لفن الفروسية والمواقع العديدة للهجوم والدفاع فى ميدان المعركة ، والطريقة الناجحة لاستعمال كل أدوات الحرب مثل السيف والرمح والقوس والسهم والصولجان والدرع والمنجنيق . وأبحاثه الدقيقة لكل التفاصيل ترمى الى افادة الجندى كمرشد عملى للتدريب الأساسى فى فن الحرب . ثم يتحول الكاتب الى دراسة الخطط العريضة ونظام المعركة ويسجل عددا من الخطط المحددة للعمل على مواجهة أى خطر . ولذا يذكر فى كتابه ستة وعشرين رسما تبين المواقع المختلفة فى ميدان القتال ويملا صفحاته بعدديد من الأشكال والنماذج . ويبدو أن الجزء الاول من كتابه قد أعد لتثبيت الرتب والسجلات ، وأدت الأبواب الباقية لدور الكتيب المرشد للمقادة الذين يقودون المسلمين الى النصر . ومما لا شك فيه أن هذا الكتاب وغيره من الكتب المماثلة برهان على أن الشرق الاسلامى كان فى حوزته نظام علمى مستفيض فى طرق الحرب مما يبرر الانتصارات الساحقة للجيوش الاسلامية عند التقائهم بالفروسية الغربية فى الامبراطورية المصرية أولا ثم فى تركيا فيما بعد .

مناهضة المصريين للصليبية

يرجع تأصل جذور مناهضة الصليبية (*) ومقاومتها الى بداية حربها الأولى منذ أن بدأت أسرة «زنكي» في المقاومة القوية للفرنجة، حينما بدأوا سياسة وضع العراقيين والعقبات أمام الحدود الشمالية الشرقية لمملكة بيت المقدس اللاتينية . وبعد اتحاد شمال سوريا مع مصر في مملكة واحدة تحت حكم صلاح الدين القوي دخلت مناهضة الصليبية في مرحلة همدت فيها الغرب وبلغت ذروتها عند سقوط بيت المقدس عام ١١٨٧ . ومنذ ذلك الحين بدأ الاستيلاء ثانية على سوريا تدريجيا وبدرجات متغيرة من القوة لفترة تقرب من قرن ، وقد توجهوا في النهاية استيلاء الملوك السلطان على عكا عام ١٢٩١ . وهذه هي المرحلة الحيوية الأولى في قصة مناهضة المصريين للصليبية . وقد ساعدت الانتصارات التي أحرزها المماليك المحاربون في عملية استرداد الحدود الضائعة قواتهم المسلحة على التغل داخل سوريا في الولايات المسيحية المنتشرة في آسيا والشرق كله .

وبسبب قرب حدود الامبراطورية المصرية الشمالية أصبحت مملكة أرمينيا الصغرى المسيحية هدفا لانتقام المماليك . وتشير السجلات العربية الى الطرق الداخلية المنتشرة التي استخدمها المصريون في انتظامهم داخل أرمينيا ؛ وكثيرا ما كانت تقاسى من السلب بعد انتهاء الحكم المسيحي في سوريا حتى قبل سقوط عكا . وفي عام ١٢٦٧ توغل السلطان بيبرس في البلاد حتى طرسوس . وتكرر هذا في عام ١٢٧٥ . وأشعلت النيران في مدينتي ماسيسا ، سيس الأرمينيتين . وفي عام ١٢٨٧ اضطر الأرمن الى شراء السلام غير المستقر وذلك بدفع جزية قدرها مليون درهم في أثناء هدنة بلغ مداها عشر سنوات .

(*) نذكر القارئ بأن كلمتي Crusade — Counter في هذا المؤلف ترجمتا بكلمتي « مناهضة الصليبية » وتشمل الحركات الاسلامية التي قامت لمقاومة الصليبيين .

كان القرن الثالث عشر من أعصف الفترات فى تاريخ أرمينيا .
فقد أصبحت البلاد مسرحا مفتوحا لحرب مستعرة مستمرة بين جحافل المغول
وجيوش المماليك . وعلاوة على ذلك فان العطف الذى كان يكنه آل هوثوميان
Hetheumian فى سيليسيا [فى جنوب شرق آسيا الصغرى] لأمرء المغول
أوغر صدور السلاطين المماليك فأكثروا من اغاراتهم المفاجئة على أرمينيا ؛
ثم برز عامل آخر ساعد على انتقام السلاطين المتزايد ضد أرمينيا . ففي
هذه الأثناء أدى الحصار الشديد على شواطئ مصر الى تحول القوافل
التجارية الى المراكز التجارية فى أرمينيا وخاصة لاجزو (اياس) وقرر
المماليك أن ينتقموا من سكان الأرض المساكين بتخريب تلك المدينة
الساحلية تخريبا كاملا فى غارتين متتاليتين فى عامى ١٣٢٢ ، ١٣٣٧ .
وبعد الهجوم الثانى اضطر الملك ليو الخامس نفسه أن يهدم حصون
المدينة ويسويها بالأرض . وهرب الكثيرون من سكان أرمينيا الى قبرص .
ويقال ان المماليك عادوا الى قاعدتهم فى إمارة حلب ومعهم ١٢٠٠٠
من أسرى الحرب الأرمن . وفى عام ١٣٤٧ عادوا ليحتلوا بصفة دائمة
ما تبقى من المدينة . وفى عام ١٣٥٩ أنضمت كل من أضنه وطرسوس الى
الامبراطورية المصرية ولم يبق من مملكة أرمينيا سوى مدينتى سيس ،
أنازارب [عين زربة] فى منطقة طرسوس الجبلية . وفيما بعد سلمت
هاتان المدينتان بعد ضغط عسكري قام به أمير حلب . وأخيرا فى عام ١٣٧٥
سقطت العاصمة سيس بعد الهجوم عليها وخربت كل البلاد .

وبأمل يائس ، احتفى الملك ليو السادس فى آخر الحصون الأرمينية
وهى قلعة جابان Gaban ؛ وبعد دفاع مستميت سقطت القلعة فى أيدي
المصريين وأخذ الملك ورجال بلاطه أسرى فى قلعة القاهرة . وبعد أن قضوا
سبع سنين مسجونين فى القاهرة وقعت فينيسيا والبابوية جزية من أجل
ليو السادس فنال حريته الشخصية عام ١٣٨٢ على شرط ألا تطأ قدماه
أرض أرمينيا طول حياته . وقضى الملك غير المتزوج بقية عمره مستجديا
جوالا بين بلاط قصور أوربا والبلاط البابوى حتى مات عام ١٣٩٣ دون

عقب • وبقيت سيليسيا مستعمرة مصرية حتى عام ١٥١٦ الى أن استولى عليها السلطان سليم الأول فأخضعها للحكم التركي قبل هجومه على سوريا ومصر • وبعد الحرب العالمية الأولى احتلتها مؤقتا القوات الفرنسية من عام ١٩١٩ حتى عام ١٩٢١ حينما تشجع الأرمن على العمل من أجل الاستقلال ولكن الخدع المريبة والمذابح التركية التي لا يمكن وصفها تلت هذه الفترة •

أما مناهضة المصريين الثانية للحروب الصليبية فكانت موجهة ضد مملكة الجزيرة اللاتينية لقبرص تحت حكم اللوزيجنيين • فلم يستطع سلاطين مصر أن ينسوا أو يعفوا عن كارثة الحرب الصليبية تحت قيادة بيتز دي لوزيجنان الأول والتي هوجمت ونهبت فيها مدينة الاسكندرية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط عام ١٣٦٥ • ومنذ تلك السنة بدأ السلاطين المماليك فى انشاء أسطول قوى فى دار الصناعة ببولاق الواقعة على نهر النيل قرب القاهرة ، من أجل معاقبة المعتدين وفى تلك الأثناء استمر القراصنة القبارصة الخطرون فى القيام بغارات متعبة على المدن الساحلية فى مصر وسوريا • أما فى بلادهم فقد أخذ حكم اللوزيجنيين يضعف ويبدأ رويدا نظرا لتدخل مجامع جنوه • وزاد من سوء حظ قبرص موت الملك بيتز الأول مذبوحا فى يناير عام ١٣٦٩ وخلفه صبي عمره احد عشر عاما هو بيتز الثانى (١٣٦٩ – ١٣٨٢) وقد أدت عناصر الهبوط هذه الى فرض حماية جنوه على الجزيرة •

وكانت اللحظة موالية لمصر لتضرب ضربتها القاضية أثناء حكم السلطان برسباى (١٤٢٢ – ١٤٣٨) وقد قامت الحملة الأولى من بين الحملات البحرية الثلاث ضد قبرص عام ١٤٢٤ • وكان طابعها طابع معركة تجريبية استكشافية وكانت نتيجتها مشجعة للمماليك • وقد أغارت سفنهم على ليماسول (معروفة فى التاريخ العربى باسم حصن اللامسون) على الشاطئ الجنوبى • وقد عادوا فى أمان ومعهم الكثير من الأسرى والغنائم • وفى

أغسطس من العام التالى فاجأت القوات البحرية المكونة من أربعين سفينة بقيادة اميرال من المماليك واسمه جرباش حرس جنوه عند الموانئ البحرية القوية فى فاما جيوستا (كتبها العرب الماغوص أو ماغوصه) ولرناكا Larnaca (*) واضطربهم الى التسليم . واستولت على ليماسول أيضا من اليونانيين . وفى النهاية تقرر أن يرجع الأسطول الى قاعدته ومعه أكثر من ألف أسير وغنائم ضخمة . وتسجل المراجع رحمة السلطان فى تلك الفرصة . فقد أمر بالآ يعرض الأبناء والأبناء فى أسواق الرقيق منفصلين .

ورفض برسباى أن يستمع لمحاولات التدخل من جانب قبرص عن طريق الامبراطور البيزنطى فى القسطنطينية . وفى يوليو عام ١٤٢٦ أعد أسطولا أكثر استعدادا ببحارة مهرة وقوة كبيرة من المتطوعين ، وأهل البدو المتحمسين . كل هؤلاء تحت قيادة أمير مشهور من المماليك اسمه تغرى بردى محمود يهدف الى ضم الجزيرة بصفة نهائية ؛ وقد نزلت الجيوش بسلام على الشواطئ الجنوبية المقابلة لمصر فى مكان اسمه افديموا ، وفى الحال لاقوا خيش قبرص الاقطاعى فى السهول المجاورة عند كيروكيتيا يوم ٥ يوليو عام ١٤٢٦ . وكانت القوات اللوزينجية مكونة من ١٦٠٠ فارس ، ٤٠٠٠ من المشاة . وهزمهم المصريون وردوهم على أعقابهم . ويقدم ليونلتىوس مكاريوس المؤرخ اليونانى لقبرص وصفا حيا لانقيار الروح المعنوية لجنود قبرص وهزيمتهم وأسر المصريين للملك جينس Janns (١٣٩٨ - ١٤٣٢) ، والمذابح التى تلت ذلك ، والغارات على داخل الجزيرة حتى استولى المصريون على العاصمة نيقوسيا . وفى النهاية أبحر المعتدون راجعين الى بلادهم ومعهم حمولات السفن الضخمة من الغنائم و ٣٦٠٠ أسير والملك ونبلاؤه فى مقدمة الأسرى . وهكذا تحطمت هيبة اللاتينيين فى قبرص بدرجة لم يكن يمكن اصلاحها . كما قرر اليونانيون ، الذين

(*) بلد ساحلية فى قبرص .

ظلوا وقتنا طويلا تحت ربة الأوربيين الغربيين ، أن يثوروا ضد سادتهم
الحلفاء • وفي الحال انتخبوا واحدا من بينهم يدعى الكسس ليكون ممثلهم
الوطني •

ومثلما حدث للملك ليو السادس ملك أرمينيا أسر أيضا ابن عمه
جينس الثاني ملك قبرص ، وأخذ مقيدا بالسلاسل الى قلعة القاهرة •
وعرض تاجه وأعلامه في مقدمة موكب الأسرى الذى بلغ ألفين من الفرسان
القبارصة فى شوارع العاصمة المصرية • وظهر جينس عارى الرأس مقيدا
بالحديد فى بلاط السلطان بحضور مبعوثين من حكام المناطق الاسلامية
فى تركيا ، وامارات التراكمه فى آسيا الصغرى ، وملك تونس وشريف
مكة وغيرهم • وقبل ملك قبرص الأرض عند قدمى السلطان ثم سقط
فاقد الوعي • وتوسط قنصل البندقية وتابعوه من تجار أوروبا من أجله
ضامنين دفع مائة ألف من الدوكات الذهبية فى الحال كمقدم للجزية على
أن تؤدى مثل هذه القيمة بعد عودة الملك الى قبرص • وعلاوة على هذا
تعهد جينس أن يدفع للقاهرة جزية سنوية بين ٥٠٠٠ ، ٨٠٠٠ من الدوكات
ثم أعلن طاعته لسيده السلطان ؛ وعندئذ نال حريته الشخصية وأعطى
بيتا وسمح له بالركوب متنقلا فى المدينة ريثما يعود الى قبرص • وقد عاد
فى مايو عام ١٤٠٧ • وكان أول ما كان ينوى عمله شق الحكام البونانيين
الجدد • ولكن قوة احتلال مصرية كانت قد نزلت فى تلك الأثناء فى الجزيرة
فحال دون ذلك وسلم الملك سلطته المالية لأهل جنوه فى فاما جيوستا
وأصبحت قبرص ولاية تابعة لمصر • وهكذا قدر على جينس أن يدفع الثمن
غاليا لقاء ما اقترفه بئتر الأول حين ضرب الاسكندرية فى القرن السابق •

وكان الهدف المنطقى الثالث لمناهضة المماليك للصليبية هو «رودس»
حيث استقر فرسان القديس يوحنا من بيت المقدس وحولوا الجزيرة الى
قلعة حقيقية • ومما لا شك فيه أن نصر المصريين فى قبرص قد أثار شهية
السلطان لاختضاع رودس ليعسط سيادته على مياه الشرق • فقد كان

الفرسان البيض في رودس شوكة في جنب الامبراطورية الاسلامية . ولم يكن يضمن السلام في تلك المنطقة مادام مثل ذلك التنظيم القوى يهدد كل من تجارة المسلمين على البحار الكبيرة الواسعة وأمن المسلمين في الداخل . وهنا واجهت السلطان ظروف مختلفة أدت الى فشل هجماته على الجزيرة فانتهدت الى نتائج غير حاسمة . فقد ظهر ان عند الفرسان شجاعة تفوق شجاعة قوات قبرص . وكان تنظيمهم العسكري قويا لا يمكن زعزعته . فاجتمع النظام في صفوفهم مع الروح المعنوية القوية التي تدفعهم الى الاتحاد في التفكير والعمل . وعلاوة على ذلك اتبعوا سياسة محكمة في الجاسوسية العالمية . وكان لهم جهاز مخبرات ذو طابع خاص غريب على العصور الوسطى وكان وكلاؤه في الدول المعادية يتولون اعلام الرئيس الأعلى بأية تحركات عسكرية ضد الجزيرة . وهكذا جعلوا الجيش على أهبة الاستعداد لرد أى هجوم مفاجيء . ولقد حاول المصريون ثلاث مرات أن يخضعوا رودس فأخفقت جهودهم في المرات الثلاث لقوة الفرسان وشجاعتهم واستعدادهم . وقامت أولى هذه الهجمات في صيف عام ١٤٤٠ ؛ وقد أعد المصريون في تلك السنة أسطولا مكونا من خمسة عشر « غرابا » في مصنع السفن في بولاق استعدادا للهجوم على رودس . وحينما أبحر الأسطول عن طريق قبرص وألایا في آسيا الصغرى للحصول على الامدادات دعمه أمير ألایا التركي بسفينتين آخرين . وتقدمت القوة البحرية المتحدة الى رودس . وغضب المسلمون حينما وجدوا أن الفرسان البيض في قبرص كانوا على تمام الأهبة ينتظرون وصولهم . واستطاع الفرسان البيض أن يوقفوا نزول المماليك في الوقت المناسب وأن يرجعوا من المعركة سالمين ، وفقد اثنا عشر من المماليك وأصيب كثيرون آخرون اصابات خطيرة مما اضطر المهاجمين الى الانسحاب الى مصر .

وأدت هزيمة جيوش السلطان الى حقهه وغضبه على فرسان رودس ؛ لذا قرر ارسال حملة ثانية لينتقم منهم ويهلك قواتهم . وبدأ استعداداته لمحاولته الجديدة في عام ١٤٤٢ . وبعد ذلك بحوالى عام أبحر بأسطول

جديد حاملا ١٥٠٠ من القوات المنتظمة علاوة على عدد كبير من المتطوعين تحت قيادة قائد البحر الحبير اينال العلاني من المماليك . أبحر فى نهر النيل قرب دمياط ثم عبر البحر الأبيض المتوسط الى طرابلس على الساحل السورى لكى يجمع المزيد من الرجال والعتاد . ولكن أدت عاصفة الى تهشم الأسطول وتشتته وتأخر وصوله . ووصلت بعض السفن الى بيروت ، كما وصلت غيرها الى طرابلس ، ولكنهم وجدوا أن السوريين قد انتابهم القلق فقرروا أن يتقدموا الى قبرص التى كانت حينذاك قاعدة لعمليات المسلمين الحربية ضد رودس . وأخيرا اتحدت القوات المختلفة فى الموانئ القبرصية ، ولرناكا ، وليماسول . وبعد سلب الأهالى الذين لا سلاح لهم ، اتجهوا ناحية «بافوس» (*) من أجل الامدادات على حساب الملك وشعب قبرص . ثم ساروا عن طريق المدن التركية الصديقة أليا، وأضاليا (أداليا) الواقعتين على الساحل الجنوبى للأناضول ، الى قلعة الجزيرة الصغيرة كاستلوريزو Castellorizzo (« قشطيل الروج » كما وردت فى المصادر العربية) وكانت تابعة لفورسان القديس يوحنا . وسقطت هذه الجزيرة الصغيرة بعد مقاومة قليلة وقتل الحراس وهدمت الحصون هدمًا تامًا فى أكتوبر عام ١٤٤٣ . وفى تلك الأثناء اكتشف ان الشتاء على الأبواب . وحينما أدرك القادة أن رودس محصنة تحصينًا كاملاً ولا يمكن سقوطها ، وانه من المحتمل أن يحجزوا عن مصر طول فصل من فصول السنة بأكمله ، قرروا الانسحاب الى دمياط والقاهرة مؤقتًا . وهكذا فشلت الحملة الثانية كسابقتها فى الحصول على هدفها وهى جزيرة رودس .

أما الحملة الثالثة فقد قامت مبكرة فى صيف عام ١٤٤٤ ؛ وكانت سيئة الحظ كسابقتها . وفى يونيه من ذلك العام قام جيش من المماليك عدده ألف مملوك ، مع متطوعين من ولايات عدة يبلغ عددهم ١٨٠٠٠

(*) وردت فى المصادر العربية تحت اسم « الباف » .

من المجندين ، معدين بآلات الحصار . وأبحروا من الاسكندرية ودمياط وطرابلس كما كانت عاداتهم من أجل الحصول على التعزيزات من سوريا . واتجهت القوات المتحدة المسلحة الى رودس . وبينما كانت مدينة رودس محاصرة عن طريق البحر والبر أغار بعض المسلمين على القرى الصغيرة المجاورة للجزيرة . ولم تؤد جهودهم الى أية نتيجة فقد قامت دون نجاحها قلعة القديس نيقولا القوية ، واستنفذ المصريون قواهم تدريجيا أثناء القتال العنيف فقتل ثلاثمائة من المماليك فى المعركة وجرح خمسمائة وكان عدد غير قليل من المرتدين اللاتينيين - الذين سبق أن اعتنقوا الاسلام - قد هجروا أصدقاءهم المصريين الذين كانوا يصاحبونهم وانضموا الى الفرسان . وكان الصيف يقترب من النهاية ولم يكن هناك أمل كبير . وحينما أحس المماليك الباقيون بالاجهاد واليأس رفعوا الحصار وأبحروا عائدين الى مصر .

وليس هناك ما يؤكد أن هجمات المصريين على رودس قد تركت أثرا دائما على نظام فرسان القديس يوحنا . فالأضرار التى لحقت بحصونهم كانت مؤقتة . أما قوة الفرسان الحقيقية فمن الواضح أنها بقيت كما هى . وبالرغم من ذلك وضعت مصر سابقة خطيرة للعثمانيين الذين جاءوا من بعدها وحاصروا قلعة الجزيرة مرتين وفى النهاية أصابوا الفرسان البيض اصابات خطيرة . بدأ السلطان محمد الثانى (١٤٥١ - ١٤٨١) أول حملة عظيمة للغلبة على رودس عام ١٤٤٨ ، ولكن لم يحن طردهم من الجزيرة الا على يدى سليمان الثانى العظيم (١٥٢٠ - ١٥٦٦) فقد قضى على نظامهم بأكمله عام ١٥٢٢ أثناء ولاية السيد العظيم فيليب فيليبس فى جزيرة آدم بعد أكبر دفاع مستميت فى تاريخ الفرسان البيض بأكمله .

قامت تطورات كثيرة غيرت مجرى التاريخ فى الشرق فيما بين نهاية مناهضة المصريين للصليبية ضد رودس وبين بداية مناهضة العثمانيين لها . وكان نجم الأتراك العثمانيين فى صعود . وأصبحت القسطنطينية

العثمانية عاصمة امبراطوريتهم الاسلامية الجديدة واتحدت القوة العثمانية فى آسيا الصغرى على حساب الأمراء الأتراك الذين دخلت اماراتهم تدريجيا تحت حكم العثمانيين . وفى عام ١٥١٦ وقعت معركة « مرج دابق » المتاخمة لحلب بين سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠) سلطان تركيا وبين سلطان مصر المملوك قنصوه الغورى (١٥٠٠ - ١٥١٦) الذى سقط فى الميدان . وعجل فشل المصريين باتحاد سوريا مع تركيا . وبعد ذلك فى عام ١٥١٦ حددت معركة « الريدانية » (حى العباسية شمال شرق القاهرة) مصير مصر نفسها ، وبعد اشتباكات عديدة أقل شأننا من سابقتها أسر خليفة الغورى وهو طومان باى (١٥١٦ - ١٥١٧) وشنق على باب زويله (أحد أبواب مدينة القاهرة) . ولا يرجع انتصار العثمانيين فى هاتين المعركتين الحاسمتين الى تفوقهم فى العدد والخطط فحسب ، ولا لشجاعتهم النادرة وتماسكهم أثناء الحرب فحسب ؛ وانما يرجع أيضا الى استعمالهم المدفعية الحديثة والبارود وذلك ما لم يعرفه المصريون ، فتدهورت روح الجنود المعنوية . ويصف الكتاب العرب فى ذلك الوقت تلك الأسلحة الغربية المخيفة باسم « النار والحديد » ويقولون بأن ذلك يتنافى مع روح الاسلام وقوانينه على استعمالها ضد المسلمين .

ومهما تكن أسباب انتصارات العثمانيين فان النتائج كانت حينئذ واضحة ، فقد تحول الشرق الى حكم تركى هائل موحد ذى آثار بالغة الذروة على ازدهار التجارة بين مصر والقوى التجارية فى جنوب أوروبا وخاصة فى المجتمعات الإيطالية ، فقد أصبحت جميع الطرق التجارية حينئذ فى أيدي الأتراك ، وبدأت المراكز التجارية الأخرى تفقد ما كان لها من أهمية فى العصور الوسطى . وأصبحت القسطنطينية أهم مدينة بالنسبة للسلطين وللإسلام ، ولم تتجه القاهرة ثانية الى السفارات اللاتينية التى كانت تبحث عن الأسواق والامتيازات التجارية ، ولكنها أصبحت تتجه الى العاصمة العثمانية الجديدة على شواطئ البوسفور . وفى تلك الأثناء أسرعتم التحركات الاستكشافية العظيمة فى المحيطات وهى التى أدت الى الدوران حول رأس الرجاء الصالح والى اكتشاف « العالم الجديد » فكسدت تجارة الشرق الأدنى وأصبحت ذكرى لعصر من الرخاء والذهب .

مناهضة الأتراك للصليبية

حدثت كارثة الفرسان الغربيين فى نيكوبولس فى سبتمبر عام ١٣٩٦ نهاية الصليبية باعتبارها منظمة للصليبية ضد الاسلام من أجل تخليص الأرض المقدسة . وقد دافع الأتراك عما اكتسبوه من أرض أوربا بنجاح كبير حتى لقد دب اليأس فى قلوب ملوك الغرب وشعوبه وتركوا أوربا الشرقية فريسة لحظ عاثر . وكذلك ضم أحد الفصول الأولى فى تاريخ المسألة الشرقية فى جانب العثمانيين الذين فرضوا أنفسهم فى عضوية الكومنولث لولايات أوربا بالرغم من أصلهم الأجنبى ودينهم الاسلامى . وأصبحت المجر دعامة المسيحية الكاثوليكية ، وكانت فرصتها الوحيدة للبقاء تكمن فى إيقاف تقدم الأتراك الى قلب أوربا . وقرب نهاية القرن الرابع عشر بعد انهزام نيكوبولس كانت الجيوش المجرية قد دمرت . أما الأعداد الهزيلة التى عاشت بعد مذبحة المسيحيين فقد تفرقت دون أمل فى الاتحاد السريع من أجل عمل منظم . ولم يستطع الملك سيجسموند أن يقوم بأى نوع ولو مؤقت من المقاومة . وكان الطريق الى بودا مفتوحا للغزاة . ومع ذلك فان بايزيد الأول (١٣٨٩ - ١٤٠٢) قرر أن يبقى جنوب الدانوب اما للاعياء الذى ألم بجيوشه لمرضه هو نفسه واما لأنه أراد أن يدعم انتصاراته ومركزه فى البلقان .

واستمرت مناهضة العثمانيين للصليبية فى أوربا قرابة نصف قرن . وكان حكام بلغاريا وصربيا من بين أتباع السلطان ، على حين كان الامبراطور البيزنطى يدفع له جزية سنوية ، ولكن شبه جزيرة البلقان ككل كانت أبعد ما تكون حتى ذلك الحين عن أن تصبح تحت السيطرة العثمانية . فكثير من المساحات الواسعة لم تكن قد هزمت حينئذ ،

ومن أجل ذلك قسمت آسيا الصغرى نفسها بين العديد من سلالة
الاقطاعيين • كان العثمانيون وحدة من وحداتهم • ولكنهم لم يكونوا أقوى
هذه الوحدات •

من أجل ذلك العمل الأولى تجاه الوحدة والتدعيم كرس سلاطين تلك
الفترة الانتقالية وهم بعيدو النظر - جهودهم وانتباههم للعمل من أجل
الأجيال العديدة المقبلة • ولم يكن بايزيد شامذا عن تلك القاعدة العامة ،
فقد حد من عمليات شمال الدانوب لاعادة سيطرته على اماره ولاشيا
(كان الاسم القديم هو داشيا فيلكس والاسم الحديث رومانيا) كما قلل
من غاراته على الولايات المجرية فى سيرميا Syrmia وستيريا Styria •
وعلى العكس من هذا كان يظهر قوة وعزما أكبر جنوب الدانوب حيث كان
يستغل الانتصار العظيم الذى أحرزه فى عام ١٣٩٦ • وتم اتحاد صربيا
وبلغاريا وعبر العثمانيون نهر مورافا (*) ودرينا Drina من روافد
الدانوب الى الغرب ، وتوغلوا فى بوسنيا حتى زوورنك Zwornik ؛
وفى الجنوب أيضا سنحت للسلطان فرصة ذهبية حينما دعاه أسقف فوكس
اليونانى ليشتترك فى رحلة صيد فى تساليا وايبيرى ورحب السلطان بالدعوة
لأنه كان مغرما جدا بالصيد • ولم تكن آمال صاحب الدعوة وضييفه
مقصورة على متعة الرحلة • فقد كان الأسقف ينوى استغلال قوات
السلطان فى اعادة سلطته المزعزعة ضد اللاتينيين الأجانب والمنافسين
من المواطنين اليونانيين فى مقاطعته • ولكن بايزيد وجيوشه أسرعوا
بوضع أيديهم لا على فوكس فحسب ، بل على دورس ولوكرس والكثير
من الأحياء الأخرى فى ليفونيا والمورة ؛ واستقر الأتراك فى كثير من
مناطق اليونان غير الآهلة بالسكان ليحلوا محل المواطنين الذين هربوا
أو أخذوا أرقاء •

(*) فى تشيكوسلوفاكيا حاليا •

وعهد بايزيد الى اثنين من قادته وهما ايفزنوس ويعقوب بمناوبة خطط المورة ، وأعد نفسه لحصار القسطنطينية . وبدأ الحصار فى سبتمبر عام ١٣٩٦ وبعد أن تردد قليلا لمقاومة قدمت من ناحية أوروبا من جديد دون هوادة . وكان هدف السلطان الرئيسى هو الحصول على تلك المدينة العظيمة . وبدأ سقوطها قريبا عاجلا من انتصار العثمانيين فى نيكوبولس وذلك بأن ملوك الغرب الأقوياء وان استطاعوا أن يسهموا فى الدفاع عن بيزنطة فانه لم يكن يهمهم أن يرسلوا المزيد من الرجال الى الميدان الشرقى حيث عانوا خسائر ضخمة فى مغامرتهم الأخيرة فى بلغاريا . ولم تثر رحلة الامبراطور مانيول (١٣٩٩ - ١٤٠٢) التى قام بها يطلب العون ضد الأتراك ، الا قليلا من العطف العابر والوعود الجوفاء من حكام أوروبا الكاثوليك . وكان التجاوب الوحيد الملموس لرجائه هو قيام المارشال الفرنسى بوسيكوت على رأس قوة مختلطة من المغامرين الذين بلغ عددهم نحو ألف ومائتين من الرجال نزلوا فى القسطنطينية عام ١٣٩٩ ؛ بينما كان الامبراطور المستجدى لا يزال يجول فى أنحاء أوروبا . ولا يمكن وصف قصة بوسيكوت بأنها حرب صليبيه بالرغم من أن البابا بونيفاس التاسع (١٣٨٩ - ١٤٠٤) قد أعلن الحرب المقدسة فى ابريل عام ١٣٩٨ ومارس عام ١٣٩٩ . وكان الملوك وأمراء الاقطاع القادرون على قيادة الجيوش مشغولين انشغالا تاما بشئونهم المحلية ومشاكلهم الخاصة ، فلم يستمعوا لنداء البابا المقدس . ولم يكن أحدهم فى حالة تسمح له بأخذ مواعظ البابا مأخذ الجد ما عدا أهل جنوه والبندقية الذين كان الخطر التركى يهدد مصالح تجارتهم فى القسطنطينية ويؤثر فيها تأثيرا مباشرا . وكان معظم رجال بوسيكوت مرتزقة لا متطوعين متدينين يدافعون من أجل الدين . وكان أهم ما يشغلهم ما سوف يدفعه لهم مستأجرهم وما سوف يأخذونه من غنائم من فريستهم . وما ان تبينوا أنه لم يكن عند العثمانيين غنائم مادية ، وأن الامبراطور البيزنطى كان فقيرا معدما ولا يستطيع مكافأتهم ، حتى أبحروا راجعين تجاه الغرب بعد عمليات

ثانوية ضد العدو في ضواحي المدينة . وحينئذ قرر بوسيكوت مارشال فرنسا وحاكم جنوه أن يرحل تاركا وراءه جون دى شاتوموراند ومعه حفنة من الرجال للإشراف على عمليات الدفاع حتى عودته . ويقال انه اقترح أن يدين الامبراطور وامبراطوريته بالطاعة والولاء للملك فرنسا مقابل المساعدة الفرنسية ، كما يقال ان البندقية وجنوه وفرسان القديس يوحنا أقروا اقتراحه هذا ، ولكن بوسيكوت نفسه لم يرجع ثانية الى تلك المدينة التاعسة ولم يوافق الملك الفرنسى شارل السادس على فرض سلطته على امبراطورية متعثرة كانت فى سبيلها الى التدى .

وعلى كل حال ؛ قد يكون من الخطأ تضخيم السهولة التى كان يمكن أن يستولى بها العثمانيون على القسطنطينية فى تلك المرحلة فقد كانت هناك عوامل متعددة مضادة لهم . فلم يكونوا يملكون حتى ذلك الحين المدفعية الثقيلة التى تمكنهم من مهاجمة أسوار المدينة القوية . ولم يكونوا قد أنشأوا أسطولا قويا يؤكد الحصار الكامل للمدينة من جهة البحر . واذا تذكرنا أن هذين العاملين - فوق كل اعتبار آخر - كانا حاسمين فى هجوم السلطان محمد الثانى الفاتح عام ١٤٥٣ أدركنا صعوبة مركز بايزيد عامى ١٣٩٩ ، ١٤٠٠ ، وعلاوة على ذلك لم ينل الحراس الا القليل من التشجيع المعنوى من تعزيزات بوسيكوت الهزيلة وقواته اللاتينية العابرة ، وبالرغم من أنه قد بدا أن الحصار تحت تلك الظروف سوف يستغرق وقتا طويلا فان بايزيد كان مصرا على الوصول الى نتائج ناجحة مهما كلفه الأمر . ولذلك عسكر خارج المدينة ، وأوقف وصول الامدادات والمؤن الى الداخل ، على حين بدأ رجاله يعيدون بناء آلات ضخمة للحصار استعدادا للمهجوم التالى . ومع ذلك فقد أخفقت عملياته ضد بيزنطة بسبب غزو التنجار لآسيا الصغرى تحت قيادة تيمورلنك، واضطر بايزيد أن يعبر البوسفور ليدافع عن مملكاته الآسيوية أمام جحافل المغول . وفى معركة أنقرة عام ١٤٠٢ نزلت به هزيمة منكرة ووقع أسير حرب فى أيدي أعدائه وأخذ عبر آسيا ليقابل مصيرا مظلما ونهاية بائسة .

وهكذا تأجل سقوط القسطنطينية نصف قرن . وفي هذه السنوات الخمسين أخذ العثمانيون يفيقون من ضربة التتار وأصلحوا من شأنهم في هودة لم تنقطع . وبدأوا يحاربون المسيحيين وأسفرت حروبهم عن نتائج متباينة . وبدأ مراد الثانى حصارا آخر حول المدينة بعد اعتلائه العرش ، ولكنه اضطر الى أن يرفع ذلك الحصار بسبب نقص المدفعية ونقص قوته البحرية . وهذان هما العاملان اللذان اعترضتا انتصار بايزيد الأول عام ١٣٩٩ . ومن ناحية أخرى ، فان حروب مراد مع المجريين تحت قيادة جون هنيادى بطل ترانسيلفانيا الذى ذكر اسمه فى الأساطير بلغ ذروة الهزيمة الساحقة للمسيحيين فى فارنه Varna عام ١٤٤٤ ، وهذه المعركة مثل الكثير غيرها كان يصبغها طابع الحروب الصليبية . وكان ممثل البابا فيها هو الكاردينال جوليان سيسارينى ، ولكنها فى الحقيقة لم تكن أكثر من فصل واحد فى سجل الحروب التركية المجرية فى القرن الخامس عشر .

وكانت اللحظة الحاسمة فى مناهضة الأتراك للصليبية عند تدمير الامبراطورية البيزنطية والاستيلاء على مدينة القسطنطينية فى ٢٩ مايو عام ١٤٥٣ . وكانت كل الأطراف تنتظر هذا الحادث منذ زمن طويل . وقام الأتراك باعداد العدة لهذا الحادث وبلغ الاستعداد ذروته أيام حكم محمد الثانى (١٤٥١ - ١٤٨١) الذى أقر السلام مع جون هنيادى حاكم المجر ، وجدد هدنته مع البندقية وجنوه والفرسان البيض فى رودس ومع الرئيس الالبانى سكاندربج ، وطاغيتين من طغاة المورة هما توماس وديمثريوس بلايولوجس ، وكانا أخوين ينافسان قسطنطين دراجاسس الحادى عشر (١٤٤٨ - ١٤٥٣) آخر أباطرة الرومان فى الشرق .

وفى أغسطس عام ١٤٤٢ انتهى السلطان من تشييد قلعة روميلى حصار على الشاطئ الأوروبى للبوسفور شمال المدينة المواجهة لقلعة

اناتولى حصار القديمة التى شيدها بايزيد على الشاطئ الآسيوى للممر المائى (البسفور) . وهكذا أكمل مرحلة اعدادية أخرى للحصار المقبل للمدينة ، وعند مشاهدة تلك الحوادث التى كانت تحمل فى طياتها نذر المستقبل أسرع الامبراطور البيزنطى فى ديسمبر عام ١٤٥٢ وأعلن فى سانت صوفيا اعلانا قديما(*) للوحدة بين الكنيستين الشرقية والغربية، معترفا علانية بأولوية روما ، وذلك بالرغم من المعارضة الشعبية لهذا الاجراء بزعامه جورج سكولاريوس الذى أصبح البطريك جناديوس ، واعتراض شخصيات بارزة من أمثال لوكاس فوتارس . فقد اعترض هؤلاء على الوحدة اللاتينية وأكدوا انه من الأفضل بقاء حكم العمامة التركى فى القسطنطينية على تاج الكنيسة اللاتينية .

فاذا نحن قدرنا تفاصيل الموقف وحاولنا أن نحكم عليها حكما عاما اتضح أن بيزنطة قد تركت لكى تلقى نهاية سريعة محتومة . فلم يكن هناك تجاوب عالمى لصرخة النجدة الصادرة من المدينة الرئيسية . ولم يظهر البابا ولا ملوك أوروبا أية إشارة لاتخاذ أى اجراء لانقاذ المدينة . وحتى الوطنيون المسيحيون من أمثال هنيادى لم يظهروا فى الميدان . وكانت مساعدات البندقية وجنوه - وكانتا مشتركتين فى نفس المصير المظلم - قليلة ، ولم تكن فى مستوى خطورة الموقف . فقد أرسلت خمس سفن حربية فى « القرن الذهبى » Golden Horn للدفاع عن الجدران الساحلية تحت قيادة جبريل ترفيزانو ، ووصل قرصان جنوه الشهير جيوفانى جياستينيانى من خيوس Chios ومعه ٤٠٠ من زملائه الذين تطوعوا لخدمة الامبراطور . وشق قائد بحرى من جنوه أيضا اسمه موريزيو كاتانيو طريقه الى القرن الذهبى خلال الحصار البحرى التركى ومعه ثلاث سفن من جنوه وواحدة يونانية . وقد حاربوا كلهم

(*) يقصد بهذا الاعلان « بيان Volenotilcon » وهى كلمة يونانية معناها وحدة ارادتها المسيح السماوية والأرضية - والغرض الأساسى من الاعلان هو وحدة الكنيسة الشرقية مع الغربية . (المترجم)

مستبسلين ومستبسين ولكنهم لم يكونوا أكفاء لعدو كان متفوقا عليهم كل التفوق فى عدده وعتاده . وكانت تقدر الجيوش التركية بين ١٥٠٠٠٠ الى ٢٦٥٠٠٠ بل لعلها كانت أكثر من ذلك . وكانت قوة الدفاع داخل المدينة تتكون أصلا من ٤٩٧٣ جندي يضاف اليها ٤٠٠ من جياستينيانى و ١٦٠٠ من السكان الأجانب وعلى الأخص من البندقية تحت قيادة جندي شجاع هو جيرولامو مينتو . وقد نزح عن المدينة كثير من سكانها ، ويقال انه قد قل عددهم الى ١٥٠٠٠ نسمة . وكان الأسطول التركى يتكون من ١٤٠ سفينة من بينها اثنتا عشرة سفينة حربية عظيمة . ولكن السفن الحربية الايطالية البيزنطية نجحت فى حراسة مدخل القرن الذهبى ضد الحصار التركى البحرى . وعلاوة على ذلك عرقلت تقدم الأعداء بأن مدت سلسلة حديدية ضخمة عبر المخرج المائى فسدت المسالك دون الأسطول المهاجم .

ومهما يكن من أمر فانه فى ٢٢ أبريل انهار الدفاع عن الميناء عندما ظهرت السفن التركية ظهورا مفاجئا من مكان خفى فى القرن الذهبى وخرجت الى خلف الأسطول المسيحى ، وكان الأتراك قد بنوا فى هدوء رصيفا خشبيا فى محاذاة الوادى من المضيق الى الميناء الداخلى وسحبوا السفن على عجلات واستطاع الأتراك بقوة سواعدهم أن يجروا هذه السفن فنزلوها الى الميناء ، وفى تلك الأثناء ضرب الأتراك المدينة بالمدافع الثقيلة - وكان ذلك معروفا فى التاريخ حتى ذلك الحين - وظل قصف المدينة خمسين يوما دون انقطاع ، وطفق الباقون من سكانها يعملون ليل نهار تحت وابل النيران يحاولون اصلاح الشواطىء . ولسوء الحظ جرح جياستينيانى جرحا مميتا وحمل الى سفينته قضى فيها نحيبه بعد يومين . وبموته سرى اليأس الى قلوب القوات الأجنبية . وفى وقت واحد قامت ثلاث هجمات عامة على أسوار المدينة من ثلاث جوانب فى ٢٨ ، ٢٩ مايو أخفقت اثنتان منها ، أما الهجوم الثالث قرب بوابة القديس رومانوس القديمة حيث كان الامبراطور يحارب بنفسه فقد شق حرس السلطان

بطريقهم وبدأوا يتدفقون من ثنايا الأسوار. فقفز قسطنطين وبيده السيف فى قلب المعركة ومات ميتة الأبطال . وامتطى السلطان محمد الثانى جواده منتصرا وسار فوق جثث الجرحى والقتلى الى سانت صوفيا حيث أقام أول صلاة للمسلمين فى كنيسة جستنيان التاريخية ، على حين تركت المدينة للسلب والنهب ثلاثة أيام وثلاث ليال . ومن بين السكان أخذ ٥٠٠٠٠ عبيدا . وقذفت الكنوز الفنية فى لهيب النيران وأصبحت الكتب الثمينة غير ذات قيمة فكان يمكن أن تشتري عشرة مجلدات لافلاطون وأرسطو بدرهم واحد . ومع هذا فاذا أخذنا وجهات النظر المتعارضة والأدلة القائمة فانه يصعب تقرير أن الحروب التركية قد فاقت فظائع الحرب الصليبية الرابعة فى تلك المدينة الرئيسيه .

وبالرغم من أن أنباء سقوط القسطنطينية قد تكهن بها الناس منذ سنين فان أوروبا قد تلقت تلك الأنباء بكثير من الانزعاج – ووصل الى خيوس Chios قوات حربية من البابوية والبندقية و نابولى بعد سقوط المدينة ، وفتح من جديد الكلام فى حرب صليبية أخرى ، وتركزت الآمال فى فيليب دوق برجند كما تركزت فى حماس أنياس سيلفيوس بيكولوميني الذى أصبح فيما بعد البابا بيوس الثانى (١٤٥٨ – ١٤٦٤) . ولكن لم تفلح سياسته ولا فصاحته فى الحصول على نتائج ناجحة للمشروع .

وكانت الانتصارات التى حققها الأتراك أكثر بظنا أيام حكم بايزيد الثانى (١٤٨١ – ١٥١٢) بسبب المشكلات الداخلية فى النطاق التركى . وطالب أخوه « جم » بالعرش وفر هاربا الى الفرسان فى جزيرة رودس، وهؤلاء سلموه الى البابوية ، وقبل البابا الاسكندر السادس ٣٠٠٠٠٠ من الدوكات ثمنا لقتل ذلك البائس بالسسم عام ١٤٩٥ . وفى تلك الأثناء أخذ ملك فرنسا شارل الثامن عهد الصليبية عام ١٤٩٣ بمناسبة انتصاره فى نابولى ، ولكن هذا المشروع كان مصيره النسيان بعد طرده من تلك المنطقة فى ١٤٩٥ . وبدأ بايزيد من جديد الهجوم التدريجى على المورة

وجزر بحر ايجه واستولى عليها من اللاتينيين فى ثلاث سنوات (١٤٩٩ - ١٥٠٢) .

ووجد سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠) الأراضى الاسلامية تحت القيادة التركية . وبعد أن ضم اليها أرمينيا العظمى عقب الحكم الايرانى عام ١٥١٤ قام بغزو أرمينيا الصغرى وسوريا والجزائر عام ١٥١٦ ، وتوج كل انتصاراته بغزو مصر نفسها عام ١٥١٧ . أما خليفته سليمان الأول العظيم (١٥٢٠ - ١٥٦٦) فبينما كان يعمل بهدف امتلاك رودس عام ١٥٢٢ وبغداد عام ١٥٣٤ فقد أحيا مناهضة الأتراك للصليبية فى أوروبا . وقد استسلم الدفاع المجرى فى بلجراد عام ١٥٢١ وقتل ملك المجر لويس الثانى وردت مدفعية العثمانيين جميع جيوشه على أعقابها فى معركة موهاكس Mohacs الحاسمة فى أغسطس ١٥٢٦ ، ونتيجة لهذا فتحت مدينة بودا أبوابها للمنتصر فى الشهر التالى . وتنازع على تاج لويس كل من الامبراطور فرديناند الأول وجون زابوليا أمير ترانسلفانيا . وبين المتنافسين اختار سليمان أن يكون فى جانب الشخصية الأقل شأنا والأسلس قيادا وهى زابوليا . وهكذا استولى سليمان على بودا بنفسه . وفى عام ١٥٢٩ - فيما بعد - وجد نفسه على أبواب فينا فحاصرها فترة قصيرة قبل انسحابه الى عاصمة المجر . وقد كان هذا آخر حدود التوسع التركى فى أواسط أوروبا .

وفى تلك الاثناء كانت قوى العثمانيين البحرية المنظمة فى ازدياد ، وبدأ السلطان سليمان يتدخل مباشرة فى شئون الغرب البحرية والسياسية ، فأرسل سفنا حربية تركية الى مياه بنس لتشتبك مع الأسطول الفرنسى فى تدعيم فرنسيس الأول ملك فرنسا ضد الامبراطور شارل الخامس . وعين قرصانا محنكا من البرابرة هو خير الدين بربارسا أميرالا لبحريته (أى قبودان باشا) فهزم اندريا دوريا أميرال جنوه - وكان على رأس قوة بحرية عظيمة - حينما حاول المسيحيون النزول فى

« الجزائر » عام ١٥٤١ ، وحينئذ تجرأ الأتراك على أن يدعوا الحق في التحكم في البحر الأبيض المتوسط كله علانية مواجهين في ذلك البندقية والفرسان البيض في مالطة وحتى آل هابسبرج (*) . ولكن لم يكن الحظ دائما حليف الأتراك فقد أخفقوا في حروبهم لاختراع مالطة في ١٥٦٥ ، وقد يرجع هذا الاخفاق الى بطولة السيد العظيم جون دي لافاليت النادرة ثم يرجع الى شجاعة فرسان القديس يوحنا . ومن جهة أخرى استسلمت قبرص لسفن تركيا الحربية عام ١٥٧٠ . وفي تلك السنة بلغ التوسع التركي أقصى ما بلغته قوة الأتراك البحرية .

ونشبت معركة لبانتو في السنة التالية وانتهت باخفاق العثمانيين في خليج كورنثيا بين لبانتو وبتراس في ٧ أكتوبر عام ١٥٧١ . وكان الأسطول التركي يتكون من ٢٧٤ سفينة حربية تحمل ٢٥٠٠٠ من الرجال ، ٢٥٠٠ من حرس السلطان تحت القيادة المشتركة من الاميرال (قبودان باشا) على محمد بك وباشاوات نجروونتس ، والاسكندرية وموانئ أخرى . وكان أسطول المسيحيين المتحالف يتكون من ١٠٩ سفينة حربية من البندقية ، ٥٠ من فيليب الثاني ملك اسبانيا ، ٢٩ من جنوه ، ١٣ من البابا بيوس العاشر ، ٣ من فرسان مالطة ، وبذا كان المجموع ٢٠٤ . وكان الدفاع المسيحي تحت قيادة جوان دي كاردونا الأسباني ، وكانت المعركة الرئيسية تحت قيادة دون جوان النمساوي ، وكان الجناح الأيسر تحت قيادة بارباريجو من البندقية والجناح الأيمن تحت قيادة جيان اندريا دوريا من جنوه ، أما دون الفارو دي بازان مركيز سانتا كروز الأسباني ، فقد اتخذ موقفا صلبا في المؤخرة ومعه سفن احتياطية على استعداد لأية طوارئ . وكانت متاعب الأتراك هي البداية فقد استولى العدو على مائة وسبع وسبعين سفينة

(*) ويطلق اسم هابسبرج Hapsburg على العائلة الحاكمة للنمسا (١٢٧٦ - ١٩١٨) ، ولأسبانيا (١٥١٦ - ١٧٠٠) ، وللإمبراطورية الرومانية (١٤٣٨ - ١٨٠٦) . كما يكتب هذا الاسم أحيانا aHbspurg

حربية من سفنهم ، كما أحرقت أو أغرقت خمس عشرة منها • وكان
مجموع من ذبحوا أو غرقوا من الأتراك بين ٢٠.٠٠٠ و ٣٠.٠٠٠ ومنهم
القبودان باشا على • أما خسائر المسيحيين فقد وصلت الى اثنتى عشرة
سفينة حربية ، ٧٥٠٠ من الرجال • وهكذا سلمت مياه البحر الأبيض
المتوسط من السيطرة التركية الشاملة التى كان يمكن أن تقضى على
البندقية نهائيا • وفى الحقيقة ان حصار فينا فى عام ١٥٢٩ عن طريق
البر ومعركة لبانتو فى عام ١٥٧١ عن طريق البحر قد حددت نهاية
مناهضة الأتراك للمصليبية وقمة التوسع العثمانى فى أوروبا •

نظرة الى الماضى

يتضح من العرض السابق أن فكرة الصليبية قد ظهرت فى أشكال متنوعة • وعلى الدارس أن يحترس من أن يفسر معنى الصليبية تفسيراً واحداً من عصر الى عصر • ففي بدايتها كانت الصليبية تسعى الى الايمان • ومن خلاله كانت الانسانية الغربية تسعى الى تحرير مدينة بيت المقدس الدنيوية بالسيف على حين كانت تتمنى سرا الوصول الى مدينة بيت المقدس السماوية • ولقد قبل الناس كلمات السيد المسيح كما ذكرها البشير متى (*) حرفياً بحمل الصليب واتباعه • كان على المسيحي المؤمن أن يتبنى فكرة الحرب المقدسة • وان فكرة الحج الى ما وراء البحر برزت باعتبارها أقصر طريق للخلاص • وصار ذلك الطريق الحلقة الطبيعية بين حياة الناس المادية على الأرض وبين الحياة الأبدية • وهذا الرأى الأساسى فيما يتعلق بالموت والقيامة والدينونة كان يحكم العقول فى العصور الوسطى فى العالم كله مما أدى الى مولد الحرب الصليبية الأولى • وكان أن ارتبط هذان الجيشان فى الحركة بعقيدة جديدة أو تولد ايمان جديد (أو دين جديد) • وحينما صاحب الجنود جيش الله كانوا يؤمنون بأن من يسقط فى المعركة ينال تاج الشهداء وينال درجة عليا فى القدسية والسعادة الأبدية •

وبالرغم من أنه من الخطأ الجسيم أن نهمل العامل الدينى فى تقدم المحاولات الصليبية فى عشرات السنين المتتالية فإنه يتعين علينا أن ندرك أنه بعد الفرصة العظيمة للاستيلاء على بيت المقدس والقبر المقدس عام ١٠٩٩ ، بدأت الحوادث تتخذ مجرى آخر تدريجياً • وحينما انتهت

(*) انجيل متى ١٦ : ٢٤ ، ٢٥ •

ضوضاء الحرب الصليبية الأولى بتكوين مملكة بيت المقدس اللاتينية ثم الوصول الى مرحلة ثانية ، أصبحت الحرب المقدسة خاضعة لتأثير حالات متعددة : سياسية وعسكرية واقتصادية .

وقد تحركت الصليبية من نطاق التقوى الذى لا تشوبها شائبة الى حقائق العالم وحالة من الحرب أصبحت أهدافها الدنيوية تزداد بدرجة ملحوظة . وكانت تلك الظاهرة ذات أثر فى مجرى التاريخ . ويمكننا ملاحظة أن الصليبية التى بدأت وسيلة لتحرير مكان ميلاد المسيح من نير الكفار ولمساعدة المسيحيين الشرقيين ، قد انتهت بمأساة . وذلك بأن دفعت المسلمين الى أن يناهضوا الصليبية فيشنوا على المسيحيين جميعا حربا لا تعرف الهوادة . والحقيقة ، أن استيلاء المسلمين على الأرض المقدسة قد اتسع مجاله حتى شمل تخريب كل ولاية مسيحية فى متناول المسلمين .

كذلك نرى أن حل الفرنجة للمسألة الشرقية فى العصور الوسطى تلاه على الفور حل المسلمين لها فى مظهر مناهضة الصليبية . وهناك فرق حيوى بين الحلين وهو أن الحل الأخير (مناهضة الصليبية) قد برهن على أنه أكثر ثباتا وتحملا فى شئون العالم من الحل السابق له . ويمكن ارجاع فشل المسيحية فى انجاز حل دائم عن طريق الصليبية وانتصار المسلمين المحقق الى أسباب كثيرة . فعدم اتحاد الصفوف كان عاملا رئيسيا فى جلب الكوارث على قادة الصليب وقواتهم . وكان هذا من أعراض تغير اتجاه الحياة السياسية والدينية فى أوروبا المتغيرة . ومن بين النتائج البارزة فى ذلك الوقت تصدع مفهوم حكم العالم بالامبراطورية والبابوية ونهضة ولايات جديدة متجمعة حول شخصيات ملكية لها ادراك متزايد لمعنى الوطنية .

وكانت المشاكل المضاعفة فى الوطن وفى الكنيسة تلفت عقول الرجال عن الصليبية . وبينما كانت انجلترا وفرنسا مشتبكتين فى حروب المائة عام كانت الهيبة الامبراطورية فى هبوط مستمر فى كل من ألمانيا وأوروبا الوسطى ولبارديا .

وقد اتقسمت ايطاليا الى جمهوريات مستقلة على نمط واحد ، وكانت الحروب مشتعلة بصفه دائمة فيما بينها • وكان هدفهم المشترك هو حماية مصالحهم التجارية فى أوربا وفى الخارج دون اهتمام كبير بأسباب دينية • وأظهر أهل البندقية هذا الاتجاه فى كلمة واضحة اتخذوها شعارا وهى « أن على كل مواطن من جمهورية سان مارك أن يكون فينيسيا (أى بندقيا) أولا ثم مسيحيا بعد ذلك » Siamo veneziani, poi Christiani

أما فى شبه جزيرة ايبريا فقد ظهرت ظروف مختلفة كان فيها المواطنون المسيحيون مشغولين باستمرار فى استرداد الحدود التى جناها العرب • وكانت الحروب الصليبية الاسبانية معارك من أجل الحرية الوطنية • وهذا موضوع مستقل يجب أن يترك حتى يعالج فى مكان آخر •

وربما كان ما حدث داخل الكنيسة أكثر خطرا بالنسبة لرجل العصور الوسطى من هذه التطورات الخطيرة ، فان الأسر البابلونية حيث كان الملوك الفرنسيون فى أفينون بجنوب فرنسا يسجنون البابوات لمدة سبعين سنة تقريبا (١٣٠٥ - ١٣٧٨) قد انتهت بالهوة العظيمة الساحقة للكنيسة فى الغرب (١٣٧٨ - ١٤٠٩) • ومن الصعب ادراك تأثير المنظر المؤسف لاثنين أو ثلاثة من البابوات المتنافسين كل منهم يعرض بالآخر فى اجتماع شعبى من أجل خطف التاج البابوى • وبهذا انحدرت هيبة الكنيسة التى كان لها كل التبجيل قبل ذلك فى تفكير العصور الوسطى • ونتيجة لذلك تطورت الحركة المدونة باسم « حركة التوفيق » باعتبارها الوسيلة الوحيدة لاصلاح هذا الفساد • وكان من الطبيعى أن تستحوذ بل تحتكر انتباه كل من الشعب والامارات فى أوربا الغربية • وكان الخروج على المسيحية يكاد يطغى مده : فقد خرج جون ويكليف (١٣٢٤ - ١٣٨٤) فى انجلترا وجون هس (١٣٦٩ - ١٤١٥) فى بوهيميا والتف حولهما الكثيرون • وبين تلك النذر والجولات لم يكن عقل الشعب فى حالة يقبل معها الصليبية •

ولم تضاف الكبرياء وعدم الاخلاص اللذان كانا يميزان بعض الصليبيين شيئا الى عدالة أهدافهم . كما لم تجلب لهم نصرا دائما . وقد كان ما اقترفه اللاتينيون في الاسكندرية وهروبهم عند اقتراب قوات السلطان المسلحة خير شاهد على روح الصليبيين في الفترات الأخيرة . أما أكثر أعضاء تلك الحملة جدية أمثال الملك بيتر الأول ومستشاره فيليب دي ميزير والقاصد الرسولي بيتر توماس ، فلم يسيئوا تفسير الاشارات التي تنذر بالسوء واعترفوا بالذنوب والخطايا التي كان يقترفها جنود الصليب .

وعلاوة على هذا كانت الجمهوريات الايطالية مشغولة بخطط سرية ضد جميع المحاولات الصليبية حتى يكسبوا ود أعداء المسيحيين جميعا وخاصة في العصور الوسطى . اذ أن أية حرب مع المسلمين الذين يتحكمون في جميع الطرق المؤدية الى الشرق كانت تؤدي الى كساد تجارتهم ، وتقضي على مصادر ثروتهم . ولم يكونوا على استعداد للتضحية بمصالحهم المادية من أجل الهدف النبيل تجاه الله . والحرب الصليبية الرابعة مثال حي لطمع كل الجماعات المشتركة في تلك الجريمة العالمية ، اذ أن كلا منها كان يود الحصول على ما تمتلكه الأخرى . وكان جشع في البندقية وهي تسعى الى الحصول على الامتيازات التجارية بأي ثمن لايساويه الا اشتراك جنوه في تجارة العبيد مع المماليك اذ لم تتورع عن ذلك ولا احترمت قرارات البابا الذي كان يحرم تلك التجارة .

وزادت شخصية الفروسية الفرنسية المتعجرفة من المشكلات التي قابلت الأعمال المنظمة الجديدة ضد عدو جبار . وقد أدى هذا الى تدميرهم عند نيكوبولس حينما رفض الفرنسيون مقترحات سيجسموند الحكيمه والبعيدة النظر وتعلقوا بأمل واه في الحصول على شرف الانتصار ذلك اليوم لانفسهم .

وعلاوة على كل ذلك علينا أن نتذكر أن الصليبيين كانوا يحاربون على أرض أجنبية ، وأن أسلحتهم وأساليبهم فى الحرب لم تناسب البيئة الجديدة . كانت دروعهم الحربية الثقيلة تعوق حرية الحركة وتنهك قواهم فى ذلك الجو الحار . على حين برهنت جيادهم الضخمة وخططهم المفاجئة على تفاهتها فى وجه الهجمات التى شنتها فروسية العدو الخفيفة الحركة . وكان المسيحيون يعتقدون أنهم سوف يحاربون جماعات غير منظمة . وكان ذلك الاعتقاد الخاطيء مصدرا لكثير من الأخطاء الكبيرة وسوء الحظ الذى صادفهم . ففى مصر وتركيا أقام السلاطين جيوشا منظمة قوية لعلها كانت الأولى من نوعها فى تاريخ العصور الوسطى . فكانت جيوش المسلمين مكونة من رجال مهنتهم الوحيدة هى الحرب ، وكانوا مدربين على أحسن النظم العسكرية عند المماليك والعثمانيون ، تميزهم الطاعة العمياء واتباع القوانين الصارمة . وقد شتتت فرق المسلمين هذه خليطا للفرسان الغربيين غير المتجانسين الذين كانوا يتبعون خططا قديمة . وكان المسلمون المحاربون مثل الصليبيين يؤمنون بأنهم يمارسون حربا مقدسة من أجل هدف مقدس ضد الكفار المعتدين . وكان اخلاصهم تجاه هذا الهدف على الاجمال يفوق اخلاص المسيحيين . وقد حاول مؤرخو العصور الوسطى فى كثير من المناسبات أن يجدوا الأعذار لمتاعب بنى وطنهم فى تفوق المسلمين فى العدد . ولم تبرهن الصفحات السابقة - كما نحسب - على وجهة النظر هذه . ان المسلمين نالوا النصر لا بالتفوق العددي بل بالحدة الأفضل ، والنظام الأدق ، والقيادة الأعظم ، والأخلاص الأكبر .

ولقد أدى الانهيار النهائى لهدف الصليبية فى الغرب الى آثار عميقة فى مجرى الحوادث فى الشرق ، وتركت مصر للقيام بالقيادة الكاملة للموقف فى الشرق . وأصبحت تركيا قوة أوربية بجانب كونها قوة آسيوية . وكانت مصر قد بدأت سلسلة من الأعمال المناهضة للصليبية عجلت بسقوط الممالك المسيحية القريبة من حدودها . وفى الحال اختفت أرمينيا من الخريطة

كولاية مستقلة وأصبحت ولاية تابعة للمماليك ، واضطر ملوك قبرص الضعفاء من اللوزيجنيين الى أداء جزية سنوية للسلطين فى القاهرة بعد حكم جينس الثانى اللوزيجنى الذى جر الكوارث وراءه . وفى تلك الأثناء كانت قوى العثمانيين قد امتدت امتدادا بعيدا فى قلب جنوب شرق أوروبا . وبعد أدرنه أصبحت بيزنطة عاصمتهم ، وآل عرش قسطنطين الى محمد الثانى « الفاتح » وخلفائه من عام ١٤٥٣ . واستمر الأتراك فى عملية ادماج بقايا الحرس اللاتينى فى المورة وجزر الأرخبيل بنشاط لا يعرف الكلل ولا الملل . وبمجرد أن توحدت انتصارات الامبراطورية الجديدة بدأ السلطين تقدمهم الشمالى فى قلب شرقى أواسط أوروبا حتى أبواب فينا . وأخفق الصليبيون من نيكوبولس فى وقف ذلك التدفق الكاسح فى أولى مراحلہ . وبذا بقيت المسألة الشرقية احدى العوامل الديناميكية فى سياسة أوروبا خلال التاريخ الحديث . وأخيرا حينما سيطر العثمانيون على مصر والأرض المقدسة فى السنوات الأولى من القرن السادس عشر أصبح مصيرهم مرتبطا بنهضة الامبراطورية الاسلامية التى كان يحكمها فى وقت واحد كل من سلطان وخليفة .

وقد استعاد المجندون من أوروبا الغربية ومن جميع القارات - قديمها وحديثها - مدينة بيت المقدس قرب نهاية الحرب العالمية الأولى . وحارب المسلمون والمسيحيون معا فى كلا الجانبين لا من أجل الحصول على الأماكن المقدسة ، ولكن الحرب قامت أصلا من أجل انزال الهزيمة بالأتراك وحلفائهم الألمان وكان التوافق بين ازدهار روح القومية فى قلب عرب الشرق الأدنى الذين طال احتلال أراضيهم وبين قوى الغرب التى حاربت لانقاذ حياتها ضد الخطر الألمانى . واشترك الفريقان فى مطاردة أدت الى تحرير الأرض المقدسة . أما السبب القديم للحرب المقدسة فقد غاب فى قرون النسيان قبل دخول القوات المتحالفة المنتصرة الى بيت المقدس فى ١٠ ديسمبر عام ١٩١٧ .

الفصل الخامس

قصة تجارة العصور الوسطى في الشرق الأدنى

يجب أن ينسب النجاح الذي ناله اقتصاد العالم في العصور الوسطى الى تطور التجارة والتبادل الدولي للبضائع بين الشرق والغرب ، وهذا الاتجاه هو الذي أدى الى زيادة الدخل القومي في بعض المناطق الى درجة لم يسبق لها مثيل . والواقع أن مولد الانقلاب الاقتصادي في العصور الوسطى لم يتم في ظل عصر الاقطاع الزراعي الجامد الذي ساد غرب أوروبا عندئذ ، وإنما تم في الحركة الدائمة للتجارة والصناعة المتوارثة في معظم دول شرق البحر الأبيض المتوسط . وإذا تأملنا خريطة العالم الاقتصادي في العصور الوسطى بصورة عامة ، وجدنا أن هناك ثلاثة أقسام ذات مراحل متعاقبة أدت الى مولد التجارة فيما بين سقوط الامبراطورية الرومانية وفجر التاريخ الحديث . وأول هذه الأقسام هو الامبراطورية البيزنطية التي تسلمت بتفوق على السوق المالية من القرن الخامس الميلادي حتى أواخر القرن السابع . والقسم الثاني هو النشاط العربي خلال أواسط العصور الوسطى من بداية القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادي عشر . أما القسم الثالث فهو ما كان في أواخر العصور الوسطى مرتبطا بنشأة التجارة في جنوب أوروبا وتطور القوة البحرية وكذلك الصناعة في كل من شمال أوروبا وجنوبها . وكل هذه الأقاليم والمراحل - اذا أخذت الترتيب - قدمت لنا مجموعة من الخصائص تحكمت في مجرى حوادث العصر الذي سادت فيه ، ويجدر بنا أن ندرس هذه الخصائص لنعرف أصل التجارة في العصور الوسطى مع اشارة خاصة الى الشرق الأوسط .

فالمرحلة الأولى ، مرحلة انهيار الامبراطورية الرومانية التي أعقبها تدفق الهمج الى الغرب كان لها انعكاسات بعيدة المدى على تقدم التجارة القديمة مع الشرق عبر البحر الأبيض المتوسط . ورغم أنه قد يبدو سوء تقدير للحقائق أن ندعى أن التجارة الدولية التي انتعشت في ظل السلام الروماني قد انقرضت بعد غزوات الهمج فإنه ليس هناك شك في أن تدفق التجارة في سلام عبر البحر قد توقف مؤقتا عند بداية العصور الوسطى . فبمجرد عودة السلام و شيوع الأمن والاستقرار الى حد ما ، استؤنفت المعاملات ولكن بمعدلات منخفضة الى درجة كبيرة . وبمعنى آخر تعرضت التجارة الدولية لضربة كادت تكون قاضية نتيجة لتلك الحروب لكنها لم تنقرض كل الانقراض من غرب أوروبا .

وفي الوقت نفسه كان في استمرار الامبراطورية البيزنطية مجال آخر لبعض الضعف الذي أصاب التجارة الغربية ، وانتقل مركز الثقل من روما الى القسطنطينية . فموقعها الجغرافي الممتاز من حيث امكان الوصول اليها من أى قارات العالم القديم الثلاث سواء عن طريق البر أو البحر الى الشرق الأقصى والأوسط والأدنى ، وكذلك الى شمال وغرب أوروبا . كل ذلك جعل من العاصمة البيزنطية موقعا طبيعيا حيث كان يلتقى التجار من كل البلاد تقريبا . وليس هناك دليل أكبر على انتقال مركز التجارة الى الامبراطورية البيزنطية في العصور الوسطى ، من أن العملة الذهبية الشرقية للدولة الرومانية النوميسما nomisma حلت محل العملة الذهبية الغربية للدولة الرومانية « سليديس » soldius كأساس للتعامل المالى ، وكوسيلة للتبادل التجارى فى أوروبا والشرق .

وتدفقت البضائع من كل مكان الى أسواق القسطنطينية . فقد جاء الحرير والأوانى الصينية (بورسلان) من الصين ، وجاءت الجواهر والتوابل من الهند ، والسجاد من بلاد الفرس ، والآلئ من الخليج الفارسى ، والعاج والأبنوس من افريقيا ، والنسيج والحبوب من مصر ، والزجاج والصلب

من سوريا ، والفراء والعنبر من روسيا ، والمصنوعات الجلدية من مراکش ، وكذلك الأرقاء من كل لون وشكل من كل بقعة من بقاع العالم ؛ كل ذلك تدفق الى المدينة العظيمة سلعا للبيع والتجارة . والى جانب ذلك تطورت صناعات متعددة فى المنطقة حتى أن الفنانين والممتازين من أصحاب الحرف فى البلاد المجاورة وجدوا لهم مكانا فى العاصمة الفنية . وكان المهرة من الصناع يقومون بصناعة العطور ، والملابس المزركشة والمذهبة من البروكار وكذلك ملابس الكهنة والحفر فى العاج وأعمال الموزايكو ، وكذلك قام صناع آخرون بنحت الأحجار وتشكيلها ، وبصنع المجوهرات والطلاء بالمينا فى الذهب والفضة ، وعمل الصلبان وتجليد الكتب وكل أنواع السلع الفاخرة . وتوافر ذلك كله فى القسطنطينية حيث كان يهرع أثرياء العالم للشراء . وزيادة على ذلك كانت الدولة البيزنطية قد وضعت قواعد وقوانين لتنظيم التجارة والصناعة تحمى البائع والمشتري وحقوق الامبراطورية . وقد كان كتاب عنوانه « رئيس المقاطعة » Book of the Prefect فى القرن التاسع يتضمن مجموعة من القوانين الدقيقة التى تنظم أسواق التجارة والحقوق والواجبات الخاصة بالصناع المنتجين والتجار والمقرضين ورجال البنوك . وكانت قوانينه مأخوذة من كتاب عنوانه « كتاب المدير Book of the Intendant والكتاب العربى « كتاب الحسبة » الذى كان مشهورا فيما بعد فى الامبراطورية الاسلامية لتنظيم السوق وحكم الناس . ولم تتصف التنظيمات البيزنطية دائما بقواعد الاتزان والعدالة ، ورغم ذلك فان سياسة التجارة الامبراطورية التى انتهجت أسلوب الاغتصاب لم تكن تشكل عائقا كبيرا للتجارة ، واستمرت القسطنطينية المدينة الأولى فى العالم المسيحى وندا لبغداد والقاهرة فى الامبراطورية الاسلامية خلال تلك الفترة .

أما فى غرب أوروبا فقد أدى ثبات مركز الدول الجديدة منها الى تثبيت نظام اجتماعى جديد يعتمد على تملك الأراضي الزراعية . ومع أن التجارة لم تكن محرمة الا أن السلطات الدينية فى عصر الايمان اعترضت عليها

باعتبارها صورة أخرى للربا الفاحش . واقتصرت المعاملات التجارية المحلية فى غرب أوروبا على نظام المقايضة البدائى فى السلع الضرورية ، ولم يكن للنقود مكان هام ان لم ينعدم فى هذه المعاملات نتيجة لندرتها الشديدة . وطوال عهد الميروفيجيين والكارولينجيين تضاعفت التجارة الدولية الى حد أكثر من التجارة الداخلية اذ اقتصرت على المقايضة على بعض السلع الشرقية الخفيفة التى كان يجلبها الى الغرب بعض أفراد من السوريين واليهود . وكان للسوريين - وهم سلالة الفينيقيين القدامى - مهارة بحرية عظيمة ، وكانت التجارة مهنتهم الأساسية من قديم الزمان . أما اليهود - الذين كانوا دائماً محرومين من تملك الأراضى الزراعية - فقد تشبثوا بين كل أمم الشرق والغرب ولاعهم عمل التجارة والتعامل المصرفى من دولة الى أخرى . وفى اللغة اللاتينية فى العصور الوسطى أصبح التعبير « تاجر » مرادفاً لكلمة « يهودى » .

ومع ذلك فمن الخطأ أن نبالغ فى تقدير الدور الذى لعبه التجار فى هذا المجتمع المبكر فى العصور الوسطى . فالأسواق كانت قليلة بعيداً بعضها عن بعض ، ولم يكن الأفراد ذو القدرة الشرائية الحقيقية الا أقلية فى غرب أوروبا . وكادت المدن الرومانية تختفى وتحل محلها قرى زراعية صغيرة واقطاعات . وكان هناك طرق شقها الرومان قديماً ساعدت سائقى المركبات من الرومان وكذلك الكتائب الرومانية على الانتقال بسرعة بين حدود الامبراطورية من طرف الى طرف . ولكن هذه الطرق كانت قد اندثرت ولم يبق منها سوى ما لا تكاد تصلح الا لسير الحيوانات كالبغال والخيول بأحمالها المحدودة ، أما الجسور فقد ساءت حالتها وأصابها الانهيار . وكان السفر محفوفاً بالمخاطر وكانت الغابات مملأً باللصوص . وإلى جانب كل هذه المصاعب كانت الاستثمارات تتضاءل نتيجة للقيود المالية فى تلك الفترة منذ اختفت العملة الذهبية الرومانية وحلت محلها العملة الفضية التى سكها الكارولينجيون بكميات محدودة . أما انتعاش الحياة فى المدينة وكذلك انتعاش الصناعة والتجارة فى أوروبا فقد تم فى عصور متأخرة بعد ذلك العصر .

والمرحلة الثانية من قصة التجارة فى العصور الوسطى ترتبط بغزو العرب لشواطئ الشرق فى آسيا ، وكذلك سواحل شمال افريقيا فى القرن السابع . وقد شهد القرن الثامن امتداد السيطرة العربية عبر الساحل الغربى للبحر التيرانى بما لهذا الامتداد من آثار خطيرة على تجارة البحر الأبيض المتوسط . فقد احتل اسبانيا فى عام ١٧١١ طارق ابن زياد الذى خلد اسمه بجبل طارق بعد أن هزم رودرك الفيسيفوئى . وفى القرن الثامن أيضا زاد العرب من غاراتهم على جزر البحر الأبيض المتوسط الشرقية والغربية . فمنذ ٦٤٨ - ٦٥٢ بدأنا نسمع بغزو قبرص ورودس واحتلالهما . وفى ٧١٧ - ٧١٨ احتل المسلمون السورويون جزيرة رودس ثم خضعت قبرص واستسلمت لهم بعد ذلك فى منتصف القرن نفسه ؛ واحتل الأمويون الذين كانوا يحكمون اسبانيا جزر بليار عام ٧٩٨ . أما كورسيكا وسردينيا اللتان قاومتا الجنود المسلمين فقد احتلها أخيرا الأغالبة Aghlabids فى عام ٨٠٩ . وكان الاقتصار الاستراتيجى على صقلية بطيئا برغم اتصال العمليات الحربية منذ ٨٢٧ الى ٩٠٢ تقريبا حين أخضع الأغالبة كل الجزيرة عدا قلعة واحدة هى Tabrmina ومن قواعد صقلية قامت القوات الاسلامية بغارات متقطعة على ايطاليا . وفى عامى ٨٦٨ ، ٨٧٢ هاجمت جايتا وسالرنو على التوالى . وكذلك اقتحمت بلاد وسط ايطاليا وأغارت عليها حتى حدود روما نفسها وكان على البابا جون الثامن (٨٧٢ - ٨٨٢) أن يشتري سلام حدوده المهددة بأن يدفع ٢٥٠٠٠ قطعة فضية (١) للعدو . ومع ذلك فان بيزا - التى تقع فى الشمال تعرضت للاغارة خلال عام ٩٣٥ واستطاعت قواعد المسلمين القوية فى بارى (٢) ، وتارنم (٣) أن تمنع الحركة البحرية الى خارج بحر الأدرياتيك .

-
- (١) استخدمت عملة اسمها مانكوى Mancusi غير معلومة القيمة ، ولكنها نقلت الى انجلترا وقدرت فيما بعد بما يساوى ٦ شلنات .
(٢) مدينة فى جنوب شرق ايطاليا .
(٣) تعرف الآن باسم ترنتو فى جنوب شرق ايطاليا وسمى خليج ترنتو نسبة لها .

وهكذا أصبح البحر الأبيض المتوسط كله بحيرة عربية مغلقة في وجه السفن المسيحية لكل الأغراض العملية ، ولكنها كانت مفتوحة للتجارة لكل البلاد التي تخضع لحكم العرب ، وكذلك كان لذلك آثار متأرجحة في مجال الاقتصاد والصناعة العربية . فان الامتداد الهائل للامبراطورية العربية من سمرقند في بلاد التركستان و لاهور في وادي نهر السند [في شمال غرب الهند] من جهة والأطلسى واسبانيا من جهة أخرى أدى الى ازدياد القوة التجارية بدرجة كبيرة . وكان المسلمون بعكس المسيحيين في غرب أوربا يقدرّون التجارة ويضعونها في مرتبة عليّة . بل لقد ورد في الآثار الاسلامية (١) أن الله يبارك للمؤمن في ثلاث ، الزراعة وتربية الأغنام والتجارة كلها على حد سواء ، وليس ثمة شك أن التجار العرب ذهبوا الى القسطنطينية وشاهدوا عظمة ثروتها التجارية المذهلة ؛ وكان من الطبيعي أن يبحثوا لأنفسهم عن نصيب من هذه التجارة العظيمة . وبمرور الوقت أخذت المدن الاسلامية مثل بغداد والقاهرة وقرطبة تحتل تدريجيا مكانة القسطنطينية . وكانت الطرق الرئيسية للتجارة من الشرق برا وبحرا ؛ اما أن تنتهي أو تمر عبر أراض خاضعة للحكم العربى . فقد كانت السفن المحملة بالسلع الفنية من الهند ترسو على الشواطئ العربية في الخليج الفارسى والبحر الأحمر على حين كانت القوافل من آلاف الأبل تعبر قارة آسيا من الصين الى الحدود الشاسعة للامبراطورية العربية . وكانت الحدود العربية تلامس بحر قزوين والبحر الأسود اللذين كانا يفتحان الطريق الى شمال روسيا وغربها وشرقى وسط أوربا . وقبل نهاية القرن السابع سك العرب عملتهم وظهر الدينار (٢) الذهبى والدرهم (٣) الفضى لينافسا العملة

(١) ترجمت هذه العبارة بتصريف من المراجع .
(٢) الكلمة (دينار) مشتقة من اللفظ الرومانى «دنايوس» والذي كان يساوى ٧٢/١ من الجنية الفضى . وظل ذلك حتى حكم نيرى وبعدها تغيرت قيمته . أما الدينار العربى فهو عملة ذهبية لها نفس وزن الدرهم من الفضة أى ٣١١ جم ويساوى حوالى ٤٧٥ دولار .
(٣) (الدرهم) تحريف الكلمة اليونانية « الدراخما » ويزن ٣١١ جم ويساوى حوالى ٨ سنت .

البيزنطية « النومسما » فى المعاملات الدولية • وكان الخلفاء يكرمون التجار فوضعوا من أجلهم قواعد الأمن المشددة على الطريق ليضمنوا سير التجارة فى طمأنينة وسلام •

ومن القرن التاسع بدأت الأعمال التجارية فى العالم تتجه الى مركز الامبراطورية العربية فنتج عن ذلك ثراء واضح لم يكن يخطر على العقل لكل من التاجر والدولة • وفى القرن العاشر سجل المؤرخون أرقاما خيالية تمثل الثروة والتقدم فى بلاد الخلافة وشرقها وغربها فقد قدر دخل التجارة فى مدن حلب ودمشق وبيت المقدس فى سوريا فى عام ٩٠٨ بما يقرب من ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار ذهب ، أى ما يعادل ٩٥٠٠٠٠٠ دولار ذهب ، دون أن تتأثر باتجاهات التضخم التى نعرفها فى العصر الحديث ، ويجب ألا ننسى القوة الشرائية (*) العالية للنقود فى ذلك الوقت • وفى مصر استطاع الحاكم من أسرة ابن طولون أن يجمع قدرا مماثلا من ضرائب تبادل التجارة فى نفس الوقت تقريبا • وكلما اتجهنا غربا وصل الثراء الى درجة خيالية فى الأندلس حيث يؤكد الرحالة ابن حوقل (٩٧٥) ان الخلافة الأموية فى قرطبة تحت حكم عبد الرحمن الثالث استطاعت أن تحقق دخلا يساوى ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار ذهب (حوالى ٩٥٠٠٠٠٠٠ دولار ذهب فى العصر الحديث) من تجارة الذهب السودانى الذى كانت القوافل تحمله الى سيجلماسا والى مراکش فى الفترة من ٩١٢ الى ٩٥١ ويقول المؤلف نفسه أنه بينما كان فى واحة مدينة انداجوشيت التى تقع على مسافة رحلة ١٤ يوما شمال غانا فى القارة الافريقية السوداء - رأى المؤلف شيكا (وهى الكلمة العربية صك) بمبلغ ٤٢٠٠٠ دينار محولا الى تاجر من سيجلماسا •

ولتقدير مدى توسع التجارة الاسلامية يكفى أن نتبع انتصارات

(*) من الصعب تقدير القوة الشرائية للنقود فى العصور الوسطى اذ أنها كانت تتوقف على درجة نقاء المعدن المستخدم وكذلك بالنسبة للتضخم المالى •

الدينار العربى كوسيلة للتعامل فى تداوله عبر العالم فى العصور الوسطى . وقد كشفت بعض الحفريات الحديثة فى مناطق كثيرة عن وجود كميات هائلة من العملات العربية فى روسيا وفنلندا ، والبلاد الاسكندنافية والبلقان ، بل ان هناك أمثلة متفرقة وجدت فى مناطق بعيدة مثل بريطانيا وايسلندا . وكانت غالبية العملة تحمل تاريخا يقع فى الفترة ما بين نهاية القرن السابع الى القرن الحادى عشر . وهناك العملة الذهبية التى سبكها أفا Offa ملك ميرشيا Mercia (*) (٧٥٧ - ٧٩٦) وكانت تحمل اسمه (الملك أفا) Offa Rex محفورا من اليمين الى اليسار على حسب الكتابة العربية فى جهة وتحمل حفرا عربيا على الناحية الأخرى ، وهذه العملة تقليد واضح للدينار العربى مما يدل على نفوذ العرب فى التجارة والاقتصاد فى ذلك العصر .

واستمر تقدم العرب بلا منازع حتى دخول النورمانديين الى ايطاليا والبحر الأبيض المتوسط فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر ، وكذلك حتى نشوب الحرب الصليبية الأولى عام ١٠٩٦ التى بدأت المرحلة الثالثة فى تاريخ التجارة . وقد كان النورمانديون مجموعة من الحجاج عملوا جنودا مرتزقة تحت قيادة قائد بيزنطى اسمه جورج مانياكس فى الحرب ضد المسلمين ، ثم نزلوا أخيرا الى جنوب ايطاليا كقراصنة وقرروا اقامة مملكة منتهزين فرصة الفوضى السائدة عندئذ . ثم أسروا البابا ليو التاسع عام ١٠٥٣ ، وخدموا تحت أمرة بابا آخر هو نيكولاس الثانى فى عام ١٠٥٩ ، كما أنقذوا جريجورى السابع من روما عندما هاجم المدينة مجموعة مماثلة من الرحل عام ١٠٨٤ .

وهناك اسمان ظاهران معروفان لشقيقين من النورمانديين فى هذه الفترة وهما روبرت جويسكارد (١٠٥٧ - ١٠٨٥) دون أبوليا وروجر

(*) قامت هذه الدولة فى وسط انجلترا وكانت ملكة انجلوسكسونية (المترجم) .

الأول فى صقلية (١٠٦١ - ١١٠١) فبينما ركز الأول جهده فى استئصال كل من النفوذ البيزنطى والاسلامى من جنوب ايطاليا ، كرس الثانى نفسه ليحل محل الأمير العربى فى صقلية ، وكذلك بدأت قصة المملكة الجديدة . فاستيلاء روبرت على بارى عام ١٠٧١ أكد حكمه فى جميع البقاع فى أبوليا ؛ وفى العام التالى احتل روجر الجزيرة كلها بمساعدة أخيه بالرمو فى صقلية وتم اخضاعها عام ١٠٩١ . وكان ذلك دلالة على عودة المسيحية بالتدريج الى حوض البحر الأبيض المتوسط ، واستمرت صقلية طريقا للتجارة الاسلامية والمسيحية . وفى الوقت نفسه أغار الصليبيون فى الحرب الصليبية الأولى لفتح الطريق الى الشرق وأسهم النورماندون اسهاما كبيرا فى قيادة حركة الحرب المقدسة وكان بوهمند ابن روبرت جويسكارد وأخوه روجر مع تانكرد وآخرون من بين الأوائل الذين اسهموا فى الهدف الجديد .

وبهذه الحوادث الطارئة تأثر مجرى التجارة فى العصور الوسطى تأثيرا كبيرا لا يمكن تقديره . فقد كان ذلك علامة على عودة انتعاش تجارة أوروبا مع الشرق ووصل نموها التدريجى أخيرا الى درجة لا مثيل لها فى التاريخ الأوروبى . اذ امتدت واتسعت وتوغلت أساطيل البندقية وجنوه والوحدات التجارية الأخرى والمدن التجارية فى ايطاليا وجنوب البحر الأبيض المتوسط حتى تفى بالحاجات الملحة لنقل الأعداد المتزايدة للصليبيين من أوروبا . وفى الوقت نفسه جاء استئناف التجارة مع الشرق نتيجة طبيعية للحروب الصليبية لأن التجار الأوربيين كانوا اما أن يصاحبوا البعثات المختلفة واما أن يتبعوها ويفتتحوا أسواقا جديدة فى كل ميناء يتم فتحه فى الشرق .

وبرغم أن الاتصال المباشر بين الشرق والغرب بدأ عن طريق الحرب فانه كان مقدرا له أن يخضع لطريق السلام فى مجالى التجارة والثقافة . فقد تم اخضاع القراصنة العرب أو على الأقل أوقفت هجماتهم عندما استعبدت جزائر ساردينيا عام ١٠٢٢ وكورسيكا عام ١٠٩١ وصقلية

فى ١٠٥٨ - ١٠٩٠ ، وكانت هذه تستخدم كقواعد وخلايا مريجة لسفن الرحالة المسلمين من شمال افريقيا واسبانيا .

كل ذلك أدى الى ازدهار بعيد المدى فى المدن التجارية ، كما أدى الى نهضة المجتمعات فى جنوب أوروبا ، وكذلك الى اقامة اتحادات تجارية فى الشمال لتوزيع السلع عبر أوروبا . وكانت البندقية وجنوه وبيزا على رأس هذه المدن فى شمال ايطاليا . أما اتحاد ميلانو الذى ضم مدن سهل لمبارديا الأخرى مثل برجامو ، وبرشه ، وكريما ، فقد قام أساسا لمعارضة الامبراطور فردريك بربارت ولكنه لعب دورا اقتصاديا فى النهضة التجارية . وفى جنوب ايطاليا انتعشت نابولى ، وسالرنو ، وأمالفى ، وبارى على حين اكتسبت بالرمو فى جزيرة صقلية موقعا يارز الأهمية . وفى فرنسا بلغت مرسيليا ، ومونبيلية وناربون مبلغ الشهرة فى تاريخ متأخر وكذلك برشلونة ، وكतालوفيا فى شمال اسبانيا .

وفى الداخل تكون اتحاد الهانسيك (*) لنهضة التجارة ، فقد أنشأت لوبك وهامبورج اتحاد التجارة الألمانى (ويسمى أحيانا البلطيقى) فى القرن الثالث عشر ، وسرعان ما انضم اليه بريمن وكولن ودورتموند ، ودانزج البعيدة ، ووصل الذروة فى أهميته السياسية والاقتصادية قرب نهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر . وكان يمتلك عدة مراكز تجارية ومصانع عديدة فى المدن الهامة فى أوروبا ، وخاصة فى بروجز [فى شمال غرب بلجيكا] ، لندن ، وبرجن [فى جنوب غرب النرويج] ، وفوفجورد [كانت عاصمة سابقة لروسيا] . وقد تخصص اتحاد الفلمنكيين فى لندن تحت رئاسة بروجز فى تسويق البضائع الانجليزية وتوزيعها ؛ وكانت المدن المشتركة فيه أساسا هى بروجز ، وانتورب [مقاطعة فى شمال بلجيكا] ، وكاليه ، ودوردريخت [فى جنوب هولنده] - ومن الأمثلة الأخرى اتحاد صرابيا واتحاد الراين اللذين كان نشاطهما اقتصاديا أكثر منه سياسيا بعكس الاتحاد البلطيقى .

(*) اسم نقابة التجار فى العصور الوسطى .

ولكن كل هذه الاتحادات التجارية كانت تعتمد بضائعها الشرقية أساسا على البندقية وجنوه . وبينما خصصت البندقية أسطولها التجارى للتعامل مع المركز التجارى فى سوريا ومصر فى الشرق ، احتكرت جنوا المعاملات مع شمال افريقيا والبحر الأسود حيث كانت حكومة جنوا [الكوميون] تمتلك مستعمرات هامة فى كافا Caffa فى القرم ، وتانا على شاطئ بحر آزوف [المتصل بالبحر الأسود] .

واحتلت قبرص كذلك مركزا بالغ الأهمية فى ظل الملوك اللاتين من أسرة اللوزجنيين فأصبحت فاما جوستا تضارع أغنى مدن حوض البحر الأبيض المتوسط وأكثرها رخاء . ويمدنا ليونتوس مكاريوس مؤرخ قبرص فى القرن الرابع عشر ، بأمنلة على عظمة الثروة التى جمعها التجار فى تلك الجزيرة من التجارة الدولية . ويدل الرسم البيانى لثروة أخوين نسطورين هما : سير فرانسيس ، وسير نيكولاس ، فى عهد بيتر الأول اللوزجنى (١٣٥٩ - ١٣٦٩) على عظمة ثرائهما « والثروة التى كانت لديهما تفوق قدرتى على الوصف لان سفن التجار المسيحيين التى جاءت من الغرب لم تكن لتجرؤ على القيام بمعاملاتها التجارية الا فى قبرص » كما كانت كل التجارة من سوريا تتم فى قبرص . وازدحمت الموانئ القبرصية بالسفن من البندقية ، وجنوه ، وفلورنس ، وبيزا ، وكاتالونيا وكل البلاد الغربية ، حيث كانت تحمل بالتوابل وكل السلع للأسواق الأوروبية . وقد شيد سير فرانسيس كنيسة نسطورية فى فاما جوستا من ماله الخاص . وفى يوم واحد ومن صفقة واحدة استطاع ان يكسب ٣٠٠٠٠ قطعة ذهبية أرسل منها ١٠٠٠٠ قطعة هدية للملك بيتر الأول . واستطاع تاجر آخر من الجزيرة هو ستيفند اللوزجنى فى رحلة واحدة مع ثلاث سفن من سوريا الى قبرص أن يحقق ربحا هائلا يستطيع بثلاث هذا الربح أن يبنى مثل كنيسة القديس بيتر والقديس بول فى فاما جوستا . وكان ثراء قبرص سببا فى أن تصبح فى النهاية فريسة لا للمسلمين فحسب ، أولئك الذين اعتقلوا الملك جينيس الثانى فى موقعة

كيروكيتيا عام ١٤٢٦ ، بل كذلك للمسيحيين الذين حسدوا قبرص على ثراء أسواقها • وفى البداية احتل أهل جنوا فاما جوستا عام ١٣٨٣ ثم تبعهم أهل البندقية الذين ضموا الجزيرة كلها اليهم عام ١٤٨٩ •

وظلت الامبراطورية اليونانية فى القسطنطينية وتربيزند [تسمى اليوم طرابيزون] ، والمدن الأرمنية فى آسيا الصغرى ثغورا بحرية هامة تأوى اليها سفن العالم المسيحى الغربى الى أن فقدت استقلالها • وساعدت نقائص الحرب الصليبية الرابعة التى انتهت بانهيار الامبراطورية البيزنطية عام ١٢٠٤ على الاسراع فى تبادل التجارة الأوربية مع المدن الرئيسية اللاتينية الجديدة فى بحر ايجه ، واقترح محبو الدعاية مثل مارينو سانودو الأكبر فرض حصار بحرى على الشواطئ المصرية والسورية لخنق تجارة الممالك مع الغرب ولتحويل مجراها الى المراكز الأوربية السابقة • لكن المشروع فشل فشلا ذريعا لأن البابا الذى بارك المشروع وهدد من يعارضه بالطرد من الكنيسة عاد وأصدر عفوا برفع الحظر على تجارة البندقية مع مصر •

ولا ترجع سرعة انهيار التجارة فى البحر الأبيض المتوسط الى مشروعات الدعاية أو قرارات البابا ولكنها ترجع الى أسباب أعمق وظروف تاريخية مرت بالعالم • والغريب فى الأمر أنه برغم اختفاء مملكة بيت المقدس اللاتينية من الأراضى المقدسة فى ١٢٩١ - ١٢٩٢ ، والغارات المسيحية المتعاقبة على البلاد الاسلامية مثل الهجوم على الاسكندرية عام ١٣٦٥ والغارة على المهديّة عام ١٣٩٠ ، فإن التجارة الأوربية مع الشرق استقرت وانتعشت طوال القرن الرابع عشر وفترة مديدة من القرن الخامس عشر • ولم يحدث التغيير فى مجرى تجارة البحر الأبيض المتوسط وانحرافه عن مصر وسوريا الا فى تاريخ متأخر •

الطرق والنقل

كثيرا ما كانت حضارة الرومان تقاس بعظمة طرقهم التى رصفت بالحجر ، وربطت بين جميع أجزاء الامبراطورية الهامة والاستراتيجية ، وكانت الطرق دائما موضع دعاية وعناية حتى تظل فى حالة جيدة . وكان هناك الجسور عبر الأنهار لضمان الاتصال السريع المستمر عسكريا أو مدنيا . فاذا قسنا طرق العصور الوسطى على هذا المستوى القديم فان العالم فى العصور الوسطى وخاصة أوروبا كان يعاني نقصا خطيرا . فعندما قامت ممالك الهمج الجديدة انهارت الطرق الرومانية ووصلت الى حالة يرتى لها من التدهور . فقد انحدرت الطرق فى العصور الوسطى الى أن أصبحت مجرد ممشى للخيول مغطاة اما بالتراب أو بالطين وملأى بالعوائق، تحف بها الأخطار من الحيوانات المفترسة أو من قطاع الطرق ، وقد كان التاجر فى العصور الوسطى يسمى « ذا القدم المترب » ، لأنه كان يقوم برحلاته عادة فى فصل الصيف وما فيه من أتربة ليتجنب قسوة الشتاء . وحتى طرق القوافل التى كانت عبر آسيا وافريقيا كانت أفضل من الطرق الأوروبية . ففي الشرق ، كان الجمل سفينة الصحراء ، وكانت الخيل تستخدم فى السفر وفى نقل البريد . أما فى الغرب فكان استخدام البغال والخيول والعربة ذات العجلتين هو طريق نقل التجارة . وكان استعمال المركبات ذات الأربع عجلات مقصورا على المدن فى المقاطعات الزراعية الواسعة لقطع مسافات قصيرة فى شوارع ممهدة . وفوق ذلك فان تكاليف استعمال المركبة كان يعادل الربح الذى ينتج من ثلاثة فدادين زراعية الى خمسة ، وكان البغل يحمل من ٣٠٠ الى ٤٠٠ رطل ويقطع مسافة من ١٥ الى ٢٥ ميلا فى اليوم . وكانت تكاليف وسائل المواصلات هذه تبلغ الضعف أو أكثر باضافة الضرائب المحلية . ومثال

ذلك ضريبة الملح التى فرضها اقطاعيو الأرض عند كل نقطة من الطرق من ولاية الى أخرى . وكانت الطرق الرئيسية فى أوروبا فى العصور الوسطى محصورة بين المدن التجارية الكبرى والأماكن الشهيرة بأسواقها ومعارضها مثل سانت دنييس بالقرب من باريس ، بروجز ، يبرز ، ليل فى بلاد الفلاندر ، لاجنى وبارسير أوب فى شانيانى [احدى مقاطعات شمال شرق فرنسا] ، سانت أبول فى بروفنس ، ومثيلاتها .

والحركة الدولية للتجارة فى العصور الوسطى ، تلك التى كانت مستحيلة حتى نهاية القرن العاشر ، بدأت متواضعة فى القرن الحادى عشر وانتشرت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر نتيجة للتسهيلات التى قدمتها الحانات والاصطبلات على طول الطريق . وأهم من ذلك بناء الكبارى عبر المسائل المائية . وفى أواخر العصور الوسطى ظهرت مجموعة الرهبان فى نظام جديد اسمه «إخوان الكبارى» Order of Bridge Brothers وكان عهدهم يتضمن الحفاظ على هذه الوسائل الحيوية للمواصلات وصيانتها فى حالة جيدة من أجل الاستخدام العام . ومن الكبارى التى اشتهرت فى العصور الوسطى ما كان فى لندن على نهر التيمس ، وفى باريس ورون على نهر السين ، وفى أفينيون على نهر الرون ، وفى ماسترخت ، ولييج ، وهى (Huy) ونامور، ودينانت على نهر موز Meuse . وعبر جبال الألب كان هناك ممرات مونت سيني ، ممر برنر [بين ايطاليا والنمسا] ، سستمر ، سان برنارد . واستمر استعمالها حتى افتتاح سانت جوثارد بجسره المعلق الذى ربط بين سهول لومباردى والطرق الجبلية فى الشمال والتى حددت بوديان فى منابع الدانوب والرين فى القرن الثالث عشر . وكان التاجر الترى يسافر فى حراسة المرتزقة ، على حين كان صغار التجار يسافرون فى صحبة جماعة يماثلونهم حتى يستطيعوا جميعا الدفاع عن أنفسهم . وكانت الطرق النهرية عادة مفضلة فى حالة نقل البضائع الثقيلة الوزن ، برغم أن السفن لم تكن لتعفى من ضريبة الطريق المتكررة . فقد كان هناك ٦٤ محطة ضرائب على طول

نهر الراين ، ٧٤ على نهر اللوار ، ٣٥ على نهر الب [يمر فى بوهيميا
وألمانيا] و٧٧ على نهر الدانوب .

وكانت محطات الأنهار أقل عددا وتكلفة من مئآت المحطات البرية
التي كانت تجنى منها ضرائب المرور ولكنها على خفض ضرائبها كانت
كافية للتأثير فى رفع الأسعار . فقد كان نقل النبيذ بالسفينة من بيزا
الى فلورنس وهى نحو ٥٠ ميلا يعادل خمسين فى المائة من سعره الأصيل ،
أما الملح فقد وصلت تكاليف نقله الى ٦٠ ٪ من سعره الأصيل .

وكانت تجارة الشرق تنقل بواسطة القوافل عبر الطرق التقليدية فى
وسط آسيا الى المدن الرئيسية على حدود أوروبا والشرق الأدنى . وكانت
سمرقند ، وتبريز ، وبغداد من بين هذه المحطات . أما نوفجورد ، كييف ،
كافا ، فقد كانت من الأسواق الشهيرة ، على حين كانت حلب ودمشق
وعكا من المراكز الهامة للتجارة السورية ، وكانت دمياط ورشيد
والاسكندرية خاصة من المدن التى يرتادها التجار الغربيون فى حرية
لا تحدها قيود .

أما التجارة الهندية فقد كان من المعتاد أن تنقل بالسفن الى الخليج
العربى وعلى طول دجلة الى بغداد أو الموصل ، ومن هناك كانت القوافل
تحمّلها الى أسواق حلب ودمشق والمدن الأخرى على الساحل السورى .
وكان ساحل البحر الأحمر طريقا ممتدا حتى ايدهاب والقصير ، بل الى
أبعد من ذلك عند شمال القلزم وهى المعروفة قديما باسم عيذاب Clysma
عند رأس خليج السويس ، حيث تنتهى قناة السويس الحالية . ومن
ايدهاب والقصير كانت قوافل الجمال والبغال تحمل البضائع عبر
الصحراء العربية [الصحراء الشرقية] الى مدينة قوص على النيل فى
مصر العليا ، ومن هناك كانت تنقل أسفل النهر الى القاهرة والاسكندرية .
ومن القلزم كانت البضائع تنقل برا الى القاهرة ومن هناك على طول

النهر الى الاسكندرية ورشيد ودمياط . وكانت طرق النقل الداخلية مقصورة على المواطنين . ولم يكن يسمح للتجار الأجانب بالتوغل داخل حدود المراكز النهائية لمدن الأسواق التي كانت غالبا تقع على الشاطئ .

وكانت السفن عادة تبحر في مجموعات تصحبها سفن حربية لحراستها والدفاع عنها في وقت كانت القرصنة فيه تمارس تحت تسنر الدول والجماعات المتنافسة . وقد تعلم البحارة في العصور الوسطى عن طريق التجربة أن أنسب الفصول للرحلات شرقا في البحر المتوسط هو ابريل ويونيو ، أما الرحلة غربا فكان أفضل وقت لها شهر أغسطس أو سبتمبر وأكتوبر ، وقلما كانت تتم رحلات في الشتاء . وتقدمت صناعة السفن في العصور الوسطى الى حد كبير . فقد كان هناك سفن سعتها من ٥٠٠ الى ٨٠٠ طن ، وكانت تحمل طاقما من ٨٠٠ بحار وراكب الى ١٠٠٠ بخلاف البضائع . والى جانب السفن الشراعية ، كان هناك سفن تسير بالمجاديف التي يقوم عليها عبيد مغللون بالسلاسل في أسفل السفينة . وبرغم أن البوصلة البحرية كانت معروفة في أوروبا من بداية القرن الثالث عشر فانها لم تستعمل في الملاحة الا في القرن الخامس عشر عندما ضرب البحارة العرب المنل باستعمالها .

ولم يكن تقدم الملاحة والملاحين في أواخر العصور الوسطى ليمنع أخطار العواصف ولا مخاوف القرصنة . ومع أن النقل بحرا كان أرخص من النقل البري فان تكاليفه ظلت باهظة . فيقال ان الجيوب التي كانت تنقل من أرمينيا الى ايطاليا عن طريق البحر كانت تكلف أكثر من ١٦٠٪ من قيمتها الصافية . وكان من المستحسن أن يخصص النقل البحري للبضائع ذات القيمة العالية والوزن المعقول .

الموالد والأسواق

وجدت التجارة الدولية فى العصور الوسطى مخرجاً لها فى المدن التجارية الكبرى وخاصة فى الأسواق (الموالد) التى انتشرت فى العصور الوسطى . وكان أشهر هذه الموالد (الأسواق) فى شانيانى وهى مقاطعة لها مركز جغرافى ممتاز لتبادل التجارة بين عدد كبير من دول أوروبا . وكان موقعها بين فرنسا والفلاندرز من جهة ، وسهولة الوصول إليها من لومباردى عن طريق ممرات سان برنارد ، ومونت سينى من جهة أخرى يجعلها الملتقى الطبيعى للتجار من كل هذه البلاد ، بل أن موقعها المركزى داخل فرنسا سهل الوصول إليها من كل مقاطعات فرنسا الشمالية والجنوبية . وكانت حدودها الغربية ملامسة لباريس . ولذلك كانت شانيانى نموذجاً مثالياً للدور الذى قدر لها أن تلعبه فى مزج التجارة عند مفترق الطرق فى غرب أوروبا .

وكان نبلاؤها على علم تام بإمكانيات المنطقة ، وشجعوا كل الأنشطة التجارية فيها تحت إدارتهم ، ولذلك فتحو أسواقهم دورياً على طول السنة . اذ كانت موالد وأسواق لاجنى ، بار ، بروفنس ، تروا ، تعقد مرة كل سنة أسابيع أو سبعة فى أيام أعياد الميلاد وأعياد الفصح وفى مايو ويونيو على التوالى

وكانت الموالد تعقد خاصة لتجارة الجملة . وكانت المخازن والقاعات الكبيرة تخصص للتجار وعملاء النبلاء الذين كانوا يقيدون بالتفصيل دخل التجار ليضمنوا الضرائب دون ظلم أو اجحاف ، وكانت السوق تفتح أبوابها وتغلقها خلال ساعات محددة تعلن بدق الأجراس فى مواقيتها . وكان ممثلو النبيل وحراسه يحفظون الأمن وينفذون التعليمات . وكان هناك محكمة خاصة للنظر فى النزاع الذى قد ينشأ ولعاقبة من يخرق القوانين . وكان هناك عدد محدد من الأيام يخصص للعرض والبيع ، وكانت العمليات التمهيدية تتم بموجب صكوك يتم تبادلها عند نهاية الموسم فى بنك حسابات السوق ، وهى سوق أوراق مالية حقيقية .

وفى هذه الأسواق كان المشترون من جميع أنحاء العالم يجدون الصوف من مناسج ايطاليا والفلمنكيين ، والكثان والنبيلد الفاخر من فرنسا ، والبضائع الجلدية من المانيا ، والحديد من صقلية واسبانيا ، والتوابل والحرائر والسجاد من الشرق ، والذهب والفضة من افريقيا ، وحجر الشبة من آسيا الصغرى .

وخارج شانيانى بالقرب من باريس كانت هناك سوق لندييت فى سان دينيس افتتحها موكب من طلبة الحى اللاتينى فى جامعة باريس لشراء بعض أدواتهم الدراسية السنوية . وفى منطقته أخرى من فرنسا كانت هناك سوق بوكير بجوار مرسيليا ، وسوق أخرى فى آكس فى بروفنس وقد خدم السوق أغراضا أخرى ؛ غير أن شانيانى احتفظت بقيادتها للأسواق حتى القرن الرابع عشر . وقد بدأت أسواق شانيانى من القرن الثانى عشر ولكنها بلغت قمه عظمتها فى القرن الثالث عشر ، وأخذت فى التدهور على طول القرن الرابع عشر عندما استطاع أهالى البندقية وجنوا أن يملأوا من مضايق جبل طارق ويبحروا مباشرة الى الفلاندرز وانجلترا عندئذ بدأت الأسواق الفلمنكية فى بروجز ، وايبى ، وليل ، وثورون ، ومسينا فى النمو المطرد وتحل محل شانيانى كأسواق دولية .

وكان لانجلترا أسواقها المتواضعة فى ونشستر ، وستانفورد ، وسانت جيلز ، وسانت ايفنز ، وستوربردج ، وبارثليمو . وكان لبلاد الاتحاد الهندى نشاط كبير من مراكز انجلترا ، وأصبحت نوفجورد فى روسيا ، وكييف فى أوكرانيا مراكز حية متمركزة لتجارة الفراء القادم من الشمال ، وكذلك السلع الأخرى التى تحملها القوافل برا من الشرق الأقصى .

وكانت السوق (المولد) مظهرا من أكثر المظاهر جاذبية للحياة فى العصور الوسطى . كان يؤمها الناس من كل طبقات المجتمع للتسلية مثلما كانوا يرتادونها للعمل . كان الشعراء «بالربابة» والمغنون الجواله يظهرون فى مثل هذه المناسبة . كانت هناك الألعاب المنزلية والخارجية . وكانت التمثيليات الدينية والتمثيليات التى تبرز المعجزات تمثل فى

الأسواق • ولجذب الجماهير كانوا يحضرون الدبة والحيوانات الأخرى •
وكان المظهر الغالب والطابع المميز لهذه الأسواق هو المرح •

وكان لأسواق الغرب مثيلاتها في الشرق ، فلكل قرية أو مجموعة من القرى في كل حي سوقها الخاصة في يوم معين من أيام الأسبوع وذلك من بداية التاريخ • ومازال العمل جاريا بهذا النظام ، وعادة ما تكون للسوق مناسبة دينية ترتبط بالشخصيات المسيحية المقدسة أو الأولياء المسلمين • وجدير بالذكر أن هناك ارتباطا بين الحج السنوي والأسواق القبلية التي كان يحتفل بها العرب في العصر الجاهلي • فسوق عكاظ في مكة كان حول حجر الكعبة الأسود وكان أشهر مكان اجتماع لكل القبائل العربية قبل زمن النبوة • وهناك كانت تتم المقايضة على البضائع في حين كان الشعراء والخطباء يلقون حصادهم السنوي من الأدب والحكمة • وبعد نشأة الاسلام وحتى العصر الحديث استمر الحال على هذا المنوال ، ومن المحتمل أن يكون التغير الوحيد في طبيعة الحج الى مكة هو ما يمكن تلمسه في التطور الذي حدث في طبيعة المعاملات اذ أصبحت دولية • فهناك حجاج من الهند وما وراءها يلتقون مع آخرين من مراكش وغيرها من الدول الاسلامية فيما بين البلدين ليشتروا في ممارسة شعائر الحج ولتبادل بضائعهم المحلية •

ولم تظهر نشأة المدن كمراكز للأعمال الاقتصادية الا في أواخر العصور الوسطى برغم أنها كانت قائمة من زمن بعيد • وترتبط هذه الظاهرة بالتقدم المستمر لكل من الصناعة والتجارة • ويمكننا أن نقدر ذلك اذ نعلم أن تصنيع فلاندرز كانت نتيجته أن تصف سكانها على الأقل أصبحوا يعملون في صناعة النسيج في غضون القرن الرابع عشر • ونسبت الصناعة في المدينة كلا من التجارة المحلية والدولية وأدى ذلك الى نشأة طبقة جديدة من البورجوازيين • ويعزى الشراء المتزايد للمجتمعات والمدن في جنوب أوروبا الى حد ما الى هذا التطور الصناعي ، وكذلك الى التحسن الضخم في التجارة الشرقية • ولا يقع في نطاق هذا البحث الدخول في تفاصيل تكوين المدن الأوروبية وتنظيمها التي جمعت ثروات

خيالية عن طريق التجارة • غير أنه من الضروري للتنوير أن نشير الى بعض الأمثلة لمدن عرفت بثرائها في الشرق والغرب مثل البندقية والاسكندرية •

قد سجل الباحث مارينو سانودو « تورسيللو » المؤرخ الصغير في عام ١٤٢٠ في كتابه « حياة قضاة البندقية » خطابا مهما ألقاه توماس موكنيجودا كامبو فريجوسو (١٤١٣ - ١٤٢٠) على مجلس شيوخ البندقية ضمنه تقريرا عن تجارة جمهورية سان مارك في السنة السابقة • قدرت البضائع المصدرة من مخازن البندقية بمبلغ ١٠ ملايين من الدوكات ، وكان الربح الصافي الناتج عن تبادل السلع أربعة ملايين من الدوكات ، ووصل عدد السفن الحربية والتجارية التي كان يملكها البنادقة حوالى ٣٠٠٠ من أحجام مختلفة مجهزة ببخارة منتظمين يقدر عددهم بحوالى ١٧٠٠٠ • وكان هناك ٣٠٠ سفينة تحمل ٨٠٠٠ رجل ، و ٤٥ سفينة أخرى يسيرها ١١٠٠٠ • وهذا يبين أن المتوسط كان ٢٤٤ بحار للسفينة وهو عدد معقول حتى للسفن الحديثة • وكان هناك ١٦٠٠٠ رجل يعملون في أحواض السفن بانتظام • وأنجزت دار سك النقود في البندقية الى جانب العملة المستعملة مليوناً من الدوكات الذهبية ، و ٢٠٠٠٠٠ قطعة فضية و ٨٠٠٠٠٠ سليوس وقد أرسل منها الى مصر نصف مليون قطعة •

وجمع أهالى جنوا كذلك ثروات ضخمة نافست ثروات أهالى البندقية . وتعطينا مؤرخة من جنوا في القرن الرابع عشر أمثلة على ثراء جنوا فيما وراء البحار • فقد كان حجم سفينتين من جنوا في مياه البحر الأسود في ١٣٣٠ ، ١٣٤٤ يكشف عن مظاهر مذهلة لدى ثراء تجار جنوا فيما وراء البحار • فقد كان هناك سفينه تحمل بضائع قيمتها ٤٦٠٠٠٠ جنيه استرليني ، وأخرى تحمل ما قيمته ٤٧٠٠٠٠ جنيه استرليني • وفي ظل الظروف العادية استطاع بعض التجار أن يضاعفوا ثرواتهم أو أكثر في سنة واحدة • وكان ممثلون من مصر يقيمون في البندقية وفي بعض المراكز التجارية الأخرى ، ليصدروا خطابات توصية نظير أجر معين وهو ما يعادل جواز السفر الحديث في النظام القنصلي •

وكانت أسواق القسطنطينية ، وطرايرون ، والاسكندرية ، ودمشق أمكنة يسعى اليها التجار الغربيون وراء البضائع الشرقية • فكان سوق

سانت ديمتريوس فى سالونيك يعكس صورة لكل النشاط التجارى فى الشرق الأدنى . يباع فيها الأقمشة الحريرية من بيوشيا ، وكورينثوس ، الجلود والملح من كارباثيان والدمقس السورى ، والتيل المصرى . الا أن فى الاسكندرية كان العالم التجارى ممثلا خير تمثيل . وقد سجل ابن بطوطة الرحالة العربى الذى زار المدينة فى ١٣٢٦ انه لم ير مثيلا لذلك فى حوض البحر المتوسط ، وكتب جيوم ماشو Guillaume Machaut فى ١٣٦٧ يسميها عروس البحر الأبيض المتوسط . كان ميناءها مزدحمين باستمرار بالسفن التجارية تحمل وتفرغ حمولتها ، وقد عرفت الميناء الشرقية فى العصور الوسطى أيضا باسم ميناء السلسلة ، بسبب السلسلة الضخمة التى كانت تحيط بمدخلها أثناء الليل وكانت مخصصة للسفن المسيحية . اما الميناء الغربية التى كانت تسمى قديما ايونوستس منذ أيام البطالسة فقد خصصت لسفن المسلمين القادمة من اسبانيا والمغرب . وكانت الجدران المزدوجة وحصون المدينة من أروع الأبنية وكانت أبوابها وبواباتها تغلق على أروع المباني التى عرفت فى مدن العصور الوسطى . وقد شيد فنادقها وقام بإدارتها اناس من البندقية ، وجنوا ، وبيزا ، وفلورنس ، و نابولى ، ومرسيليا ، وكاتالونيا ، الذواية ، وفرسان القديس يوحنا ، وفرنسيون من الشمال والجنوب ، ومواطنون من مونييليه ، وكذلك بعض الأفارقة وتجار الشرقيين الأدنى والأوسط ، وكان كل من هذه المباني تحت رعاية قنصل مسئول . وكانت الدول كلها تقريبا من الشرق والغرب ممثلة فى الاسكندرية تحمل اليها البضائع لبيعها فى هذه السوق المركزية . وكانت الغنائم التى حملها من الاسكندرية صليبيو بيتر الأول اللوزجنى عام ١٣٦٥ تظهر ضخامة الثروة فى مدينة الاسكندرية .

السلع

ما هي السلع التي كانت تتبادل فى أسواق الاسكندرية وغيرها من المدن التجارية ؟ هذه السلع يمكن تصنيفها تحت ثلاثة أصناف أولها الرقيق ، وثانيها : المنتجات الطبيعية وثالثها البضائع المصنعة . ومن بين السلع الثلاث كانت تجارة الرقيق أكثرها ربحا ورواجا للغربيين وأكثر ما كانوا يبحثون عنه فى الشرق . ونظرة واحدة سريعة الى نشأة دولة المماليك وتكوينها ونظامها (١٢٥٠ - ١٥٧٠) توضح لنا الأهمية غير العادية للتجارة فى بنى الانسان .

وترجع دولة المماليك الى مملوك كان حارسا لأسرة الأيوبيين (١١٧١ - ١٢٥٠) وقد انتهى الأمر الى أن استولى المماليك على السلطنة وحكموا مصر وسوريا كحامية أجنبية وكان عددهم يزداد باستمرار بشراء رقيق جدد من الأسواق . كان لكل أمير من المماليك حاشيته الخاصة حسبما تسمح مالهته . فحراس السلطان قلاوون وصلوا الى ٦٧٠٠ مملوك ، وزاد ابنه الأول خليل من تراثه (١٢٩٠ - ١٢٩٣) الى ١٠٠٠٠ ، وابنه الثانى الناصر محمد (١٢٩٣ - ١٢٩٤ ، ١٢٩٨ - ١٣٠٨ ، ١٣٩٠ - ١٣٤٠ ، الى ٢٤٠٠٠ ، وطوعا لبعض الظروف كان عدد مماليك السلطان يتناقص الى ٤٠٠٠ كما حدث فى عهد برقوق (١٣٩٠ - ١٣٩٨) وهذه المماليك كانت عادة تقسم فرقا تمثل أمما متعددة مثل الأتراك ، والتركمان ، والمنغوليين ، والشراكسة الأكراد ، والأرمن ، واليونانيين ، والسلاف ، والسلوفينيين ، والألبانيين ، والمصريين .

وكان يطيح الموت بنسبة عالية من المماليك لا لأنهم كانوا يتساقطون فى ميدان القتال فحسب ، ولكن لكثرة المذابح الجماعية التى كانت تتم اذا حدث الشك فى ولائهم . ومع أن المماليك كانوا يدينون بالاسلام دين الدولة الرسمى ، فانهم لم يكونوا ليتورعوا عن عمل أى شئ ، وكل ما كانوا يظهرن من الاسلام ، كان مجرد الشعائر الدينية البسيطة ، ولأن المماليك طائفة معينة من بيئة حربية فقد أرادوا أن يبقوا أو يعيشوا

وكان لزاما عليهم أن يخصصوا كميات كبيرة لشراء قوى جديدة تصل الى ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ عبد سنويا . وبعض هؤلاء كانوا يصلون الى مراكز عليا . فالسلطان كتبغا (١٢٩٤ - ١٢٩٦) كان أسير حرب من منغوليا . ويقال ان لاجين (١٢٩٦ - ١٢٩٨) كان فارسا فى النظام الشيوتونى وكان يحارب الوثنيين فى ليفونيا حول أراضى البلطيق ، وبعدها أصبح صليبييا فى سوريا ، وهناك اعتنق الاسلام وانضم للمماليك .

وقد شاركت معظم المدن التجارية الأوروبية بنشاط فى تجارة الرقيق، وكانت جنوا فى مقدمتها . فقد كانت المستعمرتان كافا وتانا ، فى جنوب روسيا خاضعتين لجنوا ، وكانتا أعظم الأسواق لتجارة الأطفال المغول من ذكور واثاث . وأحيانا كان آباؤهم يقدمونهم للسوق بأنفسهم وهم يحلمون بأن يمنحهم فرصة مستقبل لامع فى مصر . زد على ذلك أن السلاطين كثيرا ما كانوا يضيفون الى ذخيرتهم من المماليك أسرى من بين الوثنيين والسكان المسيحيين فى دول شرق أوروبا وكذلك من أسواق الأناضول .

وكان ثمن العبد المغولى يصل الى ١٣٠ الى ١٤٠ من الدوكات الذهبية ، والقوقازى من ١١٠ الى ١٢٠ ، واليونانى نحو ٩٠ ، والألبانى أو الصربى أو السلوفانى من ٧٠ الى ٨٠ ، وكان التجار من جنوه (*) يمارسون هذا العمل المجزى متحدين بذلك الأوامر البابوية التى تحرمه ؛ وقد أصدر البابا مارتن الخامس (١٣٦٨ - ١٤٣١) أمرا عام ١٤٢٥ يدين به كل المشترين فى هذا العمل الشرير . وعلى الرغم من ذلك فان القوى الدنيوية كانت تعترف بل تشجع هذه التجارة المحرمة . وفى عام ١٤٦٦ منح الامبراطور فردريك الثالث (١٤٦٣ - ١٥٢٥) مدينة جنوا سلطة كاملة للتجار فى الرقيق من الجنسين ، وكانت قيمة العبد تتوقف على عمره وصحته . ومن العجيب أن نعرف ان بعض الوسطاء الذين كانوا يحملون الرقيق من أوروبا وآسيا الى مصر كانوا يستوردون الأرقاء المسلمين من شمال افريقيا وآسيا الى أوروبا المسيحية . فقد أشار فيلكس فابر رحالة

Niccolo di S. Giorgio, Gentile Imperiali,
Seguavano Salvago.

(*) أمثال

القرن الخامس عشر المشهور الى وجود زهاء ٣٠٠٠ من الأرقاء المسلمين في البندقية وكانوا يستخدمون في تقذيف السفن الشراعية فيها .

أما المنتجات الطبيعية التي كانت الأسواق الأوربية تطلبها بالحاح فهي أولا : التوابل والفلفل المستورد من الهند وكانت تشتريه البندقية الى جانب البضائع التجارية من أسواق مصر بأسعار باهظة ، وكانت التوابل معروفة منذ القرن السادس كما يبدو واضحا من كتاب جغرافية البلدان لمؤلفه Cosmas Indicopleustes الذي زار الهند في ذلك الوقت .

وكان كل الرحالة الذين وصلوا في العصور الوسطى الى مشارف القارة يتحدثون عن التوابل . وكان في مدينته الاسكندرية في ذلك الوقت شارع بأكمله ، أو بالأحرى حي ، مخصص لتجارة الفلفل . ويتحدث جيوم ماشو عن شارع الفلفل في عام ١٣٦٥ الذي يعرف بهذا الاسم نفسه في اللغة العربية . وقد جمع المؤرخ ويلهلم هيد Heyd مؤرخ التجارة في العصور الوسطى قائمة أبجدية للسلع التي كان يتم تبادلها مع التجارة الشرقية ، ويكفي دون الدخول في تفاصيل المواد التي جمعها من مصادر ودراسات ثانوية أن نعدد بعض محتويات القائمة دون تعليق لمجرد أن نعطي القارئ فكرة عن ضخامة هذه التجارة . تضمنت القائمة : الصبر والشبة والعنبر والبلسم وصبغة جاوى ، وخشب الصبر وخشب الصندل والكافور والقرفة والحبان وخيار الشنبر ، والقرنفل والمرجان والقطن واللبان الذكر والخلنجان والزنجبيل والصمغ والنيلة والعاج وصبغة الأفيون والمن والمصطكي والقطران والمسك والقراصيا واللؤلؤ والأحجار الثمينة والفلفل الأسود والفلفل الطويل والرواند وخيوط الحرير والتوتيا وغيرها .

وبعض هذه المنتجات كانت لازمة لا يمكن الاستغناء عنها في صناعات معينة ، فالشبة مثلا كانت تستعمل في تثبيت الألوان والصبغة في النسيج ، وكانت تستورد من جزر بليار وشمال افريقيا وبعض جزر الأرخبيل ، وآسيا الصغرى . وبعض المنتجات كانت تستخدم في التركيبات الطبية ، وكانت اللآلئ والأحجار الثمينة التي تستورد من الخليج العربي والهند سلعا جذابة عند نبلاء الاقطاعيين والأثرياء . ورغم أن تراب

الذهب والفضة لم يأت ذكره فى قائمة « هيد » فانه ينبغى أن يكون له مكانة خاصة مع خامات المعادن الأخرى مثل الحديد والنحاس والرصاص . وكان الرصاص يستخدم فى تسقيف الكنائس والكاتدرائيات وكذلك فى صنع اطارات النوافذ الزجاجية . وقد كانت مناجم الذهب فى النوبة والسودان تمتد الأسواق بأكبر كمية تستخدم فى مصر والأسواق الأوروبية .

أما السلع المصنعة فقد شملت الخيوط المذهبة والمفضضة من قبرص والحزف من الصين ، والسكر من الهند والشرق الأقصى ، والمنسوجات المزركشة من مناسج مصر ودمشق وبغداد وإيران والشرق الأقصى ، ومن إيران جاءت السجاجيد وكذلك المصنوعات الزجاجية من قمائن سوريا ومصر وشمال افريقيا . وقد ظهر اهتمام الدارسين والمتاحف وخاصة فى الولايات المتحدة الامريكية ، بصناعة النسيج فى العصور الوسطى والحديثة وبرزت هذه الدراسات بطريقة غير عادية . فالى جانب متحف النسيج فى واشنطن وهو مخصص كلية لهذا الفرع من الدراسة فان المتاحف الكبيرة مثل متروبوليتان ، و بروكلين ، وبوسطن ، وكليفلاند ، وميشيجان ، حصلت على كميات ضخمة من تحف النسيج تشمل الكثير من العينات المتعددة الألوان المزخرفة أو المطرزة فى أطرافها . وقد فتحت هذه المجموعات مجالات جديدة فى ميدان متخيم بالامكانيات الضخمة . وأحسن منتجات الزجاج فى العصور الوسطى نجدها فى متحف توليدو ، ومتروبوليتان ، و بروكلين ، ومصنع زجاج ستوين فى كورننج ، وهناك مراكز أخرى فى أمريكا والخارج . وأظهرت بعض الحفريات مصنوعات زجاجية ، وخرز ما زال فى انتظار فحص عالم الآثار ومؤرخ الحضارة . ولعبت البندقية بطبيعة الحال دورا هاما فى تطور صناعة الزجاج . و انتجت جنوا المخمل ، وفرنسا الكتان ، والفلاندر ولومباردى الأصواف . وكانت السفن تبحر تجاه الشرق محملة بالمصنوعات الأوروبية ، الأسلحة والرقيق وتعود الى قواعد لها محملة بالثمين من البضائع من الشرق .

النقود ، والتسليف ، والمصارف

يمكن اعتبار انتشار استخدام النقود فى أوروبا دليلا على مدى تقدم الحضارة الغربية ، ففى خلال العصور الوسطى الأولى كانت أوروبا مقسمة بوضوح الى شرق وغرب ، بيزنطيين ، وبرابرة • فبينما كانت الامبراطورية البيزنطية مازالت تحتفظ بمعظم سمات العظمة الرومانية وكان اقتصادها مميزا بشراء تجارى ، تهاوى غرب أوروبا وانحدر الى مكانة البلاد المتخلفة التى تعتمد على نظام اقتصادى زراعى اقليمى ، حيث كانت التجارة قد وقفت عن المسير • وكان قبول العالم للعملة الذهبية الـ « نومسما » التى أصدرها امبراطور القسطنطينية يبين بوضوح تفوقها أمام نظام المقايضة البدائى الذى كان متبعاً فى غرب أوروبا • وأصبحت هذه العملة فى العصور الوسطى كالدولار فى الوقت الحاضر ، وذلك بينما كانت أوروبا الميروفنجية لا تملك سوى بضع عملات ذهبية لقطع النقود الصغيرة المتداولة • وكان العالم الكارولنجى يعتمد أساسا على البنسات الفضية التى حاول شلمان أن يفرضها بقوة القانون على رعاياه المتذمرين • وهكذا صارت النومسما الوارثة الحقة لـ « سيلدس » الرومانى وظلت معروفة وخلد اسمها حتى بعد أن انتهى زمن استعمالها ، فأصبحت فى العلم الحديث أساسا لدراسة العملات وجمعها • وهذه العملة البيزنطية التى سميت أيضا هيبربرون Hyperpron وفى زمن متأخر سميت بيزانت (besant) كانت تتمتع باستقرار فى قيمتها الذهبية وكذلك وزنها مما أعطاها ثباتا ، وكانت تساوى ٧٢/١ من الجنية الرومانى وزنا (حوالى ٣٢٧ر٤٥ جرام) وهكذا تصلّ الى ٤٥٠ جرام من الذهب • وتشير الدراسات الى أن وزنها الحقيقى كان يختلف بين ٣٨٨ر ، ٤٤٤ر جرام • ومن جهة أخرى ، أصبحت العملات (قطع النقود) نادرة فى العالم الغربى حتى أن أداء الديون كان يقرر اما نقدا أو عينا • ففى عام ٩٣٣ فى اسبانيا أدى دين بمبلغ ٦٠٠ سيلدس (العملة الرومانية) ، بأوان للزهر

وأقمشة فاخرة ولوازم الخيل المزركشة وبعض قطع النقود . وفى فرنسا
فى ١١٠٧ أدى دين بمبلغ ٢٠ سيلدس بحصان .

وبينما كان الغرب على هذه الدرجة من التخلف ظهر منافس للحضارة
البيزنطية العريضة فى الامبراطورية العربية الجديدة . فحتى فى بداية
القرن الأول الاسلامى كان الخلفاء يقبلون سيادة النومسما ، ولكنهم
سرعان ما ثاروا عليها وأعلنوا استقلالهم الاقتصادى وأصدروا عملتهم
الذهبية الدينار والدرهم الفضى . وبدأ الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان
(٦٨٥ - ٧٠٥) استعمال النقود العربية الجديدة فى أواخر القرن
السابع . وفى هذا المجال قدمت أسباب دينية لتبرير ترك العملة البيزنطية
وهذا التبرير هو رفض المسلمين للصور البشرية المنحوتة على العملة ،
غير أن الهدف الأساسى كان الاستقلال الاقتصادى . وبرغم أن الدينار لم
يطرد النومسما من الاستعمال الدولى فإنه حظى بشعبية واسعة لا فى
الامبراطورية الاسلامية والبحر المتوسط فحسب ولكن فى مناطق وبلاد
بعيدة . ويثبت ذلك ما أظهرته الحفريات من عملات عربية فى مناطق
شواطئ بحر البلطيق وما وراءها .

ولم يبدأ سكان الغرب فى معرفة أهمية النقود فى تسيير المعاملات
الدولية حقا الا فى عصر الصليبيين . وكان روجر الثانى (١١٣٠ -
١١٥٤) ملك صقلية ودوق أبوليا وكلايريا أول ملك أوربى يسك عملة
ذهبية منذ المحاولات المتواضعة التى قام بها الكارولنجيون وكانت هذه
العملة هى الدوكات الذهبى المسكوك فى ١١٤٠ وعليه الكتابة الشهيرة :

Sit tibi, Christe, datas, quem tu regis, iste Ducatus

أى : احفظ - يا سيدى المسيح - هذه الدوقية التى تحكمها حتى تكون
لك .

وفى عام ١٢٥٢ اتخذت فلورنسا العملة الجديدة تحت اسم
" ducati gigliati " وعرفت بعد ذلك باسم فلورين (fiorino d'oro)
بسبب علامة زهرة الزنبق الفلورنسية المميزة التى ختمت بها العملة

الجديدة • واتخذت البندقية بعد ذلك العملة عندما أمر الرئيس الثانى من رؤسائها الأربعة والمعروف باسم داندولو فى سنة ١٢٨٣ ، أمر بأن تبدأ الدولة فى تداول عملتها الذهبية « الدوكات » واحتفظت جمهورية سان مارك فى العملة الجديدة بالرسم الأبولىنى اللاتينى القديم الذى أصبح بمرور الوقت وفى القرن السادس عشر معروفا باسم «تسكىنى» [المفرد: تسكىنو] مأخوذا من "zeccha" وهو اسم دار سك النقود فى البندقية •

وكانت قيمة الدوكات تختلف من عصر الى عصر ولكنها كانت أصلا تزن ٣.٥ جرام من الذهب الخالص بما يعادل ثمن وزن أوقية من الفضة • وفى العصور الحديثة استعمل الدوكات فى بلاد كثيرة من قارة أوروبا حتى فجر القرن الحالى • وفى العصور الوسطى كان الفلورين والدوكات وسائل تبادل تجارى دولى يقبلها التجار جميعا • وظلت العملتان ضمانا ماليا حتى بداية انهيار دولة البندقية والدويلات الايطالية الأخرى • ولما تكشفت أهمية النقود فى عملية تسهيل المعاملات واثراء ميزانية الدولة بدأ ملوك أوروبا الأقوياء فى تأييد السياسات الاقتصادية للذين ابتدعوا النومسما ، والدينار ، والدوكات على التوالى • وكان أول ملك يلمس هذه الحقيقة هو الامبراطور فردريك الثانى عام ١٢٢٨ فقد سبق البندقية وفلورنسا فى سك عملته « أوجستالس » التى كانت من أكثر العملات الذهبية استقرارا فى العصور الوسطى فى أوروبا • فالى جانب أنها كانت قطعة فنية رائعة كما وصفها بيرن بذلك فقد كانت مطلبا شائعا يسعى وراءه الكثيرون بسبب نقاء ذهبها •

ولسوء الحظ كان نتاج دار السك الامبراطورى محدودا ، ولم تصبح الأجستالس عملة فى التجارة الدولية لندرتها • وفى الوقت نفسه اتبع الملوك الآخرون الطريق نفسه الذى اتبعه فردريك • ففي ١٢٦٦ أصدر سانت لويس جنييه الفرنسى الذى عرف باسم Gros Tournais وكذلك gros parisis ليتم التعامل به فى أوروبا شمالى الألب وغرب ألمانيا • وقد نجح فى نشر عملته وجعلها نموذجا فى معظم بلاد شمال أوروبا زمنا ما ولكن خلفاءه أخفقوا فى المضى فى الطريق نفسه وانقطع العمل بها •

واستعمال العملة بانتظام يمكن أن نرجع اليه في تواريخ مختلفة في البلاد الأخرى . فقد كان الفونسو الحادى عشر ملك قشتاله (١٣١٢ - ١٣٥٠) مسئولا عن بدء استعمال النقد الذهبى فى اسبانيا . وكانت بوهيميا المقاطعة الأولى فى امبراطورية شمال الألب التى تحذو هذا الحذو فى استعمال النقد الذهبى عام ١٣٢٥ ، وفى هولنده التى اشتهرت بصناعتها وتجارتها فى العصور الوسطى أصدر لويىس النيفيرى عملة فومية قبل عام ١٣٣٧ ، ثم جون الثانى فى برابنت [جنوب هولنده وشمال بلجيكا] (١٣١٢ - ١٣٥٥) ، وانجلترا دى لامارش (١٣٤٥ - ١٣٦٥) فى ليج ، ووليم الخامس (١٣٤٦ - ١٣٨٩) فى هولندا ، ورينود الثالث (١٣٤٧ - ١٣٧١) فى جلدز .

وفى انجلترا سك الملك ادوارد الثالث عملة ذهبية عام ١٣٤٣ وكان أسوأ ما فى تداول العملة النقدية فى أوروبا فى العصور الوسطى أنه أعطى لكل النبلاء الاقطاعيين الحق فى اصدار نقدهم المحلى الذى انحدرت قيمته فى كثير من الأحيان . والواقع أن العملة المعيبة وسوء استعمال الامتيازات الطبقيّة عرفت عن كثير من الملوك وأمراء الاقطاع . ومن أكثر الأمثلة وضوحا محاولة الملك جون الثانى الطيب (١٣٥٠ - ١٣٦٤) من أسرة قالوا أن يخفض قيمة النقد الفرنسى للهرب من عبء الديون القومية .

وأدى نمو استعمال النقود الى دراسة تحليلية وقد كان دورها فى التجارة فى سبيل الوصول الى الاستقرار والعدالة مما اهتم به الدارسون . وكان أول صاحب نظرية مالية فى أوروبا فى العصور الوسطى هو نيكولاس أورزم (١٣٨٢) مدير كلية نافار فى جامعة باريس وقد أصبح بعد ذلك أسقف ليزيه ، كان عالما لاهوتيا الى جانب دراسته الطبيعة والعلوم السياسية ، وترجم كتاب السياسة لارسطو ، ولكن شهرته الحقيقية تركز على بحثه بعنوان « حركة النقد » اذ شرح فيه بطريقة واقعية موقف التجارة والمصاعب التى تواجهها ، ومصادر هذه المصاعب فى النظام النقدي . والفكرة الأساسية وراء رسالته كلها هى أن المال يمثل جزءا من تراث الناس المادى وعملهم ، وهو يخص صالحهم هم أنفسهم وليس حفا للملوك ولا الأمراء الذين يصدرونه ، حتى يباح لهم أن يتكسبوا من

وراء إصدار العملة • وكان يعتبر التلاعب فى النقد أمرا غير أخلاقى وغير عادل ، ومدمرا للاستقرار الاقتصادى وكيان الدولة كلها • ومن المفيد أن نلاحظ أنه بمرور القرن الخامس عشر شهدت مصر أيضا ظهور أبحاث عن النقد كتبها كتاب عظماء مثل المقريزى ، والسيوطى ، وثالث أفل منهما شهرة معروف باسم اسدى • ولم تدرس هذه الكتابات الأدبية دراسة كافية ومعرفتنا بفحواها مازالت غامضة رغم افتراض أنها ظهرت فى وقت كشف فيه طمع سلاطين المماليك ودورهم فى تدهور النقد •

ولم يكن من المفروض أن تنخفض قيمة النوسما الذهبية أو الدينار أو الفلورين أو الدوكات عن ٣٥ جرام ذهب • وعند دراسة المعاملات التى كانت تقيم فى العصور الوسطى يجب ربطها بما يعرف بشيخ المال أو النقد الوهمى وهو الجنيه الذى يساوى ٢٠ شلن أو ٢٤٠ بنسا • وفى الأصل لم يكن الجنيه أو الـ « البرا » إلا رطلا من الفضة موزعا على ٢٤٠ قطعة فضية [البنس الفضى] • أما العملات الذهبية فقد كانت فى هبوط وصعود فى علاقتها مع الجنيه ، الشلن والبنس وكان متوقفا على سوق الذهب فى المنطقة • وفى نصف القرن وفى ميلانو يخبروننا أن الفلورين الذهبى كان يقدر بقيمة ١٦٦ جنيه أو ٣٢ شلن ، أو ما يساوى ٣٨٤ بنس • وفى هذا المجال كان البنس والفلورين هما الوحدتان الحقيقيتان اللتان تمثلهما عملات واقعية • وأما الأخريات فقد كانت عملات وهمية من الورق •

وجاءت نشأة نظام الديون والتسليف والمصارف نتيجة لتطور التجارة الدولية والمعاملات المالية • وكانت صكوك التبادل معروفة عند اليونان وكذلك عند اليهود والعرب وأدخلها التجار المسيحيون الى المدن الايطالية فى معاملاتهم المتبادلة •

وكانت النقود تودع مصارف مختلفة ، حيث يمكن أن تواجه هذه المستندات والكمبيالات • وعقدت القروض كذلك وكانت عادة بربح مرتفع مع ما فى ذلك من تحد لأوامر الكنيسة التى تعارض كل أنواع الربا • على أن الكنيسة التى كانت متشددة فى معارضتها ومقاومتها لأى أنواع

الكسب فى البداية ، تراجعت بعد ذلك فى القانون الذى أصدرته بحيث أصبح هناك ثغرات للنفوذ منها ، فنجد رجالا من قادة اللاهوت مثل سان توماس الاكوينى يجادل فى صف الاشتراك فى الكسب اذا كانت المغامرة للسلفة أو الايداع كبيرة جدا . وقبلت البابوية المبدأ مع أن البابوات ظلوا على موقفهم الصلب فى رفضهم الاعتراف بقانونية الفوائد فى الربا .

وبدأ أصحاب المصارف فى لومبارد من البندقية وجنوا وفلورنس وكذلك من مدن ايطاليا الشمالية ، يحلون محل اليهود فى هذه المهنة المثيرة . وأصبح الذى كان يقوم بتبديل النقود وفى السوق عميلا للمصرف المحلى . وأصبحت مصارف سان مارك فى البندقية ، وسان جورج فى جنوا ، وباردى ، وبيروزي فى فلورنسا ، والتنظيمات التجارية الأخرى هى الظاهرة الجديدة للعصر . وفى نهاية القرن الرابع عشر قدرت النقود الفلورنسية المتداولة بقراءة مليونى فلورين ذهبى . وكان لمصرف بيروزي ١٦ فرعا فى العواصم الأوروبية والمدن التجارية فى الغرب : ميورقة [فى جزر بليار] ، وشبه جزيرة المورة ، وقبرص ، ورودى ، وتونس فى شمال افريقيا . وأصبح « الداوية » من أكبر الهيئات المصرفية فى العالم فى القرن الثالث عشر بسبب طبيعتهم العالمية وانتشارهم فى كل أوربا والشرق . وكان الملوك والاقطاعيون على حد سواء يودعون نقودهم فى خزائهم فى قلاعهم الحصينة . أما الحجاج ، فان أى حاج كان يستطيع أن يودع أى مبلغ من المال فى باريس أو لندن ويحصل على ما يريد من نقد فى روما أو القدس . وكانت الأموال الطائلة التى جمعها الداوية عن طريق تنظيم المصارف سببا دعا فيليب الرابع ملك فرنسا الجشع أن يحل النظام (نظام الداوية) ويصادر ممتلكاته عام ١٣١٢ . وفى تاريخ متأخر بدأ بابوات عصر النهضة فى استغلال مبادئ المصارف وهم أنفسهم البابوات الذين هاجم أجدادهم الربح . فبينما نجد البابا سكستس الرابع (١٤٧١ - ١٤٨٤) يفخر بأنه اذا أراد أن يجمع أى كمية من المال فلن يحتاج الا الى ما يكتب عليه ، نجد البابا اينونست الثامن (١٤٨٤ - ١٤٩٢) يؤسس مصرفا فى روما لبيع صكوك الغفران . وأصبحت حركة النقود هى النظام اليومى قرب نهاية العصور الوسطى .

نظام التجارة

مرة أخرى كان توسع التجارة عبر البحار وعلى الأرض ، والتطور في طرق المعاملات ، والطبيعة المتنوعة للسلع المتبادلة ، والقوانين والتقاليد المتشابكة التابعة للبلاد التي كانت البضائع تباع فيها وتشترى منها : كل ذلك بالإضافة الى مجموعة أخرى من الاعتبارات جعل من الضروري على كل دولة أن تقيم نظامها التجارى الخاص بحيث يخضع لقانون مكتوب أو لعرف وتقاليد غير مكتوبة . وأصبحت التجارة عملية واسعة .

وأصبح سوق شانينانى يجرى على حسب مجموعة من القواعد يضعها الأمير ويرقب تنفيذها عملاؤها . وكان للمدن نقابات لمراعاة التنظيم الداخلى والخارجى للعلاقات التجارية ، وتكونت جمعيات تجارية دائمة ، أو بعقد وقتى لرحلة أو لصفقة ، وعرضت القوانين والتقاليد للتطبيق العام . وبعد نشوب الحرب الصليبية فى البحر المتوسط نشأت سلسلة من القوانين تنظم الاجراءات البحرية ، وتطور بعض القوانين الدولية بضبط التجارة . وكانت أهم القوانين المنفذة فى جنوب أوروبا وفى مياه الادرياتيک والمتوسط فى ذلك الحين هى :

القانون الرودى - مستشار البحر - قوانين أولبرن - جداول أمالفا .

وكانت القوانين التى تنشأ فى مناطق أخرى تتبع الأغراض نفسها (*)

(*) ففي مناطق البحار الشمالية كان هناك The Black Code of the Admiralty فى انجلترا الى جانب مجموعة أخرى من القوانين هى كتاب بروجز القرمزى Purple Book of Bruges
قوانين الفلاندرز البحرية • Sea Laws of Flanders
قانون أوسترلنجز البحرى • Maritime Law of Osterlings

=

وكانت الأخطار التي تتعرض لها التجارة على الدوام تدعو الى ضرورة العمل الجماعى فى صورة نقابات للدفاع عن النفس ، ولمواجهة العمل المرتفع التكاليف مثل بناء المنارات والأحواض وأرصفت الميناء للملاحة المناطق التي قد تحف بها الصخور والضفاف الرملية ، والأعمال الأخرى التي لا يمكن الاستغناء عنها من أجل تأمين الملاحة . وكان للهانسارديين بحارتهم المرخصون (المؤهلون) . وفى القرن الخامس عشر جمعوا كتابا يسمى « كتاب البحرى » يحتوى على وصف تفصيلى للسواحل والمجارى المائية والمدن والموانئ التي تردادها سفنهم ويعطينا مارينو سانودو الأكبر وصفا دقيقا للساحل المصرى وموانئ الاسكندرية فى القرن الرابع عشر مما يؤكد ما كتبه العرب عن المدينة عام ١٣٦٥ ويظهر عمق المعرفة البحرية عند الشرقيين .

ولا تجدر المبالغة فى تقدير الطبيعة الدولية لهذه القوانين عندما نواجه بتطبيقها ، فقد كان تنفيذها أساسا مسألة محلية تتوقف على حسن مقصد السلطات فى منطقة معينة ، ولكن هذه الأهداف كانت عادة تعرف بأنها لحماية التجارة ، وضمان سلامة البضائع فى أعالي البحار ، وتفتيش السفن وفحصها للتحقق من سلامتها ولياقتها للإبحار ، ولتنفيذ النظام ، ومراجعة عدد البحارة للثبوت أن السفينة لا تحمل أقل من الحد الأدنى المقرر لها ، ومدى مراعاة قانون التاجر الأجنبى . وقدرة القائد أو الربان على تحمل المسؤولية وغير ذلك من التفاصيل .

وفى مصر أصبح ضبط النشاط التجارى أمرا واسعا لان التجارة كانت المصدر الرئيسى لدخل السلطان . فقد كانت السفن الداخلة الى ميناء الاسكندرية تخلع عنها دفافها وشراعيها . وكان يحاط مدخل الميناء

= وطور اتحاد الهانسييتك كلا من :

Gotland Sea Laws

قوانين جوتلاند البحرية

Wisby Code

دليل وسبى

Ship Laws of Lübeck

قوانين ليوبك للسفن

وكان هناك نظامان جديران بالملاحظة فى بحر البلطيق وهما :

«قوانين وانزنج البحرية» ، «قوانين الفرسان التيوتونيين البحرية» .

بالسلاسل ليلا حتى تمنع السفن من التسلل خارج الميناء دون ان تؤدى الجمرى والضريبة . وكانت قوائم باسم الزوار وقوائم بالبضائع التى تحملها السفن ترسل الى الهيئة التنفيذية المركزية فى القاهرة فورا بوساطة حمام الزاجل وسرعان ما كانت التعليمات تصدر الى السلطات المحلية بالطريقة نفسها .

وكان على المسافر عادة أن يبرز خطاب تقديم من أحد التوكيلات المصرية القائمة فى المدن الأوربية ، وهى التى تمثل المصالح المصرية فى الخارج ، وكان نظامها أشبه بالنظام القنصلى . وكان كل أجنبى يؤدى قطعة ذهبية عند رسوه ، ولم يكن يسمح له بالتجوال داخل البلد على سعتها ، وخاصة بالقرب من البحر الأحمر حيث كان حراس السلطان يقومون بحماية المنطقة من أى تسلل أجنبى . وكان مواطنو كل بلد يقيمون لدى القنصل المعين لهذه الدولة الذى كانت لديه تعليمات أن يغلق بوابته من الغروب حتى الشروق وأثناء صلاة الجمعة من كل أسبوع كخطوة وقائية أساسية . وكان تحميل السفن وتفريغها يتم عند بوابات البحر فقط ، وكانت تفتح على جمرى المدينة الكبيرة . وهكذا كانت كل الصادرات والواردات تتم جمرىها بمهارة قبل الإفراج عنها . وكان يدير المدينة مندوب سام (نائب الملك) ذو رتبة عالية يسمى الوالى . وكان للمدينة خزانة الخاصة (بيت المال) ودار صناعتها (بيت السلاح) وشرطتها وقواتها الدفاعية . وكانت أسواقها نخضع لتفتيش المحتسب ، وكانت واجباته تتضمن الاشراف على الموازين والمقاييس ، منع الغش فى المعاملات ، وتنفيذ العقود ، وأداء الديون . وكان له الحق فى الفصل المؤقت فى الخلافات الاقتصادية أو فى مخالفات القوانين وهكذا كان يجمع بين المسئوليات القانونية ، الاقتصادية ، فى الدنيا والدين . وما زالت كتب الحسبة معروفة فى الأدب الإسلامى الحديث . وهى تشمل بالتفصيل حقوق المحتسب وواجباته . وكان المحتسب أيضا حامى حمى الأخلاق العامة فى المدينة . وكان فى سلطته مصادرة أى شىء محظور أو اعتقال

أى شخص من سكان المدينة يسيء التصرف • وكان عليه التحقق من أن جميع المسلمين يحضرون صلاة الجمعة • وكان من سلطانه أيضا أن يمنع القسوة على الحيوان والخدم والرقيق سواء أكانت بالتعذيب الجسماني بمنع الطعام أو زيادة العمل أو زيادة الأحمال • وكان مطلوبا منه أن يصون شوارع المدينة لتظل فى حالة جيدة من النظافة والنظام ، وأن يضمن حرية المرور للتجار والبضائع على الطريق • كل هذه التفاصيل توضح الطبيعة الدقيقة لنظام التجارة الواضح فى دول العصور الوسطى فى كل من أوروبا والبلاد العربية فى الشرق •

التنظيمات والرأسماليون

لما كانت الكنيسة قد أدانت ممارسة التجارة التي لم تجد لها مكانا فى النظام الاجتماعى فى مجتمع اقطاعى زراعى ، فان التجارة ظلت وقفا على اليهود فى بداية العصور الوسطى ومعهم عدد من المغامرين المسيحيين من فقراء الطبقات الدنيا . ولم يكن من حق اليهودى أن يمتلك أرضا لذلك ركز رأس ماله فى التجارة ، وكان ينتقل من بلد الى آخر ببضائعه ويتعبد مع رفاقه فى الدين فى أى مكان ، ويضمن مساعدتهم له فى عمليات البيع والشراء . وكان هناك أمثلة قليلة من تجار مسيحيين نجدها فى سجل التجارة المبكرة . وفى نهاية القرن الحادى عشر كان هناك سان جودريك من فينكل فى لنكلنشير وقد افترق عن آبائه المزارعين للفقير المدقع ، وجال على الشواطئ حيث وجد فى حطام السفن فرصة لممارسة البيع بالتجوال . وتضاعفت ثروته وأصبح بمرور الوقت صاحب شركة تمتلك السفن تبهر حول شواطئ بحر الشمال ، واستطاع بذلك أن يجمع ثروة خيالية . ثم كان هناك رجل اسمه ورمبلد ذكر اسمه فى الـ « جستنا » الخاصة بأساقفة كامبراى فى أوائل القرن الثانى عشر ، وقد جاء ثراؤه نتيجة خدمته لتاجر ثرى تزوج من ابنته فى النهاية ، وتخلى للكنيسة عن بعض أملاكه عام ١١٧٤ . ومن بين الأثرياء الذين نذكرهم مؤسس « فقراء ليونز The Poor Men of Lyons » والذي دعا فيما بعد الى فئة الخوارج المعروفة باسم « فتنة والدنسيان » . وكان تاجرا ذا مكانة مرموقة فى جنوب فرنسا . وأصبح التعبير mercator الذى كان قبل ذلك مرادفا لاسم « يهودى » يمر بتغييرات أساسية حتى أصبح تدريجيا يعنى burgensis .

غير أن النهضة الحقيقية فى تجارة العصور الوسطى ظهرت واضحة فى مدن جنوب أوروبا ، حيث كان حماس التاجر المسيحي يثيره الاتصال المباشر مع التجار العرب القادمين من الشرق وخاصة بعد بداية الحروب الصليبية ، فقد كانت فرص التجارة من الاقبال بحيث أدت الى اقامة دور تجارية وشركات للتجارة ، أولا فى الأسرة الواحدة ، ثم اتسعت بعد ذلك لتشمل رأس مال من خارج نطاق الأسرة حيث كان المستثمر يدفع ثلثي المبلغ المستثمر وتدفع الدور المشتغلة بالاستثمار الثلث الباقي ثم تقسم الأرباح بالتساوى بين الجانبين فى النهاية .

وكان اليهود قد أقاموا سابقة لكل ذلك فقد أسسوا أمثال هذه الجمعيات التى كانت تعرف باسم الراذاني ، وكانت هيئات تتولى التجارة بين أنحاء العالم . وقد وصف ابن خرداذبه الرحالة الجغرافي العربي فى القرن التاسع التجار اليهود منذ ٨٧٠ م بأنهم تجار يتحدثون باللغة العربية والفارسية واليونانية ، وكذلك لغات الفرنجة والاندلس والسلاف . ويبدو أن الرذانيين استطاعوا أن يتسللوا الى الشرق والى مناطق معينة من آسيا ، وبيزنطة ، وشمال افريقيا ومعظم الدول الأوربية . وقد أظهرت وثائق The Cairo Geniza قيام تجارة يهودية منتعشة مع الهند وسيلان فى القرن الحادى عشر . ومع ذلك فإن التاجر العربى احتل مكانة عالية فى العمل بجانب اليهودى من البداية ، ولكن كان كل تاجر يتخصص فى عمليات تجارية معينة . فبينما كان أعضاء الراذانية يميلون الى الاعتماد على بضائع الترف (الكماليات) فى تجارتهم مثل الأحجار الكريمة والآلى والأدوات الذهبية والفضية والحرائر والمنسوجات الفاخرة والسجاد ، كان التجار العرب يتجاوبون مع الحاجيات البشرية فيتخصصون فيما لا يمكن الاستغناء عنه من الأشياء ذات الوزن الثقيل الى حد ما مثل الفلفل والتوابل والملح والسكر وسائر المنتجات الطبيعية والصناعات الشرقية ، ولكن كلا من التنظيمين كان شديد الاهتمام بالتجارة ذات الكسب الأكيد الا وهى تجارة الرقيق .

وأشهر التنظيمات التجارية العربية أو بالأحرى الإسلامية كان «تجار الكارمية» الذين بدأوا مجموعة في القرن العاشر في أوائل العصر الفاطمي . وعرف عنهم في ذلك الوقت أنهم وضعوا خمس سفن كبيرة في ميناء أيدهاب على البحر الأحمر لحماية سفنهم التجارية من غارات القراصنة ، ومنحهم الخليفة الفاطمي الظافر حق بناء فندق خاص لهم في القاهرة في عام ١١٥٤ . وواصل الأيوبيون والمماليك سياسة الفاطميين من تشجيع للكارميين وحمايتهم حتى أول القرن الخامس عشر . وكونوا اتحادا يكاد يكون إسلاميا كان محرما على اليهود الاشتراك فيه . وكانت أساطيلهم التجارية تبخر عبر الخليج العربي والهند وسيلان وكذلك الى شواطئ شرق افريقيا والصومال ، وذلك في الوقت الذي كانت قوافلهم البرية تخترق السودان ووسط افريقيا والصحراء الكبرى وشمال افريقيا ، وتضاعفت بضائعهم ومخازنهم بسرعة في الأسواق الداخلية وفي الأسواق والمولد خارج مصر في المناطق التي لم يكن في استطاعة غير المسلم أن يمارس التجارة . وكانت لهم فنادق لا في القاهرة والاسكندرية ودمياط فحسب ، بل كذلك في قوص في الصعيد وإيدهاب وعدن على شاطئ البحر الأحمر وكذلك في مكة وجدة بالحجاز . ولكي يحافظوا على تجارتهم في الثغور مثل عدن تدخلوا في سياسة اليمن المحلية فاستطاع أحد أعضاء الكارمية واسمه يحيى بن مسند أن يكون وزيرا في اليمن وذلك في العقد الأول من القرن الرابع عشر . وقد سجل ناصري خسرو الذي زار مصر من ١٠٤٦ الى ١٠٤٩ أن تاجرا من الكارمية شيد كلية من عمليات يوم واحد . وقدم ثلاثة من الكارميين وهم برهان الدين بن المحلى، ونهاب الدين بن مسلم ، ونور الدين بن الحروبى قرضا قدره مليون درهم فضة للسلطان برقوق عام ١٣٩٦ . ويعلق أحد المؤرخين (ابن حجر العسقلاني) على موت ابن مسلم وهو تاجر مصرى من الكارميين عام ١٣٧٤ فيقول انه كان معجزة عصره لضخامة ثروته التي فاقت كل وصف . وقد قدرت بنحو ١٠ ملايين دينار ذهب أو ما يقرب من ٤٢٥ مليون دولار . وكان الكارميون ممن يرعون التعليم فقد أنفق ابن مسلم ١٦٠٠٠ دينار ذهب

أى ما يقرب من ٧٦٠٠٠ دولار على مدرسة واحدة ، على حين شيد الخروبي مدرسة أخرى وخانقاه تحمل اسمه حيث كان يقيم طلاب الدين والعلم فى القاهرة ، وأنفق المحلى ٥٠٠٠٠ مثقال (*) ذهب على بناء قصر منيف على النيل ومعه مدرسة أخرى ، وقد قام كذلك باصلاح المسجد القديم وترميمه (مسجد عمرو فى مصر القديمة) ، وأصبح الكارميون هم طبقة البورجوازية الحقة فى مصر فى العصور الوسطى . واستمروا فى الانتعاش حتى حطم جشع آخر سلاطين المماليك تنظيمهم فى القرن الخامس عشر . وفى سنة ١٤٣٢ صادر برسبای كل مخزونهم من الفلفل وباعه بسعر الجمل ٨٠ دينارا ذهباً أعطاهم منها ٥٠ فقط .

وكانت السياسة الاحتكارية التى اتبعها المماليك فى معاملتهم للكارميين سبباً فى تدهورهم حتى أصبحوا مجرد وسطاء فى المعاملات التجارية . وتناقص عددهم وفقدوا اهتمامهم فى أنشطتهم السابقة حتى أن مؤرخ القرن الخامس عشر ابن تغرى بردى يسجل انه لم يكن هناك من الكارميين من كان يجرؤ أو يهتم بالظهور فى الأسواق المصرية فى سنة ١٤٥٥ . وكان تدهور نظام الكارميين عنصراً أساسياً فى تدهور مصر فى العصور الوسطى وتجارتها .

وكانت أوروبا أسعد حظاً فى نموها التجارى المستقل فى البندقية وجنوه وفلورنسا وبيزا والمدن الايطالية الأخرى ، وكذلك فى الشمال حيث كان هناك اتحاد الهانسى . وكان واجب الدول الاساسى فى هذه البقاع هو المراقبة والحماية اللتان كانتا تبسطان لمصالح كل تاجر أو مجموعة من التجار داخل حدودها . وان تاريخ كل من هذه الدول هو أساساً تعداد لانتصاراتها التجارية ، وكان أعضاء مجالسهم النيابية هم

(*) المثقال الواحد يساوى حوالى ١/٢ درهم وبمعايير الوزن الحديث يساوى ٤.٦٦ جرام . فاذا كانت الأرقام المكتوبة فى المرجع الاصلى صحيحة فان وزن الذهب الذى أنفق فى تلك المناسبة كان ٢٣٣ كيلوجرام . وهذا بطبيعة الحال مبالغه فى التقدير .

كبار التجار • وحتى الأسر الحاكمة مثل آل فيسكونتي ، وآل سفورزا في ميلانو وآل مدنيشي في فلورنسا كانوا أصلا من الطبقة العليا من التجار • اذ أن الثروة الهائلة التي كانت هذه المدن تجنيها من تجارتها مع الشرق كانت تمنحها القوة ، وبلغ ما وزع من أرباح تجارة سفينة من البندقية كانت تحمل حريرا وتوابل وفلفل مقدار ١٠٠٠ ٪ •

ويخرج عن نطاق هذا البحث أن نتحدث بالتفصيل عن المصارف وأرباح البيوت التجارية في هذه المدن ، اذ أنها كلها تتعلق بالتجارة في ناحية أخرى من النواحي • فسجلات البندقية وجنوا وفلورنسا وغيرها تمدنا بما يكفى من معلومات وأسناد رسمية مكتوبة عن حجم التجارة وثراء التجار الذين وصلوا الى قمة الثروة في العصور الوسطى •

ومدينة صغيرة قليلة الأهمية مثل براتو كانت موطن لفرانسيسكو دي ماركو داتيني (١٣٣٥ - ١٤١٠) ، وكان مليونيرا انتشرت بيوته التجارية خارج موطنه الى فلورنسا وبيزا وجنوا وأفينون واسبانيا ، وميورقة - وكان كشف سجلاته بما فيها من معلومات تكاد تكون كاملة ، مجالا خصبا بمد المؤرخين الاجتماعيين والاقتصاديين بنماذج فريدة من سجلات التجارة في العصور الوسطى •

وتتكون هذه المواد من ١٥٠ر٠٠٠ رسالة ، وأكثر من ٥٠٠ دفتر حسابات ، و٣٠٠ وثيقة خاصة بالشركات و٤٠٠ وثيقة تأمين ، وبضعة آلاف فاتورة ، ورسائل توصية وصكوك • وفي وقت ما كان هناك تنافس بين فرنسا والمدن الايطالية حول التجارة الشرقية • فقد طغى اسم جاك كور من بروج الذي أصبح من كبار الرأسماليين في العصور الوسطى على الأسماء الشهيرة (*) ، كما طغى اسمه على آخرين من الأعلام الذين أصبحوا اقزاما الى جوار جاك كور •

Bonis Frères of Montauban
Boyssel Frères of St. Antonin in Rouergue
=

(*) مثل

وقد ولد جاك فى أسرة من التجار قرب نهاية القرن الرابع عشر ،
ونشأ وتدرج فى تجارة الفراء التى كان يعمل فيها أبوه فى مدينة بورج
وهى مقر الأسرة المالكة فى ذلك الوقت من حرب المائة عام . وقد بدأ
حياته بتكوين شركة للآتات مع شريكين وتعهد أنات الملك ، ثم بدأ أول
تجربة له مع التجارة فى الشرق عندما ذهب الى الاسكندرية على ظهر
سفينة من ناربون فى بعنة مشتركة من البندقية وفلورنسا وجنوا وكنالونيا
لينتري التوابل . وفى طريق عودته تحطمت سفينه ونهبت على شاطئ
كورسيكا . وبنفوذه فى الأسرة المالكة وبمهارته وقدرته استطاع أن يبني
أسطولاً خاصاً له من أربع سفن اسمها سان ميشل ، سان أون ، سان
جاك ، مادلين . وأبحرت سفينه الى الشرق . وكان يتجر فى الرقيق
والتوابل والحراير والسجاد والعطر العربى والفخار الصينى . وزادت
ثروته وتضاعفت حتى وصلت الى درجة خيالية ، واستطاع أن يعقد
المعاهدات وحده مع سلاطين المماليك ورؤساء فرسان القديس يوحنا فى
رودس وسلاطين تركيا . وكان له مئات من الوكلاء فى جميع أنحاء الشرق
وكان له مقر دائم فى فرنسا فى بورج ، وليون ، ومونبيليه ، ومرسيليا .

وظل حتى النهاية يؤدى ضريبة سنوية تصل الى ١١ر٠٠٠ فلورين
ذهب . ولم يكتف بشراء البضائع الشرقية ولكن ذهب الى الشرق واشترى
مصانع بأكملها حتى تنتج له البضائع دون وسيط . بل انه أقنع الملك
أن يمنحه حق التنقيب عن الفضة والنحاس والرصاص فى بوجوليه ،
وليونيه ، وتشسى وذلك مقابل مائتى جنيه و ١٠/١ من صافى الربح .
وقد قال أحد معاصريه ان جاك كور استطاع أن يجمع من الثروة أكثر
من سائر التجار مجتمعين فى المملكة الفرنسية ، وما زال قصره فى بورج

Ponce de Chaparay of Lyons
Raymond Seraller of Narbonne
Jacques Olivier of Bearn
Hugo Teralh of Forcalquiei in Arles

متحفاً فائماً دليلاً على هذا الثراء الخيالي . وكان له نظامه الخاص من حمام الزاجل لتسهيل الاتصال المباشر مع وكلائه وممثليه فى الجهات النائية من البلاد . وما زالت أبراج الحمام فى قصره ؛ ولعله كان يحاكي هنا طريقة الادارة المصرية التى كانت معروفة فى الاسكندرية والشرق الأدنى .

وقد قدرت ثروته المعروفة بمليون Mécus ذهب [عملة فرنسية] وكثيراً ما كان يمد الملك والنبل بما يحتاجون اليه من نفقات . وقد مول حملة الملك شارل السابع على نورماندى فى ١٩٤٩ - ١٤٥٠ ، ودفع للملك ٦٠.٠٠٠ قطعة ذهبية من أجل حصار شيربورج عام ١٤٥٠ .

وفى العام نفسه يبدو أن ثروته الهائلة تسببت فى الاسراع بسقوطه . فقد وجهت اليه اتهامات صحيحة وباطلة من بينها اتهامه بسك عملة مزيفة ، وبيع السلاح للأتراك الذين كانوا يهددون آخر معاقل البيزنطيين فى القسطنطينية ، وارجاع رقيق من المسيحيين الهاربين الى السلطان المملوكى . وكان هناك سبب لعله كان يكون أقوى الأسباب فى نظر الملك ، ألا وهو الادعاء بأنه سمم عشيقته الملك واسمها « أجنس سورل » وكانت قد ماتت فى الواقع وهى تضع طفلاً ، وتركت وصية عينت فيها جاك كور منفذ لها . وتدخلت الكنيسة والبابا نيكولاس الخامس (١٤٤٧ - ١٤٥٥) لحمايته من الملك ، ولكن بلا جدوى ، واستمرت محاكمة جاك ثلاث سنوات قضاها فى السجن وأخيراً أعلن الملك شارل السابع ادانته وحكم عليه بالموت فى ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ وهو اليوم الذى احتل فيه الأتراك مدينة القسطنطينية . وارضاء للبابا استبدل السجن بحكم الموت وأخلى من ثروته كلها ، ثم حكم عليه بالنفى المؤبد . وفى عام ١٤٥٤ هرب من المنفى وكانت ثروته لا تزال فى المزداد واتخذ ملجأ له فى مدينة الفاتيكان فى روما حيث رحب به البابا نيكولاس الخامس وكذلك البابا كالستس الثالث الذى خلفه (١٤٥٥ - ١٤٥٨) . وعينه قائداً لسفينة بابوية كان مزماً أن تحارب الأتراك فى الشرق ، ويقال انه مات فى خيوس فى العام نفسه .

وهكذا نجد أنه ليس من الصعب أن نعقد مقارنة بين السياسة التي اتبعت في مصر تجاه الرأسماليين الكارميين وبين السياسة التي اتبعتها الملوك الفرنسيون ازاء جاك كور . وكان التجار في الجماعات الحرة والنقابات محصنين من مثل هذه الكوارث ، فقد كان سقوطهم وتدهورهم نتيجة لظروف خارجة عن ارادتهم ، ظروف في التاريخ العالمى وليست ظروفًا ناتجة عن تدخل محلي أو عن أهواء الملوك والأمراء .

التدهور

بدأ تدهور تجارة البحر الأبيض المتوسط واضحا قبل نهاية القرن الخامس عشر وليس عسيرا أن نتبين أسباب التدهور ، ففي مصر قضى نظام الاحتكار التجارى الذى مارسه سلاطين المماليك الأواخر على كل نشاط الجماعة الكارمين الخيرة ، كما بعث اليأس فى قلوب التجار الغربيين . فقد عجز تجار البندقية عن أن يبيعوا التوابل والفلفل فى أوروبا بأسعار السلطان العالية . وإلى جانب ذلك كانت هناك دائما محاولات لقوى أخرى لكشف طرق جديدة للوصول الى منابع التجارة الشرقية فى الهند .

وأخيرا استطاع البرتغاليون بقيادة فاسكو دى جاما أن يدوروا حول رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨ . وظهرت أساطيلهم فى المحيط الهندى ، ولعبت دورا مدمرا مع البحارة العرب . وشن آخر سلاطين المماليك قانصوه الغورى (١٥٠٠ - ١٥١٦) حربا بحرية ضد البرتغاليين وانتهت بهزيمة مرة لأسطوله سنة ١٥٠٤ ولكنه عاد يأخذ بشأه سنة ١٥٠٨ بقتل لورنزو الميدا فى البحر ، وسرعان ما شهد العالم التالى الهزيمة الساحقة للقوة البحرية المصرية على يد والد لورنزو وهو دوم فرانسيسكو دى الميدا (١٤٥٠ - ١٥١٠) وكان حينئذ محافظا برتغاليا فى جنوا . وحل محله الفونسو ألبوكرك (١٤٥٣ - ١٥١٥) وكان أول مغامر أوربى يدخل البحر الأحمر من الجنوب ويهاجم ميناء عدن التى كانت مفتاحا للبحر الأحمر . ورغم أنه أخفق فى احتلاله كرة بعد كرة فإنه استطاع فى عام ١٥١٥ أن يحتل أرمن ويضمن السيطرة البرتغالية على المحيط الهندى . وفى ذلك الوقت كان السلطان قانصوه ما زال يحلم بأعداد حملة ثانية ضد الأعداء الجدد المرعبين حتى أنه كان يتفاوض مع البندقية لتحالف ضد البرتغاليين عندما اضطر فجأة للقتال مع الأتراك وتحطم حلمه كله عندما وقعت مملكته فى يد العثمانيين سنة ١٥١٧ .

وجدير بالذكر أن أهالى البندقية اقترحوا فى ذلك الوقت حفر قناة السويس لتربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط . وكان تحقيق مثل هذا المشروع جديرا بأن يمكن سفن البندقية من أن تواجه البرتغاليين فى المياه الشرقية مواجهة فعالة . ولكن الفكرة ظلت رهن الدراسة حتى اختفى قافصوه المتردد من الصورة اختفاء تاما عندما أزاله من الوجود خصمه العثماني سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠) . وبمجيء الأتراك انحدرت مصر الى الصف الثانى فى الشئون العالمية ، وأصبحت القسطنطينية هى مركز العالم الاسلامى الجديد . وأقام العثمانيون حاجزا جديدا فى وجه التجارة الشرقية . وكان عداؤهم للمسيحيين فى أوروبا وخاصة البندقية الى جانب القراصنة المغاربة تحت قيادة خير الدين بربارسا فى البحر المتوسط مما سبب وقف تجارة أوروبا مع الشرق الأوسط .

وفى هذا الوقت جاء كشف أمريكا عام ١٤٩٢ ، وبدأت مجالات واسعة أمام قوى شواطئ الأطلنطى ، وبدأت أسبانيا والبرتغال تحلان محل الجمهوريات المتهاوية . البندقية وجنوا وسائر الجماعات التجارية فى جنوب البحر الأبيض المتوسط . وهكذا فتحت صفحة جديدة وبدأت الشمس تغرب عن الشرق الأوسط ليحل محلها فجر جديد فى تاريخ غرب أوروبا .

الفصل السادس

الثقافة العربية والغرب في العصور الوسطى

تنقسم الفترة المضيئة في تطور التاريخ العربى الى ثلاث مراحل رئيسية . المرحلة الأولى مرحلة الفتح عندما توحيد العرب تحت راية الاسلام لأول مرة فى تاريخهم الطويل الذى كان يكتنفه بعض الغموض، وغامروا وفتحوا البلاد فى كل اتجاه بقوة جبارة وأخضعوا المناطق المحيطة بهم لحكم امبراطوريتهم الجديدة . وكان بين أبناء الصحراء وجيرانهم صلات وتعارف ، وكانت لهم مشاركة فى الحضارة الرائعة التى تحيط بصحرائهم العاحلة . فقد عرفت القبائل العربية فى الحيرة على الحدود الشرقية لشبه الجزيرة العربية الحضارة الساسانية التى كانت تمتد من بلاد الفرس عبر الوديان الخصبة فى دجلة والفرات . بل كانت الحضارة البيزنطية فى الشمال معروفة أكثر من الحضارة الفارسية ، ولم يكن ذلك مقصورا على قبائل العرب المسيحيين أمثال بنى غسان الذين قطنوا حدود سوريا بل شمل قبائل البدو المتعددة فى داخل الجزيرة العربية نفسها .

وكان النبى محمد قد سافر فى صباه الى المناطق فى تجارة للسيدة خديجة أرملة مكة الثرية التى تزوجها بعد ذلك . ويقال ان عمرو بن العاص قد سافر الى مصر ووصل الى الاسكندرية حيث شاهد بدمشة وانبهار اشعاعات مدينة البطالة والاسكندر قبل أن يقود العرب منتصرين الى هذه

البلاد الغنية • وعندما شنوا الحرب - حرب الجهاد المقدس - ضد الفرس والبيزنطيين كانوا يعلمون حق العلم ضخامة التراث الذى سيوضع بين أيديهم • وكانت الامبراطوريتان العظيمتان القديمتان تتحاربان منذ ألف عام ، وقد أنهكت هذه الحروب قواهما حتى القرن السابع الميلادى قبل أن تخضعا فى فترة وجيزة للغزو العربى الجارف •

ومن الصعب فهم السرعة المدهشة التى انتشر بها الفتح العربى دون دراسة دخائل هذه الأمم التى كانت تعيش على ذكرى مجدها القديم الغابر • ومن العوامل الحاسمة فى حالة الامبراطورية البيزنطية عامل التقسيم الذى فرق بين المسيحيين الغربيين والشرقيين فى المجلس المسكونى الخامس فى خلقدونية عام ٤٥١ • فبعد هذا التاريخ بدأ الغرب سياسة تعذيب لا تتسامح مع مسيحيى الشرق الذين فقدوا بدورهم كل تعاطف نحو اخوانهم الغربيين • وأصبحت المسيحية عقيدة امبريالية وكمنت العوامل التاريخية من وراء الجدل الخلقدونى بين المذهبيين فى علم اللاهوت. مذهب ينادى بطبيعة واحدة ومشية واحدة ومذهب ينادى بوجود طبيعتين ومشيتين ، بحيث يمكن وصف ما حدث بأنه معركة قومية مضاف اليها نكسة تميل الى الاتجاه البدائى فى ديمقراطية المسيحية فى الشرق ، هذا وفى الناحية الأخرى نجد الحكومية الامبريالية الدينية فى الغرب •

وكانت القسطنطينية عازمة على تزعم المجلس المسكونى وأن تصبح السلطة الرسولية الوحيدة ؛ وهذا يرتبط الى حد كبير بالاسكندرية وأنطاكية • وكانت نتيجة هذا الشقاق فى الكنيسة العالمية نشأة بطريركية طائفة الملكانيين مع ميل كبير تجاه الامبراطورية ، وكان فى ذلك تحدد للاتجاهات الاستقلالية التقليدية بين بطريركيات الأقاليم فى الشرق سواء عند الأقباط أو السريان أو الأرمن •

وكان تعيين جوستينيان لشخص واحد يجمع فى يديه السلطة الدينية الى جانب الدنيوية لكل من أمور مصر وبطريركية الاسكندرية مسبيلا

الى التفرقة الكاملة بين الأقباط المسيحيين المصريين وطغاتهم البيزنطيين ،
وذلك فى لحظة حاسمة حرجة عندما هاجم العرب المسلمون حصن
« بابلون » فى بداية صيف عام ٦٤٠ (*) .

وكان نتيجة هذا الموقف الضنك أن التزمت مصر الحياد بين المتنافسين ،
واضطر المقوقس البطريك الملكانى والى مصر البيزنطى أن يسلم مصر
للعرب بعد سقوط سوريا وغزو بلاد الفرس . وهكذا بعد خمسين عاما
من ظهور الاسلام ضمت امبراطورية العرب مساحات شاسعة تمتد من
المحيط الهندى الى شواطئ الأطلس .

وكانت المرحلة الهامة الثانية هى مرحلة الانشاء . فقد بدأ العرب
يستقرون بقوة ايمانهم وشعورهم بالعدل الى جانب احترامهم البالغ لنظم
الحكم القائمة وتقديرهم لتفوق الحضارات القومية ، واطمأنوا فى هدوء
وانسجام مع رعاياهم فى هذه الامبراطورية التى غنموها ، وكان يميز
سلوكهم تجاه الشعوب التى قدر لهم أن يعيشوا معها عدة قرون مزيج
من البساطة والتواضع والشهامة والنجدة . وكان كل ما أسهموا به فى
حضارات هذه الدول فى هذه الفترة مقصورا على اللغة والعقيدة فان أولئك
القادمين من صحرائهم الجرداء قد اعتزوا بلغتهم العربية وعقيدتهم
الاسلامية . وكانت القدسية التى استثمرها العقل العربى فى اللغة

(*) استمر حصار بابلون سبعة أشهر . واستولى عليه العرب فى
أبريل سنة ٦٤١ م . وتم فتح مصر بعد سقوط الاسكندرية فى السنة
التالية .

وهناك مواقع أخرى فاصلة فى حروب العرب وهى :
Pentapolis or Cyrenaica التى استولى عليها عام ٦٤٢-٦٤٣ ،
معركة كربلاء عام ٦٩٨ ، وأسبانيا التى تم فتحها عام ٧١١م والاغارة على
جنوب فرنسا عام ٧١٧ . وكانت موقعة لورز (بواتيه) هى المعركة
التي أوقفت زحف العرب على أوروبا وكان ذلك عام ٧٣٢ ضد شارل مارتل
كما وقف الزحف على شرق أوروبا عند القسطنطينية عام ٧١٧ أثناء حكم
ليو الايزورى .

والعقيدة قد ظهرت واضحة في القرآن ، وهو نص مقدس شمل القواعد والنظريات في الدين الجديد باللغة العربية الخالدة .

وكان من المفروض على المسلمين عامة أن يقرأوا كتاب الله في نصه الأصيل ، أو على الأقل يرجعون اليه ، وهكذا أصبح التراث العربى للأجيال المتعاقبة مرتبطا باللسان العربى والعقيدة الاسلامية معا .

أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة الاندماج . فبعد استقرار العرب في امبراطوريتهم تبع ذلك فترة بدأ العرب فيها حصاد ثمار الحضارات الأسمى من حضارتهم والتي أصبحت عندئذ تحت قيادتهم . وبمعكس الهمج البرابرة الذين غزوا الامبراطورية الرومانية في أوربا ، وكذلك بعكس المغول في الشرق الأوسط ، لم يفعل العرب المسلمون مثلما فعل أولئك وهؤلاء في المناطق التي احتلوها ، ولكنهم حاولوا أن يصلوا الى المستوى الرفيع لهذه الجماعات سواء في الثقافة أو في شئون الحياة والعمران .

وهكذا استغل العرب المنابع الطبيعية وكذلك التراث الفكرى لمثل هذه الأمم . وعندما نتحدث عن معجزة الثقافة العربية نجد أنه من الضرورى أن نتذكر طبيعتها وتكوينها من عناصر مختلفة . ولا يبدو هذا واضحا في أثر المجالات الواسعة من أغريق وفرس فحسب ، بل يتساوى معهما أثر العناصر الأكثر محلية مثل الفكر والفن القبطى والسريانى والنسطورى والهندي . وكان العرب يتجاوبون مع كل هذه الحضارات القديمة والعظيمة ببساطة لا يماثلها في التاريخ البشرى الا ما فعله اليابانيون من اندماج وتأثر بالوسائل العلمية والتكنولوجية الغربية خلال العصر الماچى(*) (١٨٦٨ - ١٩١٢) كما أشار بذلك الأستاذ جورج سارتون . وليس القياس هنا كاملا في كل التفاصيل ؛ اذ أن اليابانيين اقتصروا في تقبلهم

(*) Meiji وهو العصر الذى حكم فيه الامبراطور موتسوهيتو بلاد اليابان .

للحضارات الأخرى على حدود اليابان ؛ على حين أثبتت انجازات العرب المدهشة أنها ذات أثر فى التقدم العالى للعقل البشرى واسهمت فى نشر الحكمة والعلم القديم .

وأصبحت كلمة (عربى) تحوى معنى أكثر اتساعا من مجرد معناها العنصرى الأصلى كما كانت الحال فى أسرة الأمويين فى دمشق . وقد ظهرت حركة الثقافة العربية فى ذروتها فى حكم العباسيين فى بغداد حيث كانت النظرة الفارسية سائدة أكثر من العربية ، ومن هناك انتقلت معجزات العقل الاغريقى وكذلك الحضارة الاغريقية الى الأجيال اللاحقة . والواقع أن الثقافة العربية أصبحت ملتقى تيارين فكريين عظيمين قديمين كان كل منهما يتطور على حدة خلال العصور السابقة . ففى ناحية نجد ثقافة اليونان بل اننا اذا تعمقنا فى التاريخ القديم وجدنا الحضارة المصرية القديمة الى جانب حضارة الاغريق ؛ وفى ناحية أخرى نجد السومرية والفارسية والهندية . وأصبح التكامل والاندماج فى هذه الممالك الفكرية المتفرقة هو الهدف الأساسى للعرب . وهكذا كانت نشأة الحضارة العربية نتيجة للتداخل والامتزاج بين هذه الانجازات الفكرية التى حققتها أمم قديمة .

ومع ذلك فمن الخطأ أن نحسب أن جهد العرب قد اقتصر على نقل المعرفة القديمة . ففى الصفحات القادمة سوف نرى أن الدارسين والمعلقين العرب قد ضربوا بسهم وافر فى الأصالة وحققوا درجة عالية من الابتكار، على حين كان الاغريق ينتكسون ويرقدون فى غيبوبة العصور الوسطى المظلمة ، وكان الرومان الورثة المباشرين لسياسيا للاغريق فى الغرب ، وكانت نظرتهم النفعية سببا فى التقليل من قيمة المثالية الاغريقية الناهضة، وكانت نشأة المسيحية فيما بعد فى الامبراطورية تبعدهم عن الفكر الوثنى القديم وتوجه الى عقيدة جديدة تنقلهم من المشاكل الدنيوية الى سماوات الخلود . وهكذا أصبح العرب بمعنى ورثة الحضارة اليونانية فى الأرض ولو عن طريق غير مباشر .

عصر الترجمة

بدأت الثقافة العربية بنقل منظم للكتب الفلسفية والعلمية التي وضعها كبار الفلاسفة والعلماء القدامى من اللغة اليونانية الى العربية .
فقد أمر الخلفاء العباسيون بحماسهم المعهود بأن يتم نقل كل عمل جدير بالنقل مهما تبلغ تكاليفه . وقام بتنفيذ ذلك اليعاقبة السوريون والنسطوريون المسيحيون بما لهم من مهارة وكفاية فى كل من اليونانية والسريانية والعربية . ثم جاء المأمون وأنشأ بيت الحكمة فى بغداد عام ٨٣٠ معهدا للبحث والدرس ومركزا عظيما لنشر النشاط ومتابعة العلوم والترجمة . ويعتبر بيت الحكمة أول أكاديمية حقيقية للدراسة فى العاصمة الاسلامية . ثم أرسل الخلفاء بعثات خاصة الى القسطنطينية لنقل الأصول الخطية اليونانية لترجمتها الى اللغة العربية . وهناك حالات لوحظ فيها أن سفراء الخلافة كانوا يسامون فى معاهدات الصلح مع البيزنطيين من أجل الحصول على بعض الأصول اليونانية للعرب .

وهذه الضغوط الدبلوماسية على أعلى المستويات من أجل تقديم الدراسة العربية تكاد تكون فريدة فى التاريخ . وربما كانت الحالة الوحيدة المشابهة والجديرة بالذكر هى ما يعزى الى فيلادلفس من البطالسة فى القرن الثالث قبل الميلاد فانه حين لم يقنع باستيراد الوثائق الخطية من مدن اليونان ، أمر بتفتيش كل السفن التى ترسو على شواطئ الاسكندرية ، ومصادرة كل الأوراق المكتوبة وايداعها مكتبة ميوسيون Museon بالاسكندرية وهكذا يمكن القول بأن أكاديمية المأمون فى بغداد كانت أول حركة انعاش للجو العلمى الذى اندثر منذ متحف ميوسيون فى الاسكندرية .

وقد بدأت حركة الترجمة من الفارسية لا من اليونانية على يد عبدالله بن المقفع ، وهو فارسي مسلم عرف بقدرته وبلاغته الفائقة في اللغة العربية ، بدأ بترجمة كليلة ودمنة وهو من الأدب الايراني الكلاسيكي الى اللغة العربية . وقد كان ابن المقفع مولى عيسى بن علي عم السفاح (٧٥٠ - ٧٥٤) أول الخلفاء العباسيين ، وكان الكتاب المذكور مترجما عن الهند البوذية . كذلك ترجم ابن المقفع حياة ملوك الفرس « سير الملوك العجم » عن أصلها « خوداي ناما » الذي استخدمه الشاعر الفارسي الخالد الفردوسي في تأليف قصته الشهيرة « شاه ناما » . ونحن لانعرف النص العربي القديم الضائع الا خلال بعض فقرات حفظها ابن قتيبة في سجلاته التاريخية « عيون الأخبار » . ثم انزلق ابن المقفع بعد ذلك في السياسة في عصره وكانت لعبة خطيرة ، حتى نفذ فيه حكم الاعدام حوالي ٧٥٧ - ٧٥٨ أيام حكم المنصور (٧٥٤ - ٧٧٥) . وبرغم أنه كان فارسيا فان أسلوبه مازال يعتبر من روائع الاساليب في اللغة العربية .

وجاء هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩) ليظهر ميولا فارسية أكثر مما أظهره من سبقوه . وكان مشغوبا بعلم الفلك الفارسي حتى قيل انه تبنى انشاء المرصد في جنديسابور . وقد عرف في كتابات أحمد النهاوندي في القرن التاسع الذي اشتهر بجمعه أول جدول شامل لعلوم الفلك « الزيج المسهتامى » استوحاه من ملاحظاته الخاصة . وعن طريق محاولاته الخاصة الأولية لدراسة الفلك والرياضيات الهندية والفارسية اهتم الخليفة بتوسيع مجالها ليشمل اليونانية .

وقد بدأت القصة برسالة هندوسية عن الفلك والمعروف باسم سدهنتا Siddhanta وبالعربية « سندهند » . كما ترجمه محمد بن ابراهيم الفزري (٧٧١ م) الذي جمع أيضا الجداول الفلكية السسمانية (الزيج من الزك الفارسي) وكان أول عربي يقيم معملا فلكيا على النمط الاغريقي . ولنقص الدراسة والفهم لمبادئ الرياضيات وعناصرها بين العرب أمر

هارون الرشيد بترجمة Syntaxis الذي ألفه كلوديوس البطلمي المعروفة بالعربية « المايسست » والتي تستعرض المقومات والأدلة لعلم الفلك كذلك وجدت مبادئ اقليدس طريقها الى اللغة العربية بفضل سلطة الرشيد وتوجيهه .

وصل العرب أخيرا الى أرسطو وربما كان ذلك عن طريق أصول سريانية اذ كانت كل أعمال أرسطو محفوظة . وهذا العمل مرتبط باسم يحيى أو يوحنا بن البطريق سنة ٨١٥ . وفي عام ٨٣٥ ترجم مسيحي آخر من حمص اسمه عبد المسيح ما يعرف باسم « علم اللاهوت عند أرسطو » من كتاب مختصر لبلوتينس Plotinus وعند اقامة أول مستشفى في عصر الرشيد ، صدرت الأوامر بترجمة أعمال أبوقراط وجالينوس في الطب .

وقد شارك جعفر البرمكي وكان وزيرا ذا نفوذ في تشجيع الترجمة فأجزل العطاء للباحثين والدارسين . وواصل الخليفان الأمين (٨٠٩ - ٨١٣) والمأمون (٨١٣ - ٨٣٣) حماسهما وتشجيعهما وولاءهما لرعاية أبيهما للعلوم الاغريقية . وكان للمأمون حقا عدد كبير من الباحثين كان يرعاهم في بيت الحكمة الذي أصبح بالتدريج متحفا للمخطوطات .

وبدأت صناعة الورق في بغداد منذ عام ٧٩٤ وبدأ استعماله ليحل مكان اللفائف الجلدية الغالية الثمن وكذلك مكان ورق البردي المصرى الذى كان هشاً . وكان هذا اشارة بدء ثورة فى تاريخ مواد الكتابة ولتسهيل عمل الناقلين .

وقد كرم الخليفة فى قصره الأطباء النسطوريين الذين درسوا الطب اليونانى . وكان حنين بن اسحق مؤلف أول كتاب عن طب العيون عنوانه « عشر مقالات فى العين » وكذلك جبريل بن بختيشوع (٨٣٠ م) كلاهما كان يتمتع بتقدير كبير فى أعلى دوائر عصرهما . وقد توسع المأمون فأنشأ

ما نسميه بالعمل الميداني عندما أمر بمسح جغرافى للصحراء السورية قام به سبعون باحثا فيهم الخوارزمى مؤلف الكتاب المعروف برغم أنه مفقود « صورة الأرض » .

وكان حنين بن اسحق النسطورى (٨٠٩ - ٨٧٣) فخر عصر الترجمة . وهو ابن لصيدلى مسيحي من الحيرة . وقد تعلم العربية ثم تتلمذ على ابن ماسويه وطرده من دراسته لشدة فضوله . ثم ذهب الى اليونان حيث درس اللغة اليونانية الى حد الكمال ، وبعد ذلك استقر فى البصرة حيث واصل دراسته على يد خالد بن أحمد حتى عام ٨٢٦ وهو العام الذى انتقل فيه الى بغداد وأصبح تابعا لطبيب الدولة جبريل وعن طريقه نقل كتاب جالينوس فى الطب الى العربية والسريانية . واستقر حنين ألمع المترجمين فى عصره فى بيت الحكمة حيث أحاط به مدرسة من الباحثين الجدد وفيهم ابنه اسحق (٩١١) وابن أخيه حبيش بن الحسن وعيسى بن يحيى بن ابراهيم الذى بذل جهدا كبيرا فى ترجمة العديد من الأعمال اليونانية . ويقال ان حنين وحده ترجم من الأعمال مائة برغم ان القليل منها فقط هو الذى بقى حتى الآن . فالى جانب طب أبو قراط ترجم حنين كتاب « المبادئ » لمؤلفه Dioscorides أو المعروف باسم "Materia Medica" الذى كان يحوى صورا رائعة فى المخطوطات العربية . وقد ترجم اسطفانوس بن باسيلوس وهو من تلاميذ حنين هذا الكتاب أولا الى اللغة السريانية ثم ترجمه الى العربية أما حنين ، أو ابنه أو حبيش ابن أخيه .

ومن المترجمين كذلك يوسف الخورى وقد كان قسيسا ونقل مثلثات أرشميدس الى العربية من نسخة سريانية حوالى ٩٠٨ ، ثم راجعها بعد ذلك ثابت بن قره . وكان معاصره فى بعلبك قسطه بن لوقا قد ترجم Hypsicles التى راجعها الفيلسوف العربى الكندى وكتاب ثيودسيوس "Sphaerica" والذى راجعه ابن قره و « الميكانيكا » لمؤلفها هرن ،

وكذلك كتاب "Metorora" لمؤلفه ثيوفراستس ، وكتاب « الفيزياء » عند أرسطو لمؤلفه جون فيليبونس ، ونسخة مراجعة من اقليدس • وعدة كتب أخرى • أما كتاب أرسطو عن الشعر فقد ترجمه أبو بشر متى بن يونس الجماعى (٩٤٠) وكذلك كتاب أمونيوس المسمى Prolegomena وكتاب بورفيرى المسمى "Isagoge" الذى كتبه الموحد أبو زكريا يحيى بن عادى المنطقى الذى توفى عام ٩٧٤ •

وقد نشأت مدرسة مشابهة لمدرسة حنين فى حران شمال العراق تحت زعامة ثابت بن قره (٨٢٥ - ٩٠١) وكان من الصابئة عبدة النجوم • وتتركز شهرته على قدرته الفائقة مترجما وعلى علو كعبه فى علم الفلك • وقد سجل بارهيريوس (ابن العبرى) فى أوائل القرن الثالث عشر ، أن ثابتا كان أستاذا فى اليونانية والسريانية والعربية وأنه وضع نحو مائة وخمسين مؤلفا باللغة العربية فى المنطق والرياضيات والفلك والطب ، كما أن له خمسة عشر مؤلفا آخر بالسريانية ، وشملت تراجمه ومراجعاته أعمالا لكل من ابولونيوس ، اقليدس ، بطليموس ، وثيودوسيوس وكتاب قدامى آخرين •

وهكذا سارت الثقافة العربية معتمدة على أساس متين من الفلسفة والتراث العلمى اليونانى ، وكذلك من الرياضيات والفلك الهندى والفارسى • وتحركت فى ثقة تجاه تحقيق أهدافها العليا فى الفكر الابداعى • فلم تعد مجرد معبر ينقل حكمة القدامى ولكنها حققت نضجا كافيا لان تترك وراءها آثارا فكرية مستقلة فى مجالات متعددة وكذلك وصلت فى غضون خمسة قرون معجزة الفكر العربى الى مستويات عليا تفوق التصور بدأت أولا بالترجمة • ويمكن أن نصف هذا العصر بأنه العصر الفضى وقد شغل أواخر القرن الثامن وكل القرن التاسع وبداية القرن العاشر • ثم لحقه العصر الذهبى قرب نهاية القرن العاشر وامتد

الى القرن الحادى عشر ومعظم القرن الثانى عشر • وخلال هذه الفترة
يمكننا أن نحس وجود مركزين اسلاميين للثقافة : بغداد فى الشرق ،
وقرطبة فى الغرب • ويجدر أن نوضح باختصار النواحي الرئيسية لهذه
الصورة المضيئة وأثرها فى تقدم العالم فى مختلف النواحي الانسانية
والعلم والفلك والطب والفن والهندسة •

الفلسفة واللاهوت

قامت المدرسة الاسلامية فى الفلسفة على أساس من أرسطو ، وضعة عربى قح هو أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندى فيما بعد عام ٨٧٣ . وقد عينه الخليفة المأمون معلما خاصا لابنه وخليفته المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢) . ويعتبر الكندى مؤسس المدرسة العربية للارسطوطالية بما فى المعتزلة أو المدرسة المتحررة لعلماء اللاهوت الذين تقبلوا نظريات أرسطو الفلسفية حتى لو عارضت ظاهر نصوص القرآن . وعندئذ كانت تعتبر رمزية أو استعارية . وقد أدى اشراف المأمون وخلفائه وتشجيعهم لهذه الحركة التحررية الى ضجة هائلة قام بها العرب المحافظون الذين عذبتهم السلطات . فقد استشهد أحد أئمة السنة الأربعة وهو ابن حنبل (٨٥٥) فى مناظرة عقدها الخلفاء لمحاكمة المفكرين الأصلاء وكذلك القادة .

وبرغم مقاومة المحافظين فان فلسفة أرسطو استمرت بكل قوتها ، ووجدت مؤيدين لها بين الكتاب العرب ومنهم الفارابى (ويعرف باللاتينية باسم « الفارابيوس ») الذى يعتبر رائدها العظيم الثانى . وكان أبونصر محمد الفارابى (٩٥٠) عضوا فى حاشية أمير حلب سيف الدولة المشهور بحبه للأدب . وسمى الفارابى المعلم الثانى بعد أرسطو لأعماله الرائعة الواسعة فى مجال الفلسفة . وأصبحت كتابات الفارابى وتعليقاته على أرسطو وأفلاطون مرجعا مهما ، وظلت كذلك عدة قرون . والفارابى فى مبدأ أمره تحول الى مفكر مادي لا يؤمن الا بالماديات ثم أصبح بعد ذلك زاهدا وبعد ذلك تطور وعاد محافظا متدينا . وكان مذهبه الفلسفى يحمل طابع كل من فلسفة افلاطون وأرسطو الى جانب فلاسفة الاسلام المتزهدين ، ومن كتبه التسعة والثلاثين كتابه « احصاء العلوم » وهو يحتوى على

ملخص لكل معارف عصره . اما فى بحثه بعنوان « المدينة الفاضلة » وقد استوحاها من « جمهورية افلاطون » ومن كتاب « السياسة » لارسطو ، فقد كان الفارابى يرى القانون الطبيعى فى صراع دائم مع كل تنظيم آخر . وفى نهايه مناقشته للعلوم السياسية توصل الى نتيجة هى أن كل نظام ملكى مستنير قائم على مبادئ خلقية ودينية قوية هو أحسن فرصة لانقاذ العالم من قانون الغابة . وقد عرف الفارابى كذلك بأنه كان طبيبا وعالم رياضه وربما كان أعظم مؤلف عربى فى الموسيقى فى أيام الخلافة (*) .

وبعد ذلك نأتى الى أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧) وهو أعظم تلاميذ الفارابى ويعرفه الغربيون باسم (أفسينا Avicenna) وقد كان مؤلفا موهوبا فى مجال الطب والفلسفة . وكان ابن سينا مواطنا من بخارى فى آسيا الوسطى ، وطبقت شهرته الآفاق فوصلت الى اسبانيا حتى أن راي蒙德 كبير أساقفة طليطلة أمر كل من : شماسه الدومينكانى واسمه جنديسالفى وطالب يهودى معتنق للمسيحية اسمه جوان افنديث من أشبيلية [فى جنوب اسبانيا] أن يتعاونوا فى ترجمة أعمال ابن سينا الى اللاتينية خلال الفترة من ١١٣٠ - ١١٥٠ . وقد اجتهد ابن سينا لانقاذ العقيدة فى التوفيق بين وجود الله والنظريات

(*) كتب الفارابى مؤلفا ضخما فى الموسيقى هو « كتاب الموسيقى الكبير » وقد ترجمه الى الفرنسية R. d'Erlanger تحت عنوان La Music Arabe أى الموسيقى العربية وذلك فى ٦ مجلدات . وطبعت فى باريس بين عامى ١٩٣٠ ، ١٩٥٩ . ويمكن للقارئ الرجوع الى ما كتبه H. G. Frammer تحت عنوان : "The Sources of Arabian Music" أى مصادر الموسيقى العربية وطبع فى اسكتلندا عام ١٩٤٠ . وكذلك مقال بعنوان : Oriental Influences on Occidental Military Music. أى المؤثرات الشرقية على الموسيقى العسكرية الغربية وظهر هذا المقال فى « الثقافة الاسلامية » العدد ١٥ عام ١٩٤٥ (ص ٢٣٥ ، ٢٤٢) . وقد كان الفارابى نفسه موسيقيا ممتازا .

الفلسفية لاثبات الألوهة دون معارضة الفلسفة وبذلك وضع الأسس التي بنى عليها ابن رشد (الذى يعرفه الغربيون باسم Averroes نظرياته فيما بعد فى الأندلس فى القرن التالى لابن سينا • والواقع أن أثر ابن سينا ظل ملحوظا فى مراكز العلم المختلفة فى أوربا • وقد اتبع منطقته الذى يعتمد على البدء من المعلوم الى المجهول الفيلسوف المدرسى البرتوس ماجنوس وكانت دراساته فى الميتافيزيقا ومناقشاته لطبيعة الله والخلق سببا فى نشأة كثير من التأملات والدراسات فى الحضارة الغربية •

وهناك آخر من المفكرين العرب تكاد تتساوى فلسفته ونفوذه على العلم الأوربي مع تأثير ابن سينا هو أبو حامد الغزالي (١٠٥٨ - ١١٠٩) وكان يعرف فى الأدب اللاتينى باسم "Algazel" • وكان يعلم فى بيسابور وبغداد حيث جعلت منه مغامراته الفكرية عن أرسطو ضحية للشك الذى دمر هدوءه الفكرى فترة من الزمن . ولذلك اعتزل عمله فى مدرسة بغداد وهجر الحياة العامة الى العزلة التامة • وفى النهاية أصبح زاهدا وبدأ يدرس نظريات الفلسفة المختلفة • وكانت دراساته التحليلية فى المنطق ، والفيزياء ، والميتافيزيقا موضع دراسة باللاتينية فى القرن الثانى عشر فى طليطلة ، فقد احتوت "Pugio Fidei" التى كتبها رايموند مارتن كيرا من مناقشات الغزالي فى بحثه « تهافت الفلاسفة » ويبدو واضحا أن نظرياته الفلسفية اتفقت مع الفكر الفلسفى والكلامى فى الدولة المسيحية فى العصور الوسطى •

وجدير بالذكر أن الغزالي نفسه فى فترة صراعه الفكرى وقع تحت تأثير جماعة من الفلاسفة والمفكرين فى البصرة كانوا يعرفون باسم « اخوان الصفا » • وقد انتعشت فلسفتهم فى النصف الثانى من القرن العاشر برغم أنهم كانوا متبوزين فى بغداد حيث وصفوا بأنهم طائفة شيعية ملحدة • وكانت رسائلهم الاثني والخمسين (رسائل اخوان الصفا)

تهدف الى أن تحتوى كل المعرفة المعاصرة فى ذلك الوقت فى نظام موحد يشمل الرياضيات ، والفلك ، والجغرافيا ، والموسيقى ، وعلم الجمال ، والعلوم ، والفلسفة •

وقد وصلت الفلسفة العربية فى الأندلس الى ذروتها فى القرن الثانى عشر فى أعمال أبى الوليد بن رشد الخالدة (١١٢٦ - ١١٩٨) وتعرفه الفلسفة المدرسية الأوروبية باسم أفيروس وكان من أهل قرطبة وقضى بعض حياته فى اسبانيا وبعضها فى مراكش حيث قضى أخريات أيامه وكانت فلسفته تمثل خليطا عجيبا فى تأثيره فى الشرق والغرب • فبينما كانت فلسفة ابن رشد تؤثر على أساس الفكر الأوروبى فى العصور الوسطى وظلت قوية حتى نشأة العلوم التجريبية ، لم تحظ بمثل هذا الحظ بين المسلمين • بل العكس نجد ابن رشد الأندلسى يتعرض للنقد اللاذع وكثيرا ما كان علماء الكلام العرب يتهمونه بالزندقة • الا أن المفكرين الانسانيين فى الغرب كانوا يعتبرونه أعظم معلق فى التاريخ على ارسطو ، وكتبه فى علم النفس والكلام والمنطق والقانون يجب اعتبارها اسهاما كبيرا فى الحضارة العامة فى العصور الوسطى •

ويبدو تأثير ابن رشد فى القديس توماس الكوينى (١١٢٥ - ١٢٧٤) فى بحثه الخالد " Summa Theologica " واضحا من مناقشاته حول مكانة الالهام بين العقيدة والمنطق • ورغم أن القديس توماس كثيرا ما انتقد المفكر المسلم عمدا وصغر من شأن فلسفته وخطأ من نظرياته فانه دون وعى وقع تحت تأثير ابن رشد • فقد كانت رسالة ابن رشد التى تنادى بأن العقيدة والمنطق لا يتعارضان ، وان النظريات الفلسفية يمكن أن نجد لها سندا من العقيدة ، كانت هى الأسس التى أقام عليها القديس المسيحى وعالم اللاهوت نظريته فى العصور الوسطى • وان الموازنة التفصيلية بين مناقشاتهما تدل على التقابل والتوازى بينهما ، حتى ليبدو استحالة افتراض المصادفة فيه • فلا بد أن فلسفة ابن رشد قد وصلت الى الاكوينى

مباشرة عن طريق الترجمة اللاتينية التي قام بها ميشيل سكوت في طليطلة قبل مولد القديس بوضع سنوات ، وكذلك بطريق غير مباشر عن طريق النسخ اللاتينية لأعمال الفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون (١١٣٥ - ١٢٠٤) الذي دون كتبه باللغة العربية كذلك . وجدير بالذكر أن ترجمة فلسفة ابن رشد قد هوجمت من السلطات الدينية إلا أنها كانت تنال صراحة تشجيع أساتذة جامعة باريس وتوصيتهم لطلابهم .

واستمر دارسو الفلسفة العربية في ازدياد في أوروبا وخاصة من القرن الحادى عشر الى القرن الثانى عشر . ومن بين هؤلاء أشهر أسماء العصر مثل جربرت من اسبانيا الذى أصبح البابا سيلفستر الثانى (٩٩٩ - ١٠٠٣) وأدهيمار من باث ، وهرمان من دالماتيا ، وميشيل سكوت ، ودانيال مورلى ، وروبرتس انجليكس ، وييتير المبجل . وكان الأخيران أول من عرف من كتاب العصور الوسطى بمحاولة نقل القرآن الى اللاتينية . وكانت مدرسة طليطلة في القرن الثانى عشر ، تلك التي كانت تخضع لأشراف ريموند كبير أساقفة طليطلة تعيد ذكرى أكاديمية الخليفة المأمون التي أنشأها في القرن التاسع وأسمائها (بيت الحكمة) في بغداد . وفي الوقت نفسه كان الفونس العاشر الحكيم ملك قشتالة وليون (١٢٥٢ - ١٢٨٤) قد منح وصايته وولايته لكل الدارسين من جميع الفئات ، وشجع حركة نقل الفلسفة والعلوم العربية الى اللغات الغربية . فترجم جيرارد من كريمونا واحدا وستين أصلا كانت للقراء موسوعة عالمية للفكر المعاصر .

فقد ترجم الأدب العربى أولا الى الأدب اللاتينى فى أسبانيا بمساعدة « المتأخرين » أى العرب الذين تخلفوا فى الأراضى المسيحية وراء المستعربين المسيحيين ، وكذلك عن طريق الباحثين اليهود الذين كانوا يتنقلون فى حرية بين العرب وجيرانهم الأوربيين . وعن طريق هذا النقل عن لغة الكلام تمت النسخ اللاتينية . وأصبحت كلمتا «فلسفة» و «عربية»

مترادفتين • فقد كتب روجر بيكون (١٢١٥ - ١٢٩١) وقد تأثر تأثرا بالغاً بالفلسفة العربية قائلا : *Philosophia ab Arabico deducta est* وتدين أوروبا لاعادة كشف أرسطو والفلاسفة الاغريق للعرب ، وذلك قبل ظهور النصوص الأصلية الاغريقية خلال عصر النهضة بعد سقوط القسطنطينية فى أيدي العثمانيين عام ١٤٥٣ • ومن الغريب أن بعض النصوص التى نقلت الى اللاتينية قد نقلت الى اليونانية بأمر من البابا وهكذا أصبحت الدائرة كاملة - من اليونانية الى اليونانية عن طريق اللغة العربية واللاتينية •

ويبدو أن الفلسفة العربية التى وصلت ذروتها فى القرن الثانى عشر قد توقفت بعد الغزالى فى الشرق وابن رشد فى الغرب ، وهذه ظاهرة من أغرب الظواهر فى تاريخ الحضارة • ومن الصعب أن نجد تفسيراً منطقياً نهائياً للتوقف والجمود الفجائى للفكر العربى • فهل كانت حالة عدم الاستقرار والفقر الناتجة من غزوات المغول فى الشرق الأوسط والأراضى المستشرقة فى اسبانيا سببا لذلك ؟ ليس هناك شك فى أن جموع المغول جعلوا من أراضى الخلافة الشرقية أرضاً همجية لكن كيف نفسر ذلك فى اسبانيا وقد كانت تحت حكم المستنيرين من الحكام مثل الفونسو الحكيم ؟ هل من الممكن أن نحسب أن انتصار التعصب على التحرر الفلسفى نتج عنه توافق فكرى للمستويات العادية لعلماء الكلام الطبيعيين ؟ أو أن السر فى هذا التخلف هو اختفاء الاشراف والولاية البيروقراطية لمراكز العلم الكبرى عن طريق الدولة والكنيسة - ودار الحكمة التى أنشأها المأمون فى بغداد ، ودار العلم التى أنشأها الحاكم فى القاهرة ، وبلاط الفونسو فى اسبانيا المسيحية ومدرسة طليطلة التى انتعشت بفضل جهود كبير الأساقفة ريموند ؟ وهل صحيح أن الفكر العربى فى لحظة ما أصبح مشبعاً حتى توقفت قدرته الابداعية وأصبح التدهور هو الطريق الطبيعى أو أن الأمر يرجع الى كل هذه العوامل والأسباب التى أفضت الى انهيار الفلسفة والحضارة العربية ؟ كل هذه الأسئلة ما زالت فى انتظار الاجابة •

وبرغم أن هذه المشكلة ما زالت رهن الدراسة فإن الحق لا يزال بافيا وهو أن أواخر العصور الوسطى شهدت هبوطا حادا في حمى الفكر العربى فيما عدا حالة وحيدة فى شخصية واضحة كالشهاب هى شخصية ابن خلدون عام ١٤٠٦ وهو فيلسوف عظيم فى كتابة التاريخ وأبوالدراسات الاجتماعية . ومع ذلك فإن شخصيته الرائعة التى لمعت فى أفق الثقافة العربية مرت دون أن يلحظها معاصروه سواء من المسلمين أو المسيحيين ؛ وقد كان مؤلفه كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والعجم والبربر فى سبع مجلدات ضخمة قد تضائل بازاء مقدمة الكتاب ؛ وفى هذه المقدمة يلخص ابن خلدون فلسفته فى التاريخ وعلم الاجتماع العمل . فقد كان يدرس العوامل الجغرافية والمناخية والطبيعية والروحية التى تحكم نشأة الامبراطوريات وسقوطها ؛ وكان يشرع القوانين التى تعمل فى مجرى الحوادث بفهم وعمق بصيرة لم يعرضهما أى مؤرخ فلسفى خلال العصور الوسطى . وكثيرا ما يوصف بأنه أول باحث فى علم الاجتماع ؛ وأنه مؤسس لعلم الاجتماع الحديث . ولكن ابن خلدون ظهر متأخرا فى وقت لم يكن فى الامكان أن يؤثر فى الفكر العربى عن طريق الترجمة اللاتينية ؛ وكان المسلمون عاجزين عن فهم هذه النظريات أو تقبلها ؛ وظل الأمر كذلك حتى ظهرت أول ترجمة حديثة لمقدمته بالفرنسية فى القرن التاسع عشر وعندئذ عرف الدارسون فى العالم ابن خلدون وعن طريقه ظهر آخر شعاع من الثقافة الاسلامية يسطع على الفكر البشرى .

العلوم والرياضيات

انعش الالهام العربى فى مجال العلوم التى تحتاج الى الدقة بترجمة ما خلفه عباقرة اليونان القدامى أمثال اقليدس ، وبطليموس ، وأبوقراط ، وهرن ، وآخرين غيرهم . وكانت معرفتهم زيادة على ذلك قد ازدادت قوة عن طريق ذخيرة جديدة تختلف طبيعتها كل الاختلاف عما أخذوه عن الغرب . ويجدر أن نفترض أنه بنهاية القرن العاشر كان العرب قد أصبحوا على دراية بعلم الحساب الهندوكى الذى وضعه (براهماجيتا) ، وكذلك الجبر ، الى جانب استعمال الصفر والنظام العشرى الذى سبب تحولا خطيرا فى علم الرياضيات . فالكلمات جبر ، وكيمياء ، ولوغاريتيمات ، الصفر كلها مما استعمله العرب . وقد وضع العرب أسس الهندسة التحليلية وحساب المنلمات الذى لم يكن معروفا عند اليونانيين الا بقدر ضئيل .

ففى عام ٨٢٥ نشر الخوارزمى (*) كتابه التاريخى فى الجبر الذى أسماه « كتاب حساب الجبر والمقابلة » . وفى تأليفه لهذا الكتاب استخدم مؤلفات اليونانيين فى الغرب وكذلك المصادر الشرقية فى بابل والهند . وقد أهدى الخوارزمى مؤلفه لمولاه المسننير الخليفة المأمون ، وأسار فى مقدمته الى أنه سوف ييسر عملية حساب الميراث ، والوصايا ، والتقسيم ، والقضايا ، وحسابات التجارة ، وقياس الأراضى ، وخطط شق القنوات ، والعمليات الهندسية ، والعمليات الأخرى . وكان بحثه الشهير فى الحساب

(*) محمد بن موسى من خوارزم شرق بحر قزوين . وتوفى ما بين ٨٣٥ ، ٨٤٤ . وقد حرف الاسم فى اللاتينية الى «الجورزم» أو «الجورثم» . وهناك بعض الكتاب الذين يشكون فى ذلك .

قائما على التمثيل العشري ، وعلى نظام جديد للأرقام ترجمه عن اللاتينية جيرارد من كريمونا Gerard of Cremona في بداية القرن الثاني عشر؛ وكان له تأثير كبير في الرياضيات في أوروبا . فقد كان سببا في ادخال الأرقام العربية ، الصفر والكسور في علم الحساب الغربى . أما جداوله الرياضية وفد راجعيا وحسنا المجريطى عام ١٠٠٧ فقد نقلها الى اللاتينية اديلارد من « بات » في عام ١١٢٦ .

ومن العبت أن نحاول مراجعة كل تطورات علم الرياضيات العربى بعد الخوارزمى ؛ غير ان هناك اسما يبدو واضحا فى الصورة وهو اسم عمر الخيام (١٠٣٨ - ١١٢٣) . وهو فارسى من نيسابور ويعرفه الغرب أكثر بأنه شاعر ألف الرباعيات التى ترجمها وخلدها بالانجليزية الشاعر الانجليزى فزجيرالد ، وذلك برغم أن شهرته الحقيقية تقوم اساسا على عبقريته الرياضية واسهامه فى تقدم العلوم . وأصلح الخيام التقويم الفارسى القديم وأجرى تعديلات كبيرة فى جبر الخوارزمى ورياضيات اليونانيين .

وبينما كان يحاول حل المعادلات التكعيبية بفروض وبراهين هندسية حدس استحالة ايجاد مكعبين يصبح مجموعهما مكعبا واحدا وهى مسألة عممها بيير دى فيرمات (١٦٠١ - ١٦٦٥) أى بعد عمر الخيام بعدة قرون . وقد نقلت مؤلفاته فى الجبر الى اللغة الفرنسية عام ١٨٥٧ .

وفى الطبيعيات (الفيزياء) لم يكتف العرب بمجرد نقل النظريات اليونانية ببساطة بل أضافوا اليها اكتشافاتهم .

وقد كان ابن الهيثم (٩٦٥ - ١٠٣٩) ويعرف باللاتينية باسم « الهازن » من أهل البصرة ، وانتقل الى القاهرة خلال مدة الحاكم أحد خلفاء الفاطميين . كان ابن الهيثم أعظم علماء الفيزياء العرب . وفى كتابه

الهام عن البصريّات عارض مفاهيم كل من اقليدس ، وبطليموس الخاطئة عن أن الرؤية ناتجة عن أشعة تخرج من داخل العين الى الأشياء الخارجة عنها ، وهكذا قلب النظرية اليونانية عن عمل الحزاة ذات الثقب ، وقد درس ابن الهيثم انعكاسات الضوء وعلم الميكانيكا ، وكان يعرف مبدأ التصور الذاتى الذى وضعه اسحاق نيوتن بعد ذلك الوقت فى أول قوانينه عن الحركة وأصبح كتاب ابن الهيثم (الذخيرة فى علم البصريّات) أساس معظم الابحاث البصرية فى العصور الوسطى خاصة فى مؤلف روجر بيكون فى القرن الثالث عشر وخلال عصر النهضة تأثر بأعماله كل من ليوناردو دافينشى (١٤٥٢ - ١٥١٩) وجوهان كبلر (١٥٧١ - ١٦٣٠) .

وهناك عربى آخر من أصل فارسى ومعاصر لابن الهيثم هو البيرونى (١) وقد كان عالما فى الجغرافيا والتاريخ والفلك والطبيعة ، وجاب أقطار الأرض حتى وصل الى الهند وتعلم اللغة السنسكريتية ، فمكّنه ذلك من ترجمة الكتابات العلمية فى الهند الى اللغة العربية . وقد أسهم اسهاما كبيرا فى مبادئ الهيدروستاتيكا [علم توازن السوائل وضغوطها] والتى تحقق منها فى آبار الهند الارتوازية . كما أن كتاباته عن تواريخ الأمم وكذلك تاريخ الهند تعتبر من الأعمال المشهورة .

وفى الرياضيات وضع خاتمة للمعرفة العربية ، واستخدام الأرقام الهندية ، ووفق الى حل كثير من المسائل المتعلقة بالزوايا والمخروط والمعادلات التكعيبية . أما فى الفيزياء فقد استخدم طريقة الازاحة فى حساب الثقل النوعى لثمانية عشر حجرا مختلفا بعضها نمين وبعضها نصف ثمين . كما أجرى تجارب على بعض المعادن وتوصل الى نتائج على درجة كبيرة من الدقة (٢) .

(١) هو أبو الريحان محمد البيرونى ويعرف بأنه « الأستاذ » .
(٢) قدر البيرونى الوزن النوعى للذهب بأنه من ١٩٠٥ الى ١٩٢٦ وللزئبق ١٣٥٩ ، وللنحاس من ٨٣٣ الى ٨٩٢ وللبرنز من ٨٥٨ الى ٨٦٥ .

وكان خليفة البيروني الحق في الطبيعة هو الخازني أبو الفتح عبد الرحمن المنصور ، الذي كتب في الموضوع عام ١١١٨ . وقد حسب الوزن النوعي للمواد التي صعب ايجاد أوزانها النوعية قبل ذلك الا وهي السوائل كالماء والزيت ، اللبن والدم البشري . وفي حالة الماء ميز بين الماء العذب وماء البحر الملح ، وبين الماء البارد والماء الساخن ، على درجة من الدقة لا نكاد نشعر معها بالخطأ اذا قورنت بالأرقام الحديثة . وكان الخازني أيضا مدركا لقوة الجاذبية تجاه مركز الأرض ويقال انه اكتشف قانون السرعة للأجسام الساقطة .

ولكن من الخطأ أن نبالغ في اسهام العرب في العلوم التجريبية ككل . ففي الكيمياء استوحى العرب معرفتهم مما انحدر اليهم من فارس والصين والاسكندرية وكانت هذه جميعا بدائية الى حد ما . ولما كانوا يعرفون المبدأ اليوناني الذي يقول ان لكل المعادن أصلا واحدا ، ولكنها تختلف في الدرجة والنسبة فقط ، فانهم أضاعوا وقتا طويلا وطاقا وجهدا في محاولة التغلب على مشكلة تحويل المعادن الحسيسة الى معادن نفيسة ليحولوا الرصاص الى ذهب . والى جانب سر التحويل حاولوا أن يستخدموا حجر الفلاسفة وأكسيد الحياة لعلاج أمراض البشر ولاطالة الحياة . وفي مثل هذه المحاولات تعرفوا على سلسلة من العمليات الكيميائية في الأشياء مثل الصهر والتقطير والتبخير والترشيح والتنصعيد والبلورة وكلها عمليات عرفها جابر بن حيان من الكوفة وهو العالم المشهور في فترة انتقال بين القرن الثامن والتاسع . ويقال انه اخترع عمليتي التكلس والاختزال وانه حضر عدة أكاسيد .

الى ٨٦٧ . ثم جاء بعده الخازني الذي راجع هذه الأرقام وقال انها ١٩٠٥
١٣٥٦ ، ٨٦٦ ، ٨٥٧ على التوالي .
ويمكن للمقارن أن يقارن بين هذه الأرقام . وبين الأرقام المعروفة
الآن وهي : ١٩٢٦ ، ١٣٥٦ ، ٨٨٥ ، ٨٤٤ على التوالي .

وقد عرف العرب الكحول والقلويات وكلتا الكلمتين من أصل عربى . واستعملوا الانبيق وهو تعبير عربى آخر كما عرفوا الماء الملكى ، وكبريتور الزئبق ، ونيترات البوتاسا (ملح البارود) ، والشب ، والكبريتات بصورها النقية ، وعدد آخر من المركبات الكيميائية . وتمكن العرب من فصل الانتيمون والزرنيخ من كبريتوراتها ، ووصفوا تحضير الصلب وتجهيزه ، وصبغ القماش والجند ، واستعمال ثانى أكسيد المنجنيز فى صناعة الزجاج ، وتحضير حامض الحليك من الحل . ومع ذلك فانهم - ويا للغرابة - استمروا فى تصديقهم لنظرية العناصر الأساسية الأربعة فى الطبيعة التى كان يؤمن بها اليونانيون وهى الأرض والهواء والماء والنار . وقد أعلن انبادقليس (١) Empedocles هذه النظرية أول ما أعلنت فى القرن الخامس قبل الميلاد وجاء أرسطو ليعززها فى القرن التالى .

وهناك الرازى (٢) (٨٦٥ - ٩٢٥) ويعرف باللاتينية باسم «رازس» Rhazes وهو طبيب فارسى مستعرب مسلم ، عرف عدة مواد ووصف عمليات كيميائية جديدة وتجارب عملية كانت معروفة لروجر بيكون . وابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧) ، وكان معروفا ومشهورا فيما يختص بالفلسفة والكلام ، كتب بحثا لا ينسى عن العلوم الطبيعية وصف فيه تكوين الجبال ، والأحجار ، والمعادن ، وناقش ظواهر الزلازل ، والرياح ، والماء ، والحرارة ، والترسيب ، والتجفيف وأسباب التجمد .

(١) يكتب الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى كتابه « فجر الفلسفة اليونانية » طبعة ١٩٥٤ ص ١٦١ هذا الاسم Empedokles ويذكر فى هامش الصفحة ذاتها بأن هذا الاسم ورد فى الملل والنحل للمشهرستانى « أنبا دوقليس » وفى أخبار الحكماء للقفطى « اييدقليس » وفى عيون الأنبياء لابن أبى أصيبعة « بندقليس » والغالب ان الذين يرسومونه بالذال يحرفون الاسم عن النسخ . (المترجم)

(٢) أبو بكر محمد بن زكريا الرازى الذى عرف بأعماله المشهورة فى علم الطب وسنتناوله فيما بعد عند الحديث عن الطب .

الفلك

كانت دراسة علم الفلك أمرا تقليديا معروفا من قديم الزمان في الشرقين الأدنى والأوسط . وكان للعرب دورهم الكبير فيه ففي خلال تجوالهم عبر الصحراء الواسعة كانوا يعتمدون على الكواكب لترشدهم الى وجهتهم . وظل اهتمامهم بالسماء أمر يتبعه بل يشجعه الخلفاء ، وتحت حكمهم بدأنا نسمع عن اقامة مراصد متعددة . فقد بكر الأمويون بإنشاء مرصد في دمشق ، وأضاف العباسيون مرصدا آخر في بغداد ، وزود الخليفة المأمون المرصد الجديد في بغداد عند بوابة الشماسية بكل جهاز فلكي معروف في ذلك الوقت ، وتبناه وألحقه بأكاديمية دار الحكمة ، وعهد بإدارته الى سند بن علي وقد كان يهوديا اعتنق الاسلام ، ويحيى بن أبي منصور وكان كلاهما ذا مهارة عظيمة في علم الفلك خلال المرحلة الأولى من القرن التاسع . ثم أقام العباسيون مرصدا ثالثا في جنسسابور في ايران وهي مدينة عرفت بأنها مركز كبير للتعليم وخاصة في العلوم الطبية . وكان الدارسون من النسطوريين قد جاءوا الى هناك بعد القرن الخامس بعد أن أغلق البيزنطيون مدرسة الرها التاريخية في صراعهم من أجل مبادئهم الارثوذكسية وحل محلهم اليونانيون عندما أغلق جستنيان مدرسة أثينا في ٥٢٥ . وكان مقدرا لجنسسابور بموقعها الممتاز أن تصبح مركزا للنفوذ الغربى وللاتصالات الفارسية والهندية . وفي مصر ، عند نهاية القرن العاشر أنشأ الخليفة الحاكم المرصد الرابع فوق تلالم المقطم خارج القاهرة . وحتى بعد انهيار الخلافة ووقوع بغداد في أيدي المغول انقاد هولاءكو خان وراء ايمانه الخرافى بالفلك فبذل رعاية كبيرة لإنشاء مرصدمراجة Maragha الكبير قرب بحيرة أورميا Urmia في اذربيجان خلال القرن الثالث وقد عرف بأجهزته الأثرية . وعين الخان عالم الفلك

الخاص به مديراً وهو ناصر الدين الطوسي (١٢٧٤) وألحق بالمرصد مكتبة كبيرة . وكان الطوسي على درجة كبيرة من المهارة فقد جمع الجداول الخانية « الزيج الخاني » وأهداها لاسناده . وكانت تتضمن تاريخاً عربياً وفارسياً ويونانياً وصينياً . وقد سجل كذلك حركات الكواكب من ملاحظته بوساطة أجهزة هائلة كانت تتضمن مزولة حائطية ، وذات الحلز (آلة فلكية قديمة مكونة من كرة وحلق) وآلات تعيين الانقلابات الجغرافية الخاصة بالفصول الأربع والعضادة (*) . وجمع من ملاحظات سابقة لليونانيين مثل أبوقراط وبطليموس وللعرب الذين كانوا أئمة في هذا المجال من الدراسة منذ العصور الأولى . وهناك مرصد آخر أشرف عليه المغول ومولوه في سمرقند - عاصمتهم . ولم يقدر لمرصدى سمرقند ، Maragha أن يعيش طويلاً لانهما قاما بهدف المتعة الزائلة للحكام .

ومن الواضح أن دراسة الفلك على أساس علمي لقيت اهتماماً كبيراً منذ البداية في عصر المأمون . ومعظم الدارسين والفلاسفة في ذلك العصر حاولوا وراء بحثهم عن المعرفة الكاملة ، البحث في كل فرع من فروع العلوم بما في ذلك الفلك بدرجات متفاوتة من الكمال . ومشاهير المسلمين في علم الفلك كثيرون حتى يصعب أن نحصيهم كلهم . ولكن هناك أسماء مثل الفرغاني (٨٦٠) وأبو معشر (٨٨٦) من بلخ في خراسان ثم البطاني (٨٧٧ - ٩١٨) وابن يونس (١٠٠٩) والبيروني (٩٧٧ - ١٠٤٨) والزرقي (١٠٢٩ - ١٠٨٧) والبطروجي (١٢٠٤) وكلهم من المشاهير العظام الذي يصعب اغفالهم حتى في ملخص قصير .

وقد ترجم كتاب الملخص الفلكي للفرغاني إلى اللاتينية بعنوان *Astronomical Compendium* . ترجمه جيرارد من كريمونا وجوهانس

(*) عرفت العضادة في دائرة المعارف الإسلامية الجزء الثاني ص ٤٤٥ بأنها خط الرؤية على ظهر الاسطرلاب يدور حول محور أو مدار ، وعن طريقه يمكن عمل ملاحظات عدة ، لا سيما عند رصد ارتفاع نجم .

هيسالانس قبل عام ١١٨٧ ونشره في نورمبرج في عام ١٥٣٧ Melanchthon الشهير في عصر الإصلاح الألماني . أما بحث أبي معشر في الفلك فقد نقله الى اللاتينية ابيلارد من باث بمساعدة جوهانس تحت عنوان De conjunctionibus et annorum revolutionibus والفلكية التي وضعها البطاني على المواد اليونانية وانتشرت بتوسع في كل أوروبا في العصور الوسطى . وقد إكمل عمله أبو الوفا (٩٤٠-٩٩٨) بعد ذلك بستين عاما برغم أن شهرة أبي الوفا قامت على اسهامه في حساب المثلثات الذي استعمله كوبرنيكس بتوسع فيما كتب تحت عنوان Opus palatinum de triangulis . ومن بين الأعمال الكثيرة التي قام بها البيروني أنه أوجد النسبة بين الفروض الفلكية . وقد جمع على بن يونس الفلكي الخاص للحاكم ، جداوله « الزيج » في مرصد المقطم .

فاذا اتجهنا غربا الى اسبانيا في طليطلة نجد أبا اسحاق ابراهيم بن يحيى الزرقل المعروف في اللاتينية باسم "Arzachel" يضع جداول طليطلة من ملاحظاته ورصده الخاصة مقررا مواقع الكواكب . ووضع جدولاً فلكياً جديداً استعمله الملك الفونسو الحكيم في القرن الثالث عشر في تصويره وتقديره للاطوال . واستفاد كوبرنيكس من هذا البحث والجدول الفلكي . ومن أعمال أبو اسحاق البطروجي (*) الذي يعرف باللاتينية باسم "Alpetragius" وكان بحث كوبرنيكس بعنوان "De revolutionibus orbium coelestium" وقد أحيا عربى من اسبانيا هو البطروجي الاهتمام ببعض أعمال أرسطو في الفلك والفيزياء وعلم الجو (الطقس) التي كانت قد نقلت من العربية الى اللاتينية .

(*) هو نور الدين أو اسحاق مؤلف « كتاب الهيئة » وقام بترجمته الى اللاتينية ميشيل سكوت عام ١٢١٧ والى العبرية عام ١٢٥٩ . ويمكن للمقارئ أن يقارن ذلك مع ما جاء في كتاب « تاريخ العرب » مؤلفه فيليب حتى ، لندن عام ١٩٥٨ ص ٥٧٢ هامش رقم ٥ .

واحتفظ العرب بفكرة كروية الأرض خلال العصور المظلمة في أوروبا حتى أظهرها عام ١٤١٠ بيير دي ايل في خريطته مصور العالم Imago "Mundi" التي استعملها كريستوفر كولمبس بنتائج عظيمة • ويدين فاسكو دي جاما بمعرفته للطريق الى الهند للبحار العربي أحمد بن ماجد في القرن الخامس عشر واليه يعزى نقل ابرة الملاحه الى البحارة الأوربيين والبوصلة من الملامح النورية لفجر التاريخ الحدي •

الجغرافيا

لا يمكن ارجاع الدراسات الجغرافية العربية - بعكس باقى فروع الدراسات الانسانية - الى التأثير اليونانى . ورغم أن العرب لم يجهلوا اسهام بطليموس ، وايراتوثينس ، وسترابو من العصور القديمة فانهم اعتمدوا فى اعادة وضع جغرافيتهم المحلية والعامّة على أسفارهم وملاحظاتهم المباشرة . وقد شملت أسفارهم خريطة العالم المعروف فى ذلك الحين منذ وقت الهجرة حتى نهاية العصور الوسطى . فبينما نسمع أن الخوارزمى (٨٣٠) وسليمان تاجر سيراف (٨٥٠) قد وصلا الى الهند والصين فى القرن التاسع الميلادى نجد ابن بطوطة (١٣٥٣) فى منتصف القرن الرابع عشر جوابا يسافر الى شمال افريقيا ، ومصر وسوريا والامبراطورية البيزنطية والجزيرة العربية وبلاد الفرس وبعض الحدود الآسيوية والهند ، وسيلان ، وجزر ملديف . وفيما بين الخوارزمى وابن بطوطة مرحلة ملأى بالجولة العرب الجغرافيين وواضعى الخرائط وجامعى الأطالس والمعجمات الجغرافية الكبيرة . وهؤلاء ممثلون فى محتويات Bibliotheca Geographorum Arabicorum (*)

وان الحج وهو رحلة دينية الى مكة فرضا على كل المؤمنين الذين يستطيعون اليه سبيلا ، كان باعنا على سفر المسلمين من الغرب والشرق للقيام بالرحلة المقدسة ولتبادل التجارة والمعلومات . ومعظم المسافرين الذين وصفوا الممالك والمسالك بدأوا رحلاتهم ووجهتهم مكة . وكان أول الذين كتبوا وصفا فى القرن التاسع هم ابن خرداذ (٨٧٠) واليعقوبى

(*) لزيادة الايضاح يمكن للمقارئ أن يرجع الى
Atiya : Historiography and Bibliography. Monumental
Collections Section VII.

(٨٩٠) وابن الفقيه (٩٠٣) وابن رستا (٩١٠) ولكن أول جغرافيا حقيقية للعالم الاسلامي ظهرت خلال القرن العاشر في أعمال أبو زاید البلخي (٩٣٤) ، وكان من بلاط السامانية (*) في خراسان في ترانسوكزرنيا وبرغم أن كتابه هذا فقد فان مدرسته قد منلت خير تمثيل في جغرافيات القرن العاشر في أعمال لأصطرخي (٩٥٠) ، وابن حوقل (٩٧٥) ، والمقدسي (٩٨٥) ، والمسعودي (٩٥٦) وذلك برغم أن الأسمين الأخيرين لم يقعا تحت تأثير البلخي مباشرة . أما جغرافيو الغرب من العرب ومسافروهم فقد ظهوروا في القرن الحادي عشر . فقد ترك الأسباني العربي « البكري » (١٠٦٧) عملا عظيما لم يبق منه سوى الجزء القليل الذي نشر عن شمال افريقيا . أما الأديسي فقد ترك أثرا مميزا في تطور الأدب الجغرافي الغربي والشرقي . وقد ولد الأديسي في ثيوتيه [سبته] في ١١٠٠ وأكمل دراسته في قرطبة ودعا بعد ذلك الملك روجر الثاني (١١٠١ - ١١٥٤) ملك صقلية الى بلاطه في بالرمو . وأوصى الملك النورماندي العلامة العربي أن يجمع كتابا في جغرافية العالم . وكانت النتيجة عملا من أعظم الانجازات في جغرافيا العصور الوسطى وخرائطها . وفي مؤلفه الذي وضعه للملك وأسماء « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » قسم الأديسي الأرض الى سبع مناطق مناخية تضم كل منطقة عشرة أجزاء . وكانت الأقسام السبعون مصورة في سبعين خريطة جزئية يمكن جمعها لتكون وحدة تمثل العالم كله . وكان الكتاب كله عملا لم يسبق له مثيل في عظمته واكتماله وضبطه . وعلى خلاف مع خريطة ابن حوقل (٩٧٥) الدائرية نجد خريطة الأديسي بيضية الشكل تشبه الى حد ما نموذج الاسكندرية الذي وضعه بطليموس . وكانت خريطة الأديسي أكثر دقة في تصويرها لمنطقة البحر الأبيض المتوسط وكان على علم أفضل بها .

(*) أسسها ناصر بن أحمد (٨٧٤ - ٨٩٢) وهو حفيد أحد نبلاء زوروا استريان اسمه سامان الذي اتخذ اسمه للأسرة السامانية .

وكان هناك أندلسيون آخرون مثل ابن جبير (١١٩٢) سسجلوا انطباعاتهم الجغرافية . ففى عام ١٢٢٨ جمع ياقوت والقزوينى (١٢٧٥) معجماتهم الجغرافية ونظمها أبجديا على حسب التراث الجغرافى العربى الذى كان تحت تصرفه . وقد يبدو أن اسهام العرب فى هذا المجال لم يكن له تأثير قوى فى تطور المعرفة الجغرافية فى أوربا ، ذلك التطور الذى ظل متأخرا حتى عصر النهضة . ورغم ذلك فان تأثير العرب فى فتح طرق التجارة بين أوربا وآسيا أنعش تقدم التجارة الدولية ، مما كان له أثر هام فى تاريخ العالم . وكما سبق أن ذكرنا كان العرب يعرفون الصين فى القرن التاسع عندما تسلل المبشرون المسيحيون النسطوريون والتجار المسلمون الوعاظ الى الشرق الأقصى وذلك قبل أن يصل أول أوربى الى الصين بمدة ٤٠٠ سنة – فان الأوربيين لم يصلوا اليها الا فى العصور الوسطى المتأخرة .

الطب

كان العرب روادا عظاما فى مجال الطب واسهامهم فى تقدمه يفوق الخيال . ويبدو اهتمام الخلفاء الأوائل وخاصة هارون الرشيد وابنه المأمون واضحا فى أوامرهم بنشر ترجمة الأعمال الطبية القديمة التى وضعها الأطباء اليونانيون وفى الوقت نفسه نسمع بوجود المستشفيات حيث كان رجال الطب يجرون ملاحظات على المرضى فى أثناء قيامهم بمعالجتهم . ويقال انه فى عام ٨٥٠ كان هناك أربع وثلاثون مستشفى فى العالم العربى: معظمها يموله الخلفاء . وفى عام ٩٧٨ كان فى مستشفى (بيمارستان) دمشق أربع وعشرون طبيبا مقيما ويقال انه كانت هناك مستشفيات خاصة للنساء وصيدليات خاصة لصرف الدواء .

والى جانب المستشفيات قامت مدارس الطب للتمرن على كل أنواع الأمراض وكذلك الجراحة ، وكان الطلبة يشهدون المحاضرات ثم يعكفون على القراءة فى المكتبات الطبية الغنية بمقتنياتها . وكانت هناك امتحانات تعقد واجازات تمنح للذين يسمح لهم بمزاولة مهنة الطب . وكان للأطباء حرمة ومكانة فى قصور الخلفاء وفى المجتمع ؛ وكان فى استطاعة بعضهم أن يبلغوا درجة عالية من الثراء . فيقال مثلا ان جبريل بن يختيفوع (٨٣٠) الطبيب النسطورى جمع ٨٨٨٠٠٠٠٠ درهم حوالى ١٠٤٠٠٠٠٠٠٠ دولار حاليا فى عصر الخليفة العباسى المأمون . ولعل الأوربيين قد تعلموا أثناء الحروب الصليبية المزيد عن مستشفيات الشرق . وكذلك فعل الداوية ، والفرسان البيض (فرسان القديس يوحنا) الذين كرسوا أنفسهم للخدمة الاستشفائية فى ميدان القتال فى غضون الحروب الصليبية ، فقد كانت معرفتهم بالتمريض قائمة على النموذج العربى .

ونصل الى العصر الذهبي للطب العربي الذى يميزه وجود أبو بكر محمد ابن زكريا الرازى (٨٦٥ - ٩٢٥) المعروف عند الغربيين باسم «رازس» وكان فارسيا مسلما مستعربا من الرى قرب طهران ، وكان على علم بالطب اليونانى والفارسى والهندي كما درس الكيمياء والعلوم . وأصبح من أعظم كتاب عصره . أكمل ما لا يقل عن عشرين كتابا يبحث نصفها فى الطب . وواحد من أشهر كتبه بحثه الشهير عن الجديري والحصبة حيث يعطى تشخيصا دقيقا لكل من المرضى ويحذر من العدوى .

ويبدو أنه أوصى بنوع من التطعيم كعلاج . وقد نقل هذا البحث الى اللاتينية فى زمن مبكر كما نقل الى لغات أخرى بعد اختراع الطباعة ، وكان مؤلفه الأعظم عن الطب العلاجى العام فى عشرين مجلدا ويسمى بالعربية « الحاوى » . وقد ترجمه الى اللاتينية جيرارد من كريمونا وظل مرجعا فى كليات الطب الأوروبية حتى القرن السابع عشر . ويشير الرازى الى كتاب الطب اليونانيين والسريانيين والفرس والهنود والعرب بطريقة منتظمة ثم يعرض ملاحظاته وآراءه فقد كان علمه غزيرا ضخما وكانت بصيرته عميقة .

وكان أعظم خليفة للرازى فى ميدان الطب هو الفيلسوف وعالم الطبيعة ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧) . وكان مواطنا من بخارى ارتبط ببلاط السلطان نوح بن منصور . وكان ابن سينا قارئاً شرها وكاتباً عبقرى منتجاً . وتشمل قائمة ما تبقى من أعماله تسعة وثلاثين بندا فى الطب والفلك والهندسة والفلسفة وعلم الكلام وفقه اللغة ، وقد جمع ثمار الدراسة العربية واليونانية العالمية والطبية فى مرجعين هما « كتاب الشفا » و « القانون فى الطب » وكلا الكتابين أثرى فى حجمه وأهميته . فالأول فى ثمانية عشر مجلدا يعتبر موسوعة تشمل كل المعرفة الضرورية لشفاء الروح سواء من ناحية العلوم البحتة أو العلوم الانسانية ، كما يحوى اقتصادا وموسيقى . وقد ترجم جرارد من كرمونا القانون فى الطب

الى اللاتينية فى القرن الثانى عشر ، وكان يتألف مما لا يقل عن مليون كلمة . استعرض فيه كل كتب الطب السابقة بما فيها أعمال الرازى . وبحكم أنه موسوعة طبية احتوى عرضا كاملا للتشريح والفسولوجيا والباثولوجيا والصحة الوقائية وعلم الصيدلة والمستحضرات الطبية المعروفة فى عصره . وكانت تركيباته الدوائية تصل الى ٧٦٠ مستحضرا ؛ وظلت معلوماته فى الصيدلة مرجعا حتى مطلع العلوم التجريبية فى التاريخ الحديث . وقد وصف الالتهاب البلورى والدرن ، وأظهر ان الدرن معد ، وشرح الطريقة التى يمكن بها نقل بعض الأمراض عن طريق تلوث التربة أو الماء .

وقد حذر الأطباء العرب من انتشار الوباء عن طريق الاتصال أو لمس الملابس أو آنية الطعام الملوثة . وشخصوا سرطان المعدة ، ووصفوا العقاقير المضادة لحالات التسمم ، كما استعملوا الكى وعالجوا أمراض العين . ومارسوا التخدير عن طريق الاستنشاق ، ووصفوا الأدوية المنومة عن طريق الفم ، تلك التى تؤدى الى النوم العميق أو الغيبوبة وذلك تمهيدا لاجراء الجراحة . وأجروا أول عملية قيصرية فى العصور الوسطى ، واستعملوا أمعاء الحيوانات فى الخياطات . وقد اشتهر اسم أبو القاسم الزهراوى من قرطبة وكان طبيب الخليفة عبد الرحمن الثالث (٩١٢ - ٩٦١) وكان يعرف باللاتينية باسم أبو القاسيس ، وكان معجزة عصره فى الجراحة . وكان كتابه المسمى التصريف حجة ومرجعا فى الجراحة . وظل من أروع ما كتب فى هذا المجال لعدة قرون .

وفى طب العيون ربما كان أشهر طبيب عربى فى هذا الفن هو على ابن عيسى الذى يعرف فى اللاتينية باسم جيزوهالى Jesu Haly وغالبا كان مسيحيا من بغداد فى الفترة الأولى من القرن الثانى عشر . وقد استعمل مؤلفه « تذكرة الكحالين » فى أوروبا فى العصور الوسطى منذ زمن طويل . وليس هناك أدنى شك فى أن العرب فى مجموعهم أنجبوا أعظم الأطباء فى العالم فى العصور الوسطى سواء فى الشرق أو الغرب .

الفن والعمارة

كان العرب يحكمون تقاليدهم الإسلامية الأولى لا يحاولون محو الحضارات القائمة ، بل بالعكس حاولوا أن يصبحوا جزءا منها . وهكذا كان تأثيرهم وتأثيرهم المزدوج مع بعض التعديلات التي تناسب معتقدات الدين الجديد ، عاملا في ابداع طراز من الفن والعمارة أصبح يعرف بالفن الإسلامي والعمارة الإسلامية . فقد أخذوا من الأشكال والطرز والموارد الفنية لمختلف البلاد التي تحت حكمهم ، واستخدموا المهندسين المعماريين والفنيين من سوريا وارمينيا ومصر والدولة البيزنطية وايران والهند . بغض النظر عن أديانهم المختلفة ، استخدموهم في اتمام ما أصبح حقا لهم بعد النصر أن يفعلوه . وكانت النتيجة انجازا رائعا في نشأة المدن الرائعة والقصور والقلاع والمساجد والمقابر والجسور وكل أنواع الفن التي انتشرت من اسبانيا الى الهند والغريب أنها كانت تحمل طابع الوحدة والاختلاف في وقت واحد . وقد ظهرت كلها ابتداء من مدينة بغداد ، ومدينة سامرا وأصل اسمها العربي « سر من رأى » ، والفسطاط . والقصور التي لا تعد والمباني ابتداء من الحمراء في الأندلس الى تاج محل في الهند ومئات المساجد من جميع بقاع الامبراطورية ابتداء من الجامع الأزرق في قرطبة وجامع سيدي عقبة في القيروان وجامع تونس العظيم ومساجد ابن طولون والأزهر في القاهرة وقبة الصخرة في بيت المقدس والمسجد الأموي في دمشق ومساجد مكة والمدينة العظيمة ومساجد بغداد وسر من رأى ومشهد وشيراز ونيسابور وغير هذه جميعا ، ظهرت كلها أعمالا فنية غاية في الجمال ، توحيها الخصائص الإسلامية ومع ذلك تعرض روعة فائقة لأن كل عمل منها يمثل قمة الفن القومي ذي الشخصية المستقلة للبلد الموجود به . وكان الفنانون ومهندسي العمارة المسلمون يميلون

من البداية أن يلاحظوا بعض الأمور ، فكان هناك اعتراض الاسلام على التجسيم أو التصوير النحتى الكامل للانسان أو للحيوان فقد أنكره النبى فمن ناحية كان النحت يعتبر من مظاهر الوثنية القديمة ومن ناحية أخرى كان المؤمنون يعتبرون مثل هذا النحت أمرا مخالفا للدين من حيث أنه يمثل محاولات الانسان لخلق نفسه والتشبهه بالله تعالى خالق الكون . على أن هذا الحظر لم يتبعه الخلفاء دائما خاصة فى تزيين قصورهم اذ كانت تنتشر لوحات تمثل مناظر الصيد ، والفتيات فى الحمامات ، وبعض موضوعات أخرى ذات قيمة معمارية رائعة لا تزال ترى فى الأطلال والآثار . وقد تجاهلت الأسرة الفاطمية (٩٠٩ - ١١٧١) فى مصر هذا الحظر الا فى فن العمارة الدينى . ومع ذلك وجد فن العمارة والزخرفة الاسلامى مخرجا له فى الأشكال التى لا تمثل بشرا ، فوجد فى الأشكال الهندسية والزهور والنباتات ؛ وكانت النتيجة رائعة وما زالت تسمى بالطراز العربى . وهذا يظهر فى كل الأبنية ابتداء من صب القالب الى المخطوطات الزخرفية التى غالبا ما نجدها محلاة بالخط الكوفى أو غير الكوفى الذى ينسجم تماما مع محتوياتها .

ومن الصعب أن ندخل فى تفاصيل العمارة الاسلامية فى دائرة هذا البحث فهى طويلة ومعقدة . وكل ما يهمنا هنا هو نظرة سريعة الى الملامح التى أثرت بطريقة أو بأخرى فى الفن الغربى والعمارة الغربية . وقد سبق أن أشرنا الى تأثير فن العمارة العربى الشرقى فى تطور القلاع فى الغرب عندما استعرضنا نتائج الحروب الصليبية وخاصة النظم المركزية والملاحم الجديدة لتلك القلاع باستخدام المزاغل ، والمداخل المضللة ، والأبراج بل يمكن أن نضيف هنا أن القوس المحددة التى أصبحت من الملامح المميزة للعمارة القوطية فى العصور الوسطى فى أوروبا كانت معروفة لرجال العمارة المصريين منذ قرون . فقد كان هو الطراز الذى اتبع فى - القبوات - فى المساجد القديمة كمسجد ابن طولون الذى بنى فى القاهرة عام ٨٧٦ . ثم تكرر عام ٩٧٠ فى مسجد الأزهر وجامعته

التي بنيت تحت اشراف الخلافة الفاطمية وبمالها . وكانت النوافذ والأبراج والأقواس والبوابات المزركشة لقطع الزجاج ذات اطار وافريز على الطراز العربي . والكنائس المنتشرة فى مدن أوربا فى العصور الوسطى نجد لها متيلا أقدم فى المساجد والقلاع والمدارس والمستشفيات وفى المآذن والمقابر التي تسبقها فى عمرها الزمنى فى البلاد الاسلامية فى شرق البحر الأبيض المتوسط وغربه . وقد وجدت روعة الفن الاسلامى منفذا لها فى صب الأحجار قام به أساسا النحاتون المسيحيون فى سوريا وهم الذين كانوا أبناء مهرة لأجيال أنتجت روائع بعلبك فى أيام الرومان ، ودير سانت سيمون والمدن الميثة فى شمال سوريا فى القرون الأولى لعصرنا الحاضر . ومن الصعب أن نحصى كل الأمثلة للمتحف المتوافرة فى فن العمارة الاسلامية فى العصور الوسطى . فهناك جدار يعتبر تحفة فنية فى حفر الأحجار وما زال ماثلا فى بقايا قصر بناء الخليفة الأموى الوليد حوالى عام ٧٤٣ فى الصحراء السورية . وكان مشتى ملكيا لم يكتمل ، يحوى بعض روائع فن العمارة الاسلامية . وقد كشف البناء كله عالم آثار ألمانى وجد انه جدير بالنقل قطعة قطعة ليعاد بناؤه فى متحف برلين عام ١٩٠٤ . وكان التصوير على الجدران يمثل أغصان كرم ملتوية ، وفواكه ، وأزهارا ، وطيورا ، وحيوانات على أشكال عقاب ، ومثلثات ورسوم هندسية تكون أثرا رائعا فى فن النحت يمكن مقارنته وتشبيهه بروائع التطريز .

وفى مجال الفنون البسيطة أثبتت الحضارة العربية أنها معبر رائع بين تفوق العمل فى الزمن القديم وبين انجازات الصانع فى العصور الوسطى . فقد كانت اسبانيا وصقلية وفلسطين ثلاث نقاط للاتصال بين العمال المهرة فى أوربا والامبراطورية العربية . وفى الواقع أن بلاد الشرقين الأدنى والأوسط وصلت الى مستوى عال من الكمال فى هذه الفنون البسيطة فى بداية التوسع العربى . فقد كان العرب يكتشرون ويغذون الشرق بهذه الفنون على حين كانت أوربا ما زالت متأخرة .

ففى العصور الوسطى ازدهمت أسواق القاهرة ودمشق وبغداد وفاضت بأعمال فنية من كل وصف . فقد كانت المجوهرات كالذهب والفضة بنقوشها وزخرفتها ، والفخار ببريقه المعدنى وأحيانا بغيره ، والزجاج الملون ، والفخسار الرائع وكل أنواع أصص الزهر والزجاج والبللور والمصنوعات الجلدية والأقمشة المطرزة والمنسوجة من لون واحد أو عدة ألوان وغيرها كانت معروضة فى الأسواق الشرقية . وقد أثبتت انها كانت همزة وصل فنية عبروا بها الشرق الى الغرب فى العصور الوسطى المتأخرة .

وأهم من هذا كله كان نقل فن صناعة الورق . فان اختراع الورق الذى حل محل البردى والجلد كان نقطة تحول فى تقدم الحضارة ، ويرجع ظهوره فى الشرق الأوسط الى عام ٧١٢ وهو العام الذى غزا فيه العرب سمرقند ، حيث كان الكتان يضرب ويعجن وينشر على شكل صفحات وزق للكتابة . وأقيم أول مصنع للورق فى بغداد عام ٧٩٤ ، وتلا ذلك مصنع القاهرة قبل عام ٩٠٠ ثم ظهر الورق فى مراکش عام ١١٠٠ ، وانتشر من هناك الى اسبانيا وصقلية . وفى أوروبا لم يكن استعمال الورق أمرا عاما حتى عودة الصليبيين من الشرق فى أواخر العصور الوسطى ومعهم الطريقة الفنية الصحيحة لصناعة الورق . أما صناعة الزجاج التى ظهرت فى البندقية فيرجع أصلها الى عقد مؤرخ فى أول يونيو عام ١٢٧٧ بين بوهمند الرابع أمير انطاكية وكونتارينى رئيسر مقاطعة البندقية وبموجبه بيع سر صناعة الزجاج المستحضر من سوريا الى البندقية . وبدأ العمل تحت اشراف الفنانين العرب المسلمين بمواد مستوردة من الأراضى المقدسة واحتفظت البندقية باحتكار صناعة الزجاج حتى القرن السابع عشر عندما تسرب سر صناعته الى فرنسا عن طريق الوسيط كولبرت . أما بالرمو فى صقلية ، فبسبب علاقاتها المباشرة مع العرب انتجت الزجاج بل انها استطاعت صنع المرايا منذ القرن الثانى عشر . ولكن يبدو أن صناعة البللور كانت من احتكار قرطبة حيث استطاع ابن فيناس المغربى أن يتقن

العملية فى الفترة الأخيرة من القرن التاسع • وفى الشرق الأوسط كان البلور الصخرى هو المستعمل فقط وكان الخلفاء الفاطميون يملكون ألف أبيض زهر من هذه المادة الثمينة مثل الأبريق المحفوظ فى خزانة سان مارك فى البندقية • وهى تحفة رائعة للفن ترجع الى القرن الثانى عشر • وبممكننا أن نرى آثار البللورات الصخرية الرائعة فى كثير من كاتدرائيات أوروبا ، ولا بد أن الصليبيين قد أحضروها معهم من رحلاتهم المقدسة فى الشرق • أما صناعة الفخار (سيراميك) فقد كانت مشهورة فى بلاد الفرس ، وسوريا ، ومصر ، وأدخلها المسلمون الشرقيون من صانعي الفخار الى إيطاليا وفرنسا وغالبا ما كان ذلك فى القرن الثانى عشر •

أما صناعة النسيج التى اشتهرت بها الأنوال الشرقية فقد كانت معجزة انبهر لها خيال الغربيين • فقد كان القبط فى مصر ينتجون أفخر أنواع الأنسجة القطنية من التيل والكتان وهى التى عرفت منذ قدوم العرب • واستمر مصدر النسيج من الأسواق الشرقية الى أوربامنتعشين طوال العصور الوسطى • ولازلنا نرى نماذج من أردية الملوك والأردية الدينية المطرزة بالنمط العربى فى كاتدرائيات العصور الوسطى ، ومرة أخرى نجد أن روجر الثانى ملك صقلية هو الذى نقل الطراز الشرقى فى المصنع فأقام قصرا لصناعة النسيج فى بالرمو ليتولى النسيج والتطريز لثياب التشريفة التى كان يهديها لحكام أوروبا •

أما الصناعات الجلدية فقد كانت معروفة من قديم الزمان فى الشرق، وظهرت أول ما ظهرت فى الغرب فى القرن الرابع عشر فى مجال محدود • ثم انتشرت فى القرن الخامس عشر • أما صناعة النحاس وتطعيمه بالذهب والفضة ونحوهما والنقر فى الخشب وصناعات فنية أخرى فقد نقلت كذلك من الفنيين الشرقيين • وقد ظل تأثير العرب حتى فى تصوير العصور الوسطى وعصر النهضة حيث كانت الحروف العربية الكوفية تزين حواشى الملابس فى كثير من الرسوم الدينية وليس أدل على ذلك من المنظر الأوسط فى لوحة « تنويع العذراء » •

اللغويات (علم اللغة)

من الممكن أن يكون بناء الكلمات وتبادل التعبيرات بين لغتين دليلا تاريخيا كبيرا لأن الحضارات تختفى بلا شك وراء الكلمة المستعملة في التعبير ، وقد تركت اللغة العربية من الأثر في اللغات الغربية في مجالات شتى ما يشعر بمدى اسهامها فيها . وبرغم أن هناك جهدا ملحوظا لتبين هذا المدى للغة العربية وتعبيراتها في غيرها من اللغات ، فان الفرصة مازالت قائمة لدراسات أوسع وأبعد في هذا المجال الهام . وربما كان أكبر عمل ذي قيمة في اللغات اللاتينية هو القائمة الضخمة التي جمعها أرنولد ستيجر أستاذ جامعة زيورخ في سويسرا . وما زالت اللغات الأخرى في حاجة الى مجلدات مثل هذا ، على الرغم من أنه يجدر بنا أن نفترض أن ذلك التأثير الواضح سيقبل كلما اتجهنا بعيدا عن العالم العربي . وهناك في كتاب التراث الاسلامي الذي أعده أرنولد وجيوم^(١) قوائم متنوعة من الكلمات ورغم قلتها الا انها تعطينا صورة عن تسلسل اللغة العربية الى اللغات الغربية .

ونسوق في هامش هذه الصفحة أمثلة للكلمات العربية التي وجدت طريقها وتأثيرها في اللغة الانجليزية وما لهذه الكلمات من طبيعة وتنوع . ويمكن أن نعدد بالتفصيل هذا التأثير خاصة في الفلك ، وعامة في مجالات العلوم والموسيقى والملاحة والتسيج والألوان والخضر والفواكه والأزهار والتجارة والأماكن ^(٢) .

(١) T. Arnold and A. Guillaume, *Legacy of Islam*. Oxford, 1952.

(٢) ومن أمثلة ذلك :

قطن	ليمون	سكر	شربات	ياسمين	جرحه
الجبر	الكيمياء	المناخ	صفر	قهوة	تفريق

ويمكن التعرف على مئات من أسماء الأماكن في كل من اللغة الإسبانية والبرتغالية في أصولها العربية ، ولكثرتها لا يمكن احصاؤها في هذا النطاق . وهناك كلمات كذلك في لغة الكلام يمكن التعرف عليها في اللغة الإسبانية مثل adobi من كلمة طوب وقد استعملت كذلك في أمريكا الآن لتعني الطوب النقيء وذلك من أيام المستوطنين الإسبان الأوائل (*) .

الجزيرة	دمشق	طحيرة [صجلة]	صك	موسم
دارالصناعة	عنبر	أمير البحر	طرف الغار	تعريف
				(*) ومن الأمثلة :
منارة	غزال	حتى	المحزن	الخص
القاضي	الحزاة	صحراء	السيد	مطرح
			القبعة	جمل
			مسجد	

أدب اللغة

رأينا كيف كان أثر الفكر العربى والثقافة العربية فى تقدم الحضارة الأوربية واضحا ولاسيما فى مجالات الفلسفة وعلم الكلام والعلوم والطب . وهناك أيضا مجال آخر لم نتناوله من قبل وقد ظهر بعد نشوب الحروب الصليبية فقط . فان النتاج الأدبى المتمثل فى الأدب الغنائى من أول أغنية رونالد التى تصور مغامرة شارلمان الاسبانية (فى القرن الثامن) الى أغاني شتيف (١١٣٠) وأغنية انطاكية (١١٨٠) قد ظهرت كمجموعة أساطير أدبية أكثر منها تاريخية وبها استعان تاسو فى كتابة ملحمة « تحرير بيت المقدس » وبهذه الطريقة نرى كيف أن شارلمان والملك آرثر فى Morte d'Arthur أصبحا من الصليبيين . كذلك نجد أغاني المنشدين (الشعراء الجواله) فى اسبانيا ، وشعراء الاقاليم فى جنوب فرنسا ، والمنشدين فى المانيا يحملون طابعا وتأثيرا عربيا . وفى القصة العاطفية الفرنسية القديمة Floire et Blanchfleur بمواقعها وأماكنها العربية وكذلك قصة Aucassin et Nicolette تشبه الى حد ما قصة أبو القاسم الاسبانية العربية .

وهناك حاجة الى دراسة أخرى تبين الى أى مدى أثر الشعر الغنائى العربى فى الشعر الغنائى الأوربى والعكس ومع ذلك فليس هناك شك فى أنه قد حدث بعض التفاعل فى اسبانيا وصقلية وذلك بعيدا عن أثر الصليبيين . والواقع أن هناك طريقين أدبيين من أصل عربى تركا أثرهما فى الأدب الغربى فى العصور الوسطى والعصر الحديث . فهناك ألف ليلة وليلة التى يقال أن هناك لمحات منها فى قصص « تشوسر » وأجزاء من Decameron التى كتبها Boccacio ، رغم أنه لم يعرف بعد الطريق

الذى وصلت به الى أوروبا فى هذه العصور المبكرة . وفى العصور الحديثة نجد أن روبنسون كروزو ورحلات جاليفر تحمل آثارا وفقرات من نفس الكتاب . زد على ذلك أن آثار الحروب الصليبية استمرت من العصور الوسطى حتى العصر الحديث وأنتجت لنا قدرا كثيرا من الشعر والقصص التاريخي نجده فى كتابات ملتون وسير والتر سكوت ، تبعثها طائفة من القصص التاريخية فى العصر الحديث تختلف قيمتها ، وإن عالم العربية الاسباني العظيم وهو المسيحي أسناذ علم الكلام . ميجيول أسن بالاسيوس Miguel Asin Palacios فى كتابه « الاسلام والكوميديا الالهية » "La Escatologia Musulmana en la Divina Commedia" قد أثار معركة كلامية عندما ابتكر نظريته الجديدة فى مدى تسلسل الفكر العربى وتدخل الأسطورة العربية فى الأدب الغربى . وقد نشر كتابه هذا عام ١٩١٩ ، ثم عدله فى طبعة مختصرة بالانجليزية سنة ١٩٢٦ . وقد وقف بالاسيوس حياته الى حد كبير على دراسة علم اللغة العربية وحضارتها ، وكانت دراسته الواسعة فى مجال الكلام والفلسفة فى العصور الوسطى عوناً له على معالجة هذا الموضوع والتحدث بقدرة وثقة عن تأثير ابن رشد فى القديس توماس الاكوينى . ثم أوضح بعد ذلك كيف أن الفيلسوف الكتالونى [من شمال شرق اسبانيا] الكبير رايموندل يدين بالكثير من كتاباته للزاهد الاسباني المسلم ابن عربى (١١٦٥ - ١٢٤٠) واستعرض بيقين وثبات آثار أعمال اخوان الصفا (العباسيين) فى فكر أنسلمو دى تورميذا .

ولكن مناقشة بالاسيوس عن الأصل الاسلامى للكوميديا الالهية التى ألفها دانتي أثارت من الغرابة أكثر مما أثاره أى شئ كتبه قبل ذلك . فدانتى الذى كان فيلسوف النهضة الخالد وشاعرها والذى كان النقاد والمؤرخون يعتبرونه الى ذلك الحين تلميذا لارسطو ولتوماس الاكوينى ، أظهره بالاسيوس واقعا تحت تأثير أكثر بعدا . لقد استنتج بالاسيوس ان صعود دانتي وبياترس الى مملكة السموات ، والى الجنة ، كان له

نظير فى تاريخ الرسالة المحمدية ، وهو عروج النبى محمد مع جبريل الى السماء . وقد كتب هذه القصة بتوسع فى القرن الثالث عشر الزاهد الاسبانى العربى ابن عربى من مورنيه فى جنوب شرق اسبانيا وتوفى قبل ميلاد شاعر فلورنسا العظيم (دانتي) بخمسة وعشرين عاما فقط . ويرجع أصل القصة الى الأيام الأولى من الاسلام وعناصرها موجودة فى علم الكلام الاسلامى تحت شعارين يدلان على دورتين الأولى الاسراء أو الرحلة الليلية الاعجازية للنبي الى بيت المقدس والثانية المعراج أو صعود النبي محمد من المدينة المقدسة الى عرش الله .

وقد ظلت عبقرية دانتي الخلاقة دون منازع، اذ أن المدارس والباحثين لم يجدوا فى الأدب المسيحى ما يمكن أن يكون قد تأثر به دانتي فى هذا الموضوع ، ثم جاء كشف بالاسيوس لنظير له فى الأدب العربى فكان كشفنا أدى الى الحاجة الى مراجعة المصادر التى يمكن أن يكون قد استلهمها أمير شعراء النهضة . وقد جاءت نتائج الموازنة بين الكوميديا الالهية والقصة الاسلامية مذهلة . فقد أصبح من الواضح أن دانتي بدين بحزء من بناء قصيدته الخالدة لتلك القصة المحمدية والأدب الاسلامى .

التعليم

لم تكن هذه المنجزات الرائعة التي حققها العرب فى العصور الوسطى فى عالم الدراسة مجرد مصادفة ، فقد دلت على جهد فكرى طويل ، واهتمام حقيقى بالثقافة من جانب الحكام والمحكومين ووجود نظام متطور متقدم للتعليم العام الى جانب خدمات ومصادر مكتبية واسعة . وقد سبق أن ذكرنا دار الحكمة فى بغداد ، ومثيلتها « دار العلم » فى القاهرة . ولكن هاتين كانتا اكاديميتين للدراسة أكثر منهما مدرستين منتظميتين ، وقد نفترض أنهما كانتا تقومان بعمل معاهد الدراسات العليا . والواقع أنهما كانتا فى تلك العصور الوسطى مثل معهد الدراسات العليا الموجود فى جامعة برنستون بأمريكا الآن أو معهد دمبرتون أو كس الموجود فى واشنطن . فقد كان المقصود منهما قبل كل شىء تقدم البحث والدراسة وترقيتهما .

أما أول مركز للتعليم العام بالمعنى الحقيقى للكلمة فيبدو أنه كان الجامعة التى عرفت باسم الجامع الأزهر الذى أنشئ تحت إشراف الفاطميين عام ٩٧٠ أداة ووسيلة لنشر مذهب الشيعة والدفاع عنه وذلك برغم أنه استمر بعد ذلك قلعة قوية لمذهب السنة . فبعد انتهاء عصر الفاطميين فى مصر ١١٧١ سرعان ما حول صلاح الدين وخلفاؤه من الأيوبيين الأزهر الى جامعة سننية تحت وصايتهم الكاملة . وقد قدره السلاطين المتعاقبون وأوقفوا عليه الكثير من الأموال . وكان من أعظم السلاطين الذين أولوا الأزهر اهتماما كبيرا وأمدوه بالأموال السلطان المملوك قايتباى (أحد المماليك البرجية) (١٤٦٨ - ١٤٩٥) وقد أضاف اليه مباني واسعة . وأصبح الأزهر رمزا للقيادة الروحية الاسلامية والدراسة الدينية .

وكان تقديس الأزهر أمرا تقبله المسلمون جميعا ، وكثيرون منهم اتخذوا من فنائه ملجأ لهم . ومازال التاريخ الكامل لهذا المعهد الاسلامي العظيم بونائقه وتسجيلاته التي نشرت والتي لم تنشر في انتظار التحقيق . ويجب ألا ينسينا الاتجاه النقدي لدراسته القديمة في العصر الحديث الدور الذي قام به بوصفه رائدا للعلوم الاسلامية في العصور الوسطى . فقد مر التاريخ الطويل المتأرجح لاقدم جامعة في العصور الوسطى بفترة هبوط في ظل الحكم التركي . وكانت الفترة من بداية فتح السلطان سليم الأول لمصر في ١٥١٧ حتى بداية الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨ من أحلك فترات التاريخ المصري أعقبتهما لحظة غير ناضجة نتجت عن أول اتصال بأوروبا في القرن التاسع عشر وكانت مرتبطة بالأزهر وأساتذته من العلماء .

ومع ذلك فعلى مدى العصور الوسطى ظل الأزهر مرتعا لآلاف من الطلاب من كل بقاع العالم الاسلامي . وكان الطلبة المقيمون يعيشون ويدرسون في جماعات تحت نظام « الرواق » الذي يشبه الى حد كبير تقسيم الطلبة الى أسر في جامعة أوروبا في العصور الوسطى . وكان الطلبة الغرباء أيضا يسمح لهم بالالتحاق ، وكانوا يعيشون حول المسجد . ومع أن جامعة باريس كانت تضم أربع أسر ، فإن الأزهر كان يتكون من ستة وعشرين رواقا كل منها يرتبط بوحدة جغرافية ، وكل منها يحتل ممرا بين عدد معين من الأعمدة وقد بلغت ٣٧٥ عمودا في الجامع . وكان الأساتذة والتلاميذ يتلقون العون من التبرعات والاقواف الخيرية . وأصبح كل أستاذ معروفا وعمود معين كان يجلس اليه ويحيط به تلاميذه في دائرة حيث يدرسون المعرفة المنقولة (العلوم النقلية) وهي علم الكلام، والشريعة ، والحديث ، والتصوف ، أو العلوم العقلية وهي علم اللغة والعروض ، والبلاغة والفلك . وكانت هنالك دراسات تتضمن الأدب والتاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية ، والرياضيات وفروعا أخرى من العلوم الانسانية ، وبوجه عام كانت في الأزهر طريقة لنقل حكمة الأجيال

السابقة أكثر منها محاولة للبحث في مجالات جديدة . وكانت الدراسة في الأزهر حماسية وكانت المحاضرة تستمر ساعات ويتوقف مداها على مزاج الأسناذ الذى كان ينتقل بحرية من موضوع الى آخر دون ضبط . وكانت ملكة الحفظ والاعتماد على الذاكرة من الأهمية بمكان ، فيبدأ بحفظ القرآن عن ظهر قلب وهذا النظام الذى أنتج كثيرا من الأسماء الشهيرة ، اضمحل واستهلك وجمد بمرور الزمن وجمد معه أساس الثقافة الاسلامية ككل (*) .

وقد تكاثرت المدارس فى العالم الاسلامى بمرور الوقت . ومن الصعب أن نحصل على احصاء دقيق أو شبه دقيق للأسس العلمية لهذه المدارس . ونحن نجد اشارات فى المصادر المعاصرة الى عدد كبير من المعاهد ذات الانماط المختلفة ، لا فى المدن الكبيرة بل فى قرى مغمورة . ونستطيع أن نستنتج من الرحالة العرب فى العصور الوسطى وكذلك من الكتاب أمثال ابن جبير فى القرن الثانى عشر ، وابن بطوطة فى القرن الرابع عشر ، والمقرئى فى القرن الخامس عشر - نستنتج انه كانت هناك على الأقل أربع وسبعون كلية فى القاهرة ، وثلاث وسبعون فى دمشق ، وواحدة وأربعون فى القدس ، وأربعون فى بغداد ، وأربع عشرة فى حلب ، وثلاث عشرة فى طرابلس فى سوريا ، وتسع فى الموصل ، وعدد كبير جدا فى الاسكندرية . ولم تكن هذه وحدها ، فقد كانت اسبانيا العربية ملأى بالمدارس والمدرسين . وكانت الأمية تكاد تختفى فى الخلافة الغربية (فى اسبانيا) وكذلك فى الخلافة الشرقية التى كانت لها ظروفها الخاصة .

وبمرور الوقت انتشرت ظاهرة بين القادة وذوى الثراء فى معظم البلاد التى تخضع للعرب لانشاء مدارس ومساجد وكانت تحمل (هذه المدارس

(*) يلاحظ أن هناك تطور حديث فى جامعة الأزهر وهو تحويلها الى جامعة بها كليات الطب والعلوم . . . الى جانب الدراسا التقليدية فى الدين واللغة .

أو المساجد) أسماء مؤسسيها ، وكان من القواعد المألوفة انشاء المدرسة داخل المسجد . وفى الاسلام كان للجامع استعمال أوسع من استعمال الكنيسة فى العالم المسيحى . فقد كان الجامع مكان عبادة ومركزا سياسيا واجتماعيا ومجلسا للدولة والادارة المدنية فى باكورة الامبراطورية الاسلامية ، ودار قضاء ، وأكثر من ذلك معهد دراسة . وفى بعض الحالات كانت المدرسة ملحقة بضريح أو مقام أو تلحق بمكان للعبادة (رباط أو خانقاه) ويعطينا الرحالة الفارسى ناصيرى خسرو صورة هامة لجامع عمرو بن العاص فى بداية عهده ، فيقول ان جامع عمرو بن العاص فى القاهرة أو القسطنطينية كان يؤمه يوميا ٥٠٠٠ شخص من بينهم نسبة كبيرة من الطلبة والأساتذة الذين كانوا يعقدون فصولا بين جدران المسجد .

أما التعليم العالى فقد كان متمركزا فى القاهرة وبغداد . فقد كان لجامعة الأزهر منافسان فى بغداد هما المدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية . وقد أنشأ «نظام الملك» الوزير المشهور للسلطان السلجوقى الب ارسلان ، والصدىق الصدوق للشاعر وعالم الرياضيات الشهير عمر الحيام ، المدرسة النظامية فى عام ١٠٥٠ . حضر الغزالى الفيلسوف العربى الشهير فى المدرسة النظامية من ١٠٩١ الى ١٠٩٥ . وكان الوزير المثقف يؤمن إيمانا عميقا بالتعليم ، وأنشأ كليات أخرى أصغر تحمل اسم النظامية فى نيسابور ، وبارق ، وحيرات ، واصفهان ، ومرو ، والبصرة ، والموصل . وقد قدر ما كان يتفق على كل هذه المعاهد سنويا بما يساوى مليوناً ونصف مليون دولار . فبخلاف المنح والمرتبات الكافية التى كانت تؤدى للأساتذة كان الوزير يعطى للتلاميذ مكافآت خاصة «معاليم» واستمرت النظامية تعمل فى بغداد حتى الفترة الأخيرة للقرن الرابع عشر عندما اندمجت مع المستنصرية بعد الغزو الثانى للمغول لمدينة بغداد على يد تيمورلنك فى عام ١٣٩٣ .

أما المستنصرية فقد أنشأها الخليفة العباسي المستنصر عام ١٢٣٤ لتكون حلقة دراسة لعلم الكلام ومدرسة لدراسة الشريعة الإسلامية التي وضعها الأئمة الأربعة للسنّة ، وكان لكل قسم أستاذ على رأس خمسة وسبعين دارسا .

وكما كان الحال في المدرسة النظامية كان المدرس والتلميذ يمنح مرتبا مناسباً وما يكفيه طول يومه من الطعام وأدوات الكتابة . فكانت كأنها مدرسة داخلية ، فيها مخادع للنوم ، ومطابخ ، وخزان لتبريد مياه الشرب ، وحمام ، ومستشفى بها طبيب لمعالجة المرضى ورعايتهم . وكان هناك ساعة من نوع الساعات المائية قائمة في القاعة الكبيرة لتعلن أوقات الصلاة . وكان التلاميذ الذين يرتادون المكتبة للقراءة ليلا ويستذكرون ليلا يمدون بالزيوت والمصابيح للأضاءة . واستمرت المدرسة بعد اكتساح هولاكو المغولي عندما احتل بغداد في عام ١٢٥٨ ، وكذلك بعد عام ١٣٩٣ في أيام تيمور لنك حتى اتحدت مع النظامية . وكانت كلتا المدرستين في مبان جميلة رائعة ؛ وخصص الخليفة المستنصر حديقة لها منظر واسعة تطل على الكلية ، وكانت هذه الحديقة لاستعمال الخليفة الذي كان قد ألف أن يقضى بعض وقته جالسا الى نافذة محجبة ليرقب نشاط الطلبة ويسمع المحاضرات دون أن يلحظ وجوده .

وكان ملحقا بكل مدرسة أو معهد مكتبة غنية بالمخطوطات . ذلك أن الدارسين كانوا يقضون وقتا طويلا ينسخون الكتب التي كانت تجد طريقها الى مكتبات المدارس والجوامع ، وقد ساعد وصول الورق من الصين الى الشرق الأوسط في القرن الثامن على النمو السريع وانتشار المكتبات في كل مدينة إسلامية في العالم تقريبا . وأقيمت مصانع الورق في سمرقند ، وبغداد ، وطرابلس في سوريا ، وعدد كبير من المراكز في مصر والأندلس لتوفى بحاجة الكتاب المتزايدة الى الورق وقد امتلأت مكتبات

قصور الخلفاء وكذلك معاهد التعليم الشهيرة بكميات هائلة من المخطوطات .
وكان لمعظم المكتبات الكبيرة موظفوها لتجليد النسخ الخطية واصلاحها .

ومن الصعب أن نعطي تقييما دقيقا لمحتويات أى من مكتبات المراجع،
إلا أنها كانت أكثر من أن يكون لها قوائم . ونحن لا نجد عددا مكتوبا
إلا أحيانا ، فقد كانت مكتبة مرصد المهرابا تحوى على ٤٠٠.٠٠٠
مخطوط ، وعندما أنشئت المدرسة المستنصرية أفتتح الخليفة مكتبة للمراجع
يعطاء ابتدائي من حمولة ١٦٠ جملا من الكتب ويقال ان صلاح الدين
أثلف مليونين من كتب الشيعة أو من التي تحمل أثرا للخلفاء الفاطميين .
وقد يبدو ذلك مبالغا فيه . وفى تقدير آخر أكثر تحفظا يقال انه أثلف
١٢٠.٠٠٠ كتاب وقد لا يكون هذا مقبولا . وحتى فى بعض القرى الصغيرة
جدا نسمع عن وجود مكتبات كبيرة جدا . فهناك مدينة تكاد تكون مجهولة
وهى « الرى » فى أعلى ايران ولا تبعد كثيرا عن بحر الخزر [بحر فزوين]
وكان لها مكتبة تحتوى على حمولة ٤٠٠ جمل من المخطوطات وبها قائمة
فى عشرة مجلدات .

وعند غزو بغداد على يد هولاكو خان عام ١٢٥٨ ، ألقى المغول الى نهر
دجلة بكميات هائلة لا تحصى من المخطوطات حتى أنها أقامت جسرا بعرض
النهر كالمارة والخيالة (كما قال المعاصرون) يعبرون فوقها النهر من شاطئ
الى آخر وقد تغير لون ماء النهر من تحلل مواد المخطوطات فى مجراه ،
ومع ذلك وبرغم كل هذا التدمير واذا سمحنا ببعض المبالغة فان الكثير
الذى بقى وأنقذ يحمل دليل حضارة براقة استطعنا أن نفهمها فهما
جزئيا .

خاتمة

وهكذا تجد أن قصة تاريخ العلاقات بين الشرق الأوسط والغرب كانت طويلة ومتقلبة متغيرة . فكثير من فصولها كان مملوءا بالعنف ، وبعضها هادئ سلمى تضمن اسهاما فى مسيرة البشر نحو التقدم . انه صراع هائل بدأ فى التاريخ القديم واستمر بحماس ونشاط ازداد عبر العصور الوسطى والعصر الحديث . برغم أن مركز الأحداث قد انتقل عبر القرون وأسباب الصراع قد تغيرت فى مظهرها الخارجى فان الأسس الأولى تظهر علامات واضحة للاستمرار .

فعندما ننظر الى الصراع العنصرى والثقافى بين اليونان القديمة والفرس ، وقيادة الامبراطورية الرومانية للشرق والغرب ، ونهضة الخلافة الاسلامية وامتدادها وتوسعها حول البحر الأبيض المتوسط ، واندفاع الصليبيين واختراقهم للشرق الاسلامى ، ثم مناهضة الصليبية ، والسلطنة التركية بنفوذها وسيطرتها التى عملت على الوحدة الاسلامية، تجد أن كل هذه الفصول تؤدى بنا الى عتبة التاريخ الحديث . فاذا ما وصلنا الى القرن التاسع عشر فاننا نفتتح صفحة جديدة فى هذه القصة التى لا تنتهى وندخل فترة جديدة لها معانيها الجديدة للمناطق الحاسمة فى الشرقين الأدنى والأوسط .

وان سيطرة العثمانيين على شرق أوروبا وغرب آسيا ، ووقوع مصر فى يد المماليك فى نهاية العصور الوسطى وفجر التاريخ الحديث يعلن بدء فترة حالكة لمعظم الولايات المحكومة . فان الحملة التى قام بها الأتراك

ضد الصليبيين كانت أول دليل على الوقوف ضد المسيحيين الأوروبيين ، وكان مقدرا لها أن تبدأ حربا ضارية لغزو الأراضى الإسلامية فى القرن السادس عشر ، ووقعت الأمة العربية تحت نير العثمانيين . وبدأت بغداد والقاهرة اللتان كانتا مهدا للحضارة السابقة - بدأتا تفقدان بهجتهما القديمة ومدهورتا وعلاهما صداً كاملاً - وأدى تحويل تجارة الشرق من أسواق القاهرة وسوريا الى فقر هذه البلاد الشرية ، وانتشر الجهل والمرض والفقر وسدت طرق التقدم لسوء الحكم ولعدم مراعاة الحقوق الانسانية . وظل سكان الشرق الأوسط فى غفلة عن مجدهم القديم وانحدروا الى غيبوبة سياسية .

ثم ظهرت فجأة حركة يقظة غير كاملة . وكان ذلك بدخول الحملة الفرنسية القصيرة العمر عام ١٧٩٨ الى مصر . فقد حدث أن وجد الناس المعزولون أنفسهم فى مواجهة نفوذ جديد من الغرب المتحضر . وأدركت أوروبا الفرص الرائعة التى يمكن أن يقدمها لها الشرق الأوسط . فقد تصور نابليون بونابرت أنه باقامة حكم فرنسى فى مصر تتوافر له امكانية انزاع الهند وتجارة الشرق من يدى الانجليز . وفى ذلك الوقت كانت تركيا تمثل رجلاً يحتضر ، وكانت القوى الأوروبية مشغولة بالتفكير فى كيفية تقسيم الامبراطورية التركية (العثمانية) ، وفى غمرة انشغالهم ومناقشاتهم وخاصة فى أثناء النزاع الحربى بين انجلترا وفرنسا شدا وجذباً - نشهد مولد الاستعمار الحديث والامبريالية وما له من آثار بعيدة فى علاقات الشرق والغرب . وهذا يفتح لنا فصلاً لم ينته بعد فى التاريخ المعاصر ، ومع أن هذا الموضوع لا يدخل فى نطاق كتابنا هذا فجدير بنا ألا نغفل اعطاء القارئ مجملًا للظواهر الواضحة التى تفسر ان الحركات القديمة انتقلت وتحولت الى أخرى جديدة فى عصرنا .

فالاستعمار وانشاء المستعمرات والامبراطوريات كان نتيجة منطقية ، برغم أنها بعيدة للحروب الصليبية تماماً كما كانت الحركات القومية

نتيجة طبيعية للغزو الغربى . وحقا ان الموازنة فى التاريخ لا يمكن أن تكون كاملة فى تفاصيلها الدقيقة الا أنها تكفى دليلا على القول بأنه غالبا ما نجد أن العنف يولد العنف . فكما كانت الحرب الصليبية من غرب أوربا سببا أدى الى الاسراع بحركة ضدها تقاومها من الشرق المسلم ، فقد أدى الاستعمار الحديث الى نشأة القوميات فى المناطق نفسها . وهذا يبدو واضحا فى مصر فى ثوراتها فى أعوام ١٨٨٢ ، ١٩١٩ ، ١٩٥٢ .

وفى خارج مصر ، قامت الثورة العربيه عام ١٩١٦ لمساندة الحلفاء فى أثناء الحرب العالمية الأولى أملا فى الحصول على الاستقلال من الأتراك ، ولكنها أدت الى مهزلة نظام الانتداب الذى حاولت به انجلترا وفرنسا أن تعيدا الحياة بطريقة جديدة الى مبدأ الاستعمار الذى كان يحتضر . وهكذا نجد مرة أخرى مساحات شاسعة من الشرق الأوسط العربى تنقسم الى مناطق نفوذ بين قوتين استعمارييتين تحت شعار عصبة الأمم . ولكن هذا النظام – لأنه لم يكن طبيعيا – كان مقدرا له أن ينتهى ويزول من الطريق . فقد أخفق أمام نشأة سلسلة من الدول الجديدة . وبين هذا الخضم من الأحداث ، ظهرت دولة اسرائيل فى عام ١٩٤٨ وحرب السويس ١٩٥٦ ، ويجدر بنا أن ننظر الى هذه الأحداث على ضوء العلاقات بين الشرق الأوسط الذى يبحث عن كرامته وتحقيق ذاته وبين الغرب حيث كانت انجلترا وفرنسا تبحثان عن وسائل وطرق لوقف الصحوة المتواصلة للمعلاق المهدد .

وتأخذ المشاكل المعقدة لعلاقات الشرق والغرب مظهرا جديدا فى المدى الذى عشناه على ظهر الأرض ، يعكس هذا المظهر صراعا عن مذهبين من مذاهب الفكر والسياسة هما الشيوعية ، والديمقراطية ، ويشير اليهما بعض المشاهدين فى المناطق المتخلفة على أنهما استعمار جديد (امبريالية) . ونبدأ بعصر التحالفات على نطاق واسع ، فبينما نجد المعسكر الشيوعى خلف الستار الحديدي يبتاع كل شرق أوربا وأوربا الوسطى الشرقية ؛

ويضاف الى ذلك القارة الصينية ، تحاول القوى الديمقراطية تحت زعامة الولايات المتحدة أن تحبط المناورات الروسية وذلك باقامة أحلاف عسكرية مثل حلف شمال الأطلنطي ، وحلف جنوب شرقى آسيا ، وبين هذه الكتل الضخمة تميل الأمم غير المنحازة الى اتجاه جديد برغم أن النظرية الخاصة به ليست جديدة وهى نظرية الحياد الايجابى . ورواد هذه الحركة مصر ، والهند ، ويوجوسلافيا . وفى الوقت نفسه بدأت افريقيا السوداء تستيقظ ببطء كما يستيقظ العملاق ، ونجد أن أهالى افريقيا تنقسم عواطفهم بين هذه القوى الثلاث الموجودة ، ولعلمهم يكونون عنصرا جديدا قويا فى تشكيل العلاقات الدولية بمرور الوقت .

وكذلك نشهد مولد قوى جديدة أخرى وأن هذه القوى الجديدة تحاول أن تتحالف مع بعضها البعض لتكون أقاليم بأسرها . ومع أن بعض هذه الاتجاهات الى التجمع غير كاملة فاننا نجدها ملحوظة فى المجال الاقتصادى وكذلك السياسى بين المجموعات المتجاورة من الدول . فهناك منظمة الدول الأمريكية وهى قائمة حتى الآن . ويجدر بنا دراسة وحدة مصر وسوريا فى جمهورية واحدة وهى الجمهورية العربية المتحدة وان كانت الصفة الرسمية قد استمرت فترة قصيرة . ويجب أن تكون هذه الدراسة فى اطار الكتلة العربية فى الجامعة العربية التى تطمح الى وحدة العرب السياسية وهى لم تتم حتى الآن . وفى أوروبا نجد مجموعة من الدول الغربية التى اضطرت الى أن تتخذ خطوات معينة تجاه تكوين كتلة أوربية محلية لمواجهة التفوق المذهل لحليفها أمريكا ، وفى الوقت نفسه لمواجهة الخصم المخيف لها وهو « روسيا » . وفكرة مجموعة أوربية قد تضم بريطانيا بدأت تأخذ شكلها تدريجيا ، والمقصود منها اقامة اقتصاد صالح للدول الأعضاء دون المساس بسيادتها الفردية . وقد أدلى بعض الكتاب بأفكار جريئة فهم يرون أن يمتد التحالف الاقتصادى الى تحالف عسكرى ، وآخر سياسى . بل ان المتفائلين يحلمون بعالم فاضل أى (يوتوبيا) تتحد

فيه السیادات الغربية فى تحالف فيدرالى « الولايات المتحدة الأوروبية »
له برلمان وتنظیم ادارى لكن هذه الخطوة الثورية لم تتم بعد .

وقد قدم سير أوليفر فرانكس السفير البريطانى السابق لدى الولايات
المتحدة الأمريكية تقريرا عميقا يتضمن موضوعا جديدا جريئا هو أن المشكلة
بين الشرق والغرب بدأت تتوارى ويحل محلها مشكلة الشمال والجنوب .
فان المواجهة الحاسمة فى شئون العالم كما يراها هى ازدياد العلاقة
بين الدول الصناعية الغنية فى الشمال والدول النامية فى الجنوب .
وفى رأيه أن المشكلة بين الشمال والجنوب ستكون عاملا حاسما فى مصير
علاقات الشرق بالغرب . والأمل فى الاستقرار وحل مشاكل العالم يتوقف
على استعداد دول أوربا وشمال أمريكا للتعاون لرفع المستوى الاقتصادى
والديمقراطى للحياة بين الدول الناهضة فى آسيا وإفريقيا وأمريكا
اللاتينية .

وفى غضون هذا كله نشهد أبعادا جديدة لها قوة هائلة فى هيئة
الامم المتحدة التى تؤكد شخصيتها التاريخية لحقوق الانسان : الاحترام ،
والعدل ، والالتزام بميثاق القانون الدولى والحفاظ الجماعى على السلم
والأمن . وبذلك تعبر عن الآمال الحاضرة لسلامة الغد ، والشعور بوحدة
العالم ان لم يكن باتحاده . وفى عالم الغد يجب أن يتحد الماضى والحاضر ،
وليس بعيدا عن الاحتمال أن تنمحي الصفات المميزة لكل قرن . فان
حيوية المسرحيات الأغريقية الكلاسيكية لم تتلاش بسبب اختلاف الاخراج
على المسرح الحديث عنه فى القديم . وقياسا على هذا ، بالرغم من اتساع
المسرح وازدياد عدد الشخصيات فان القوى الصليبية والقوى التى قامت
لتناهض الصليبية ما زالت تعيش ولو أنها تحت قناع آخر .

واذا استعرضنا القوى الآتية : الفرس ، واليونان ، وجنود
الرومان ، وخصوم الاسلام ، وفرسان الفرنجة ، والغزاة العثمانيين ،
وجنود بونابارت ، وجنود حربين عالميتين ، نجد أنها مرت متعاقبة عبر

أراضى البحر الأبيض المتوسط • وخضعت بالتعاقب أيضا لضربات الحصار
الذين جاءوا بعدها • واليوم ، اتسع الميدان لتجد الاتحاد السوفيتي
والولايات المتحدة الأمريكية على رأس القوى المتنازعة وكل منهما تمتلك
الأسلحة والمذاهب السياسية • ومع ذلك فإن الشرق الذي عرفناه أيام
الحروب الصليبية • وأيام الحروب الصليبية المضادة ما زال باقيا عاملا
هما في اقرار القوى العالمية •

« ملحق »

مصادر دانتى والقصة الإسلامية

مرت مدة طويلة كان النقاد يعتبرون دانتى فيلسوف النهضة وشاعرها الخالد من تلاميذ أرسطو وتوماس . وفى عام ١٩١٩ نشر أحد اللاهوتيين المسيحيين الأسباب الذين يجيدون اللغة العربية وهو ميجيول اسن بالاسيوس « الاسلام والكوميديا الالهية » وقد تشكك بالاسيوس فى أن يكون لدانتى أصالة فى تأليف الكوميديا واستعرض الشبه الواضح بين الكوميديا الالهية والقصة الاسلامية ، والاتفاق الواضح بينهما فى الحطة وفى تفاصيل كثيرة . فقد اتضح أن الحركة ، والغرض الرمزى ، والفكرة عن الهندسة الفلكية للسماء وطبقات الجو ، والفكرة الأخلاقية ، وكثيرا من الاستنباطات الأدبية - ظهر أنها كلها متشابهة تماما وتكاد تكون واحدة فى كل من دانتى والقصة الاسلامية .

وقد رويت القصة مرتين فى اللغة العربية أولا : عندما رواها الزاهد الضريب فى القرنين التاسع والعاشر ، أى أبو العلاء المعرى (٩٧٣-١٠٥٧) وكان يسمى فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة . وفى رسالته « رسالة الغفران » يستعرض بمهارة وفصاحة الرحلة السماوية للنبي محمد وأكد عناصر رحمة الله الواسعة فى مقابلة ما له من سخط وجبروت . وثانيا : بعد ذلك بنحو قرنين أعيدت رواية القصة بروح تختلف كل الاختلاف وبطريقة أطول من طريقة أبى العلاء ، قام بذلك الاشراقى الصوفى « ابن عربى » الذى تعزى فلسفته خطأ الى الأמידولية وتلميذ الأفلاطونية الحديثة من مدرسة ابن مسرة (٨٨٣ - ٩٣١) بقرطبة ؛ وقد أتم هذا العمل فى كتابين نشر أحدهما وهو « كتاب الفتوحات المكية » أما الآخر فلم ينشر ولا زال مخطوطا وهو « كتاب الاسرا الى المقام الأسرى » .

ويمكن توضيح التشابه بين روايتى ابن عربى ودانتى ببعض الأمثلة
المحسوسة . ففي كل من الكتابين يقص النبى محمد ، ودانتى تجربتهما
فى العالم الآخر . ويبدأ كلاهما رحلته ليلا . وفى القصة الاسلامية
يعترض أسد وذئب الطريق الى الجحيم ، وفى شعر دانتى يعترض الطريق
فهد وأسد ذئبة . ونجد خايطور رئيس الجن الذى يخاطب النبى فى قصة
ابن عربى على حين نجد فرجل فى شعر دانتى زعيم الكلاسيكيين هو الذى
يصاحب دانتى . وفى كل من الروايتين نجد التحذير واحد من الاقتراب
من الجحيم : أصوات مختلفة ، وانفجار لهب . كما نلاحظ أن بناء الجحيم
فى كلتا الروايتين واحد ، فهو تنور كبير يتكون من عدة طبقات مختلفة
على حسب الطبقات المختلفة من الخاطئين .

وبعد عبر جيل التطهير نجد اللجنة الاسلامية والمسيحية واحدة .
فتشارك بياتريس دانتى كما يترك جبرائيل محمد عند اقترابهما من الحضرة
الالهية . والملك العملاق فى الرواية الاسلامية يمثله ديك ويحل محله
نسر سماوى فى رواية دانتى . ويرى دانتى الكوكب زحل وله سلم ذهبي
يصل به آخر السماوات . ويصعد محمد سلما من بيت المقدس الى أعلى
السماوات . والصعود الى الله فى كلتا الروايتين واحد ، فكلاهما يصف
الرؤيا الالهية كأنها بؤرة نور قوى تحيط بها تسع دوائر متمركزة من
الأرواح الملائكية تزيدها اشعاعا وفى الوسط « الشاروبيم » ونجد
الاستجابة عند كلا الحاجين [محمد ودانتى] للرؤيا العظيمة واحدة .
فكلاهما انبهر بضوء خاطف للبصر حتى انهما يعتقدان أن بصريهما قد
ضاعا وأنهما قد أصابهما العمى . وتدرجيا يسترجعان قوتيهما على
الأبصار ويستطيعان أن ينظرا الى المنظر الابداعى الاعجازى ثم يفقدان
الوعى فى نشوة .

والسؤال الآن الذى يحتاج الى اجابة هو كيف نربط معا هاتين
الطريقتين المختلفتين للتفكير ، احدهما شرقية باللغة العربية والأخرى
غربية ، بلغة أهل فلورنسا (الايطالية) . والمشكلة ليست بالصعوبة

التي تبدو بها ، فالفضل في حلها يرجع الى بلاسيوس فقد بحث في المصادر الأسبانية العربية في العصور الوسطى وكذلك في اللاهوت المسيحي .
وهناك وثيقة واحدة من الأدب في القرن التاسع تستحق البحث والدراسة . فالنسخة اللاتينية لكتاب « التاريخ العربى » التي كتبها كبير الأساقفة رودريجو جيمنيه دى رادا من طليطلة Rodrigo Jiménez de Rada of Toledo تحتوي على دراسة لحياة محمد وفيها يضم المؤلف الترجمة الحرفية لقصة « المعراج » من مصادر اسلامية موثوق بها وهي « الحديث » . وهذه الرواية تكاد تكون مطابقة تماما لما ورد في العمل المشهور القديم للبخارى المحدث المسلم العظيم . وقد سجلت هذه القصة في « تاريخ العرب » وانتقلت الى تاريخ أسبانيا وجمعها ما بين ١٢٦٠ ، ١٢٦٨ الملك الحكيم الفونسو العاشر باضافات قليلة من مصادر أصلية أخرى .

وبعد ذلك - وفي القرن نفسه - نجد عملا آخر تحت اسم Inpunacion de la seta de Mohomah كتبه القديس بيتر باسكال أسقف جين Jaen وهو أحد رهبان الرحمة أثناء فترة أسره في غرناطة بين عام ١٢٩٧ وعام ١٣٠٠ وانتهى أمره بالقتل على أيدي المغاربة العرب . وتدل حياته وأعماله على أنه كان رجلا ذا مكانة ودراسة عميقة . وكان مدرسا لولى العهد في براجون . وعندما زار روما استحوذ على إعجاب البابا نيقولا الرابع كعالم من علماء اللاهوت . وألقى محاضرات في جامعة باريس وهو في طريق عودته الى بلاده . وفي أعماله نجده يقتبس من القرآن والحديث فيما يتعلق بفلسفة الحشر . وترجع فيه مقطفاته الى اشارته الخاصة بكتاب اسمه « المريجى » وهو بلا شك « المعراج » أى صعود محمد الى السماء . ونجده يستخدم فصلا مسهبيا من الكتاب نجد فيه تشابها كبيرا لمفهوم دانتى . فنجدته يتحدث لا عن السماء والجحيم ، بل عن الصراط وهو خيط رفيع أو ممر مستقيم يقوم جسرا بين الجنة والنار وتمر عليه الأرواح التي يجب أن تحفظ توازنها أثناء السير . وهذا هو المرادف الاسلامى للمطهر عند دانتى . وبنهاية القرن الثالث عشر كانت القصة كلها قد عرفت واشتهرت في الدوائر الأدبية الأسبانية ومن المحتمل كذلك في الغرب كله ، ومن بين ذلك ايطاليا .

ومع هذا العرض التاريخي الذي يرجع الى الأصول ، فان الدارس المحقق يمكنه أن يحكم على الموضوع كله على أنه حدث مهم الا اذا استطاع أن يحققه بأدلة مادية أخرى . وهذا ما فعله اسن بالاسيوس بمهارة . فهو يذكر أن دانتي تلقى مرانته الأدبية من علامة في فلورنسا صاحب دائرة معارف اسمه بروننتو لاتيني وصل الى أعلى المراتب في توجيه الرأي العام . وعندما كان دانتي شاعرا حديثا ، احتضنه بروننتو وأولاه رعايته . وكان دانتي يستمع الى نصائحه . وقد ظهرت الروابط الروحية التي ربطت التلميذ بأستاذه واضحة في مناقشاتهما عندما تلاقيا بعد ذلك في الجحيم . ويتفق المعلقون على « الكوميديا الالهية » بل انهم يقررون أن القصيدة الرمزية “ Tesoretto ” التي كتبها بروننتو تعتبر احدي مصادر الالهام بالنسبة لدانتي . ولكن ما يجدر أن نأخذه في الاعتبار هو أن بروننتو نفسه كان ذواقة للحضارة العربية عندما كان سفيرا لفلورنسا في بلاط الفونسو الحكيم عام ١٢٦٠ . كما زار طليطلة واشبيلية حيث كانت مجالا واسعا لترجمة الأصول العربية . وكانت أهم أعماله “ Tesoretto ” , “ Tesoro ” وقد كتبهما بعد عودته من أسبانيا مباشرة ، وتظهر لنا تأثيره القوي بالأدب العربي . وقد نقل بروننتو الى تلميذه دانتي احترامه وتقديره للحضارة العربية السامية وهذا أمر واضح ، واستنتاج في محله . فان كثيرا من كلام دانتي في « الكوميديا الالهية » يؤيد هذا الغرض وسيكون من الصعب معارضة هذه النظرية وخاصة اذا ما لحظنا التشابه في النصوص مع « الاسراء » لابن عربي .

وقد جعل اسن بالاسيوس الأمر واضحا ، وهو ان أبا النهضة وشاعرها يدين بجزء كبير من بناء قصيدته الخالدة للتصوف الاسلامي وقصصه وكتاباتة .

الاسماء الأفرنجية ومرادفاتها

(١)

المرادف باللغة الأجنبية	الكلمة العربية	رقم الصفحة في الترجمة
Aachen	آخن	٢٣
Assyria	آشور	١٧
Hapsburgs	آل هابسبرج	١٤٢
Hetheunians	آل هاثوميان	١٢٥
Averroes	ابن رشد	٢٠٨
Avicenna	ابن سينا	٢٠٧
Bar Hebraeus	ابن العبري	٢٠٤
Abelard	أبلارد	٦٠
Apulia	أبوليا	١٥٨
Hanseatic League	اتحاد الهانسيك	١٥٩
Egibald	اجبالد	٢٦
Aguilers	أجويلر	٤٧
Encyclopedia of Sc	احصاء العلوم	٢٠٦
Order of Bridge Brothers	اخوان الكباري	١٦٣
Adrianople	أدرنه	١٠٠
Adhemar de Monteue	أدهيمار دي مونتي	٣٩
Adhemar of Bath	أدهمار من باث	٢١٠
Aragon	أراجون	٣٧
Arbela	أربلا	١٣
Arculf	أركلف	٣٠
Orkhan	أرخان	٩٢
Aristotle	أرسطو	٧١
Arxamen	أركسامون	١٥
Lesser Armenia	أرمينيا الصغرى	١٦
Zenobia	الزباء	١٥
Smyrna	أزمير	٨٨
Asturia	استوريا	٣٧
Ashot III	أشوت الثالث	٢٢
Adalia	أضاليا	٩٠
Adana	أضنه	١٢٥
Pillars of Hercules	أعمدة هرقل	٢٠

المترادف باللغة الأجنبية	الكلمة العربية	رقم الصفحة في الترجمة
Aftekin	أفتكين	٢٢
Offa	أفسا	١٥٧
Avdimou	أفديمو	١٢٧
Avignon	أفينون	٨٥
Xerxes	أكزرسيس	١٤
Aquapendente	أكواينديت	٢٦
Aquitaine	أكويتين	٥٦
Albigensian	الألبيجنسية	٧٨
Armenians	الأرمن	١٧١
The Babylonish Captivity	الأسر البابلوني	١٤٦
Aghlabids	الأغالبة	١٥٤
Kurds	الأكراد	١٧١
Albanians	الألبانيون	١٧١
Alaya	ألايا	١٢٩
Archipelago	الأرخبيل	٨٥
Avars	الأفار	١٦
Ionian	الأيونيون	٧٢
Elbe	اللب (نهر الب)	١٦٣
Suprme Porte	الباب العالي	١٠٥
Parthian	البارثيه	١٤
Paphos	الباني (بافوس)	١٣٠
Albertus Magnus	البرتوس ماجنوس	٢٠٣
Bosphorus	البسفور	١٦
Alpetragius	البطروجي	٢٢٠
Curia Romana	البلاط البابوي	١٠٤
Peloponnesus	البلوبونيسييس	٧٢
Cistercian (Benedictines)	البندكتيون	٥٤
Venice	البندقية (فينيسيا)	٧٠
Appenines	الآبنين	٦٩
Turcomans	التركمان	١٧١
Galilee	الجليل	٧٦
Passagium Generale	الحج الجماعي	٧
Assassins	الحشاشون	٧٨
Hafsids	الحفصيون	٩٢

المرادف باللغة الأجنبية	الكلمة العربية	رقم الصفحة في الترجمة
Hira	الحيرة	١٩٥
Algorism	الخوازمي	٢١٣
Templars	الداوية	٥٤
Hellespont	الدردنيل	١٠
Dodecanese	الدوديكان	٧٢
Rhazes	الرازي	٢١٧
Rhine	الراين	١٦٣
Stupor Mundi	الرجل العجيب	٧٥
Edessa	الرها	١٤
Arzachel	الزركلي	٢١٩
Slavs	السلاف	١٧١
Pax Romana	السلام الروماني	١٤
Slovenes	السلوفنيون	١٧١
Seleucid	السلوقيون	١٤
Circassians	الشراكسة	١٧١
Golden Fleece	الصوف الذهبي (جماعة)	١٠٠
Cathay	الصين	٨٠
Meiji Era	العصر الماجي	١٩٨
Alfarabius	الفارابي	٢٠٦
Euphrates	الفرات	١٥
Hospitallers	الفرسان البيض	٥٥
Franks	الفرنجة	٨
Flanders	الفلاندرز	٧٠
Flemings	الفلمنجيون (الفلمنكيون)	٣٩
Alfonso Alboquerque	الفونسو البوكرك	١٩٣
Prester John	القديس جون	١٠١
St. Francis of Assissi	القديس فرنسيس الأسيسي	١١٠
Crimea	القرم	٨٩
Golden Horn	القرن الذهبي	١٣٨
Clysmas	القلزوم	١٦٤
Visigoth	القوط (الفيسفوت)	٢٠
Carolingians	الكارولنجيون	٩
Roman See	الكرسي البابوي	٨
Alexius Comnenus	الكسيوس كومنينس	٢٢

المرادف باللغة الأجنبية	الكلمة العربية	رقم الصفحة في الترجمة
Orontes	الكلب (نهر الكلب)	٢١
Kufah	الكوفة	١٨
Lydda	اللد	٧٦
Loire	اللووار	١٦٤
Ctesiphon	المدائن	١٤
Almoravids	المرابطون	٣٦
Cyrus	المقوقس (كورثس)	٢٠
Offa Rex	الملك أفا	١٥٧
Mongols	المنغوليون	١٧١
Cité d'Auffrique	المهدية	٩٢
Morea	المورة	١٣٤
Yarmuk	اليرموك	١٨
Jacobites	اليعاقية	١٠١
Greeks	اليونانيون	١٧١
Amasia	أماسيا	٢٦
Amalric	أمرك	٥٨
Amalfi	أملفي	٥٥
Ammonius	أمونيوس	٢٠٤
Amedeo VI	أميديو السادس	٩١
Anazarb	أنازارب (عين زربه)	١٢٥
Anatoli-Hissar	أناضولي حصار	١٣٨
Empedocles	إمبادقليس	٢١٧
Englebert de la Marche	انجلبرت دي لامارش	١٧٨
Enguerrand de Coucy	انجوراندي الى كوسي	٩٧
Angoulême	انجوليم	٣٣
Andronicus I Comnenus	اندروتيكس الاول كومنينس	٦٥
Anselmo de Turmedo	انسلمو دي تورميديا	٢٣٦
Antakieh	انطاكية	١٦
Angora	أنقره	١٣٥
Anna Comnena	أنا كومنيانا	٤٧
Innocent III	أنوسنت الثالث	٧٠
Aeneas Sylvius Piccolomini	انياس سيلفيوس بيكولوميني	١٤٠
Anjou	أنجو	٣٣
Obin d'Angers	أوبين دي انجير	٣٢

المرادف باللغة الأجنبية	الكلمة العربية	في الترجمة رقم الصفحة
Oderic	أودريك	٨٧
Oderio of Pordenone	أودريو من بوردينون	٨٧
Orsova	أورسونا	٩٥
Urmia	اورميا	٢١٨
St. Augustine	أوغسطينس (القديس)	٢٨
Auvergne	أوفرني	٣٦
Orvieto Sovana	أورفيتو سوفانا	٢٦
Sir Oliver Franks	أوليفر فرانكس (سير)	٢٤٨
Olivola	أوليفولا	٣١
Lajazzo	اياس (لاجازو)	١٢٥
Epirus	ايبيرس	١٣٤
Eugenius IV	ايوجينوس الرابع	١٠٢
Aegean Sea	ايجه (بحر)	٨٩
Aidhab	عذاب	١٦٣
Eratosthenes	ايراتوثينس	٢٢٢
Urban	ايربان (البابا)	٨
Issos	ايسوس	١٦
Ivrea	ايفريا	٢٥
Ailath	ايله (ايلات)	٦٤
Eudocia	ايودوكيا	٢٩

« ب »

Babylonia	بابيلونيا	٨٥
Pachomius	باخوميوس (القديس)	٢٨
Barbarigo	بارباريجو	١٤٢
Parma	بارما	٣١
Basil II	باسل الثاني	٢٢
Paphos	بافوس (البان)	١٣٠
Baldwin	بالدوين	٣٩
Baldwin du Burg	بالدوين دي بوج	٥٣
Palermo	بالرمو	١٥٨
Bamberg	بامبرج	٣٣
Byblos (Jubail)	ببلوس (جبيل)	٦٧
Pepin III	بين الثالث	٢٣

المرادف باللغة الأجنبية	الكلمة العربية	رقم الصفحة في الترجمة
Patras	بقراس	١٤٢
Bugia	بجايه (بوجيا)	٨٤
Porpontic Sea	بحر بربونتك	٩
Caspian Sea	بحر قزوين	٢٦
Branbant	برابنت	١٧٨
Brahmagiysta	براهما جيتا	٢١٣
Barbarossa	بربارسا	٦٨
Burgundy	برجندى	٩٤
Parpontis	بربونتس	٢٠
Persapolis	برسابوليس	١٤
Bursbay	برسباى	١٢٧
Barcelona	برشلونة	١٥٩
Bernard the Monk	برنارد الراهب	٢٦
Bernard of Clairvaux	برنارد من كليرفو	٥٤
Brindisi	برندبزي	٧٣
Brenner	برنر (ممر)	١٦٣
Bruges	بروجز	١٥٩
Brunetto Latini	برونتو لاتينى	٢٥٥
Brittany	بريتانى	٣٨
Peshawar	بشاور	١٣
Pelagius	بلاجيوس	٧٥
Palaeologi	بلايولوجى (أسرة بلايولوجى)	٩١
Blois	بلوا	٣٩
Plotinus	بلوتينس (افلاطون السكندرى)	٢٠٢
Banu Lakhm	بنو لخم	١٨
Benito Zaccharia	بنيتو زكاريا	٨٤
Vahram Gor	بهرام جور	١٨
Shammsiyah Gate	بوابة الشمس	٢١٨
Poitou	بواتو	٥٦
Bugia	بوجيا (بجاية)	٨٤
Buda	بودا	٩٥
Porphyry	بورفيرى	٢٠٤
Bosnia	بوسنيا	١٣٤

في الترجمة
الكلمة العربية
المرادف باللغة الأجنبية

Boucicaut	بوسيكوت	١٣٥
Bonus	بونس	١٧
Boniface IX	بونيفاس التاسع	٩٤
Bohemond	بوهمند	٣٩
Puy	بى	٣٩
Beatrice	بياتريس	٢٣٦
Piacenza	بياسنزا	٣٦
Jerusalem	بيت المقدس اورشليم	٨
Peter the Venirable	بيتر (بطرس) المبجل	٢١٠
Périgueux	بيرجيه	٣٠
Peruzzis	بيروزي	١٨٠
Besant	بيزانت	٧٧
Pius II	بيوس الثانى	١٠٤
Pierre de Fermat	بير دى فيرمات	٢١٥

((ت))

Tarentum	تارنتم	٣٩
Taormina	تايورمينا	١٥٤
Palmyra	تدمر	١٥
Thrace	تراقيا	٧٢
Transylvania	ترانسلفانيا	١٠١
Transoxonia	ترانسوكزونيا	٢٢٣
Trebizond	تريبزون (طرابيزون)	٤١
Trier	تريير	٣٣
Thessaly	تساليا	١٣٤
Zecchini	تسكينى	١٧٧
Chartres	تشارتر	٤٧
Tashfin	تشنفين	٣٣٨
Chaucer	تشوسر	٢٣٥
Dura Europas	تلول دورا	١٥
Toron (Tibnin)	تورون (تبينى)	٧٦
Tuscany	توسكانى	١٠٦
Thomas	توماس	١٣٧

رقم الصفحة
في الترجمة الكلمة العربية المرادف باللغة الأجنبية

Toulouse	تولوز	٤٧
Thomas Palaeologus	توماس بالايولوجس	٨١
Thomas Morosini	توماس موروسيني	٧٢
Thomas Mocenigo da Compo-	توماس موكنيجو دا	١٦٩
Fregoso	كامبوفرغوس	
Theodore	تيودور	٢٢٨

« ث »

Thoros	ثوروس	٤٨
Ceuta	ثيوتة (سبتة)	٢٢٣
Theophrastus	ثيوفراستس	٢٠٤
Theodosius	ثيودسيوس	٢٠٣

« ج »

Gaban	جابان	١٢٥
Jasques de Helly	جاك دي هلي	٩٧
Jacques Cœur	جاك كور	١٨٩
Ganzak	جانزاك	١٧
Gabriele Trivisano	جبرييل ترفيزانو	١٣٨
Ghibelline	جبلين	٥٩
Jubail (Byblos)	جبيل (بيلوس)	٦٧
Gottchalk	جوتشلاك	٤٦
Gran	جران	٩٣
Gerbash	جرباش	١٢٧
Gerbert	جربرت	٢١٠
Grousset (René)	جروسيه (ريثيه)	٤٣
Gregory IX	جريجورى التاسع	٧٦
Gregory VII	جريجورى السابع	٣٥
Gesta Francorum	جستا فرانكورم	٤٩
Justinian	جستنيان	١٣٩
Geoffroy de Thoisy	جفروى دي توازى	١٠٢
Guelders	جلورز	١٧٨
Djem	جم	١٠٥

المرادف باللغة الأجنبية	الكلمة العربية	رقم الصفحة في الترجمة
Gennadios	جناديوس	١٣٨
Jundishapur	جندسابور	٢١٨
Genoa	جنوه	٧٣
Juan de Cardona	جوان دي كاردونا	١٤٢
Godfrey de Bouillon	جودفري دي بوابون	٣٩
George Brankovitch	جورج برانكوفتش	١٠١
George Scholarios	جورج سكولاريوس	١٣٨
Gorigos	جوريغوس	٩٠
Goscelin	جوسلين	٥٢
Guelf	جولف	٥٩
John Tzimisce	جون تسيمسكس	٢٢
John II the Good	جون الثاني الطيب	١٧٨
John de Brienne	جون دي برين	٧٤
John de la Valette	جون دي لا فاليت	١٤٢
John Zapolia	جون زابوليا	١٤١
John de Nevers	جون دي نيفرز	٩٤
John of Monte Corvino	جون من ديركورينو	٩٧
John Huss	جون هس	١٤٦
John Wycliffe	جون ويكليف	١٤٦
Guy	جى	٦٥
Gian-Andrea Doria	جيان أندريا دوريا	١٤٢
Gibbon	جيبون	١١٣
Guy de la Termouille	جى دي لا ترمولى	٩٧
Gerard of Cremona	جيرارد من كريمونا	٢١٤
Girolamo Minotto	جيرولامو مينتو	١٣٩
Jaen	جين	٢٥٣
Janus	جينس	١٢٧
Giovanni Giustiniani	جيوفانى جياستينيانى	١٣٩
Giovanni Dominilli	جيوفانى دومينلى	١٠٦
Giovanni Centurione d'Oltramare	جيوفانى سنتيوريون	٩٣
Guillaume de Machaut	دي التراماينو جيوم* دي ماشوه	١١٣

* غليوم

« ح »

Krac de Chevaliers	حصن الاكراد	٥٤
Krac de Monréale	حصن الشوبك	٥٣
Fortress of Babylon	حصن بابليون	٢٠
Harran	حران	٥٢
The Conciliar Movement	حركة التوفيق	١٤٦
Hittin	حطين	٦٦
Homs	حمص	٢٢

« د »

Dara	دارا	١٦
Darius III	داريوس الثالث	١٣
Daitgard	داسجارد	١٧
Dante	دانتي	٢٥١
Danial Morley	دانيال مورلي	٢١٠
Dragases	دراجاسس	١٠٤
Durazzo	درازو	٤٧
Delbrück	دلبروك	١٢٣
Tancred	دنكري	٣٩
Doris	دورس	١٣٤
Dorylaeum	دوريليم	٤٨
Ducat	دوكات	٩٣
Dom Francisco de Almeida	دوم فرانسيسكو دي الميدا	١٩٣
Don Juan	دون جوان	١٤٢
Demetrius Palaeologus	ديميتريوس بالايولوجس	١٣٧
Demosthenes	ديموثينوس	٥٦
Dinant	دينانت	١٦٣

« ذ »

Dhu-Qar	دو قار	١٨
---------	--------	----

« ر »

Radbert	رادبرت	٢٥
---------	--------	----

المرادف باللغة الأجنبية	الكلمة العربية	رقم الصفحة في الترجمة
Rahova	راهوفا	٩٥
Raymond of Toulouse	رايموند التولوزي	٥٧
Raymond du Puy	رايموند دي بى	٥٥
Raymond Lull	رايموند لل	٨٣
Raymond of St. Gills	رايموند من سانت جل	٣٩
Reginald of Châtillon	رجينالد دي شاتيون	٥٤
Roderick	رودريك	٢٠
Rafaniya	رفينة	٢٢
Robert Guiscard	روبرت جويسكارد	١٥٦
Robert Cart-Hose	روبرت كيرتهوز	٤٧
Robertus Anglicus	روبرتس انجليكس	٢١٠
Rhodes	رودس	١٨١
St. Romanus	رومانوس (القديس)	١٤٠
Richelieu	ديشيليه (كاردينال)	١٠٦
Peinaud III	رينود الثالث	١٧٨

« ز »

Zaccharias	زكارياس	١٦
Zallaca	زلاكا	٣٨
Zangi	زنكى	٥٨
Zwornik	زوورنك	١٣٤

« س »

Sabas	سابا	٢٥
St. Bernard	سان برنار	١٦٣
San Marco	سان مارك	٧١
St. Sophia	سانت صوفيا	١٤٧
Santa Crus	سانت كروز	١٤٢
Sardinia	ساردينيا	١٥٨
Seleph	سالف (نهر)	٦٨
Septimer	سبتمبر	١٦٣
Ceuta	سبتنه (تيوتنه)	٢٢٣
Strabo	سترابو	٢٢٢

رقم الصفحة
في الترجمة

الكلمة العربية

المرادف باللغة الأجنبية

Styria	ستيريا	١٣٤
Szegedin	سجدين	١٠٢
Siddhanta	سدھنتا	٢٠١
Saragossa	سراجوتا	٢٧
Sergius	سرجيوس	١٦
Soffronius	سفرونين	١٨
Scanderbeg	سكاندريج	١٣٧
Sultaniya	سلتانيا	٨٨
Solidus	سليوس	١٥٦
Samarqand	سمرقند	١٣
St Simeon Stylites	سمعان العمودي	٣٠
Sigismund	سيجسمند	٩٤
Sgurd	سيجورد	٥٦
Syrmia	سيرميا	١٣٤
Sis	سيس	١٢٤
Cesarini	سيسارينى	١٠٢
Pope Sylvester II	سيلفستر الثانى (البابا)	٢١٠
Cilicia	سيليسيا	١٦
Simon de Montfort	سيمون دى مونتفورت	٧٠

((ش))

Chalon-sur-Saône	شالون سير ساوون	١٠٢
Shahpur	شاهبور	١٥
Chanson des Chétifs	شتيف (أغاني شتيف)	٢٣٥
Charlemagne	شرلمان	٢٥
Shahravaz	شهرواز	١٧
Cherbourg	شيربورج	١٩٠
Shirkuh	شيركون	٦٢
Shayzar	شيرزر	٢٢
Shishman	شيشمان	٩٢

((ص))

Serbia	صربيا	١٠١
Saladin	صلاح الدين	٦٥

المرادف باللغة الأجنبية	الكلمة العربية	رقم الصفحة في الترجمة
Peace of Callias	صلح كالييه	١٣
Albigensian Crusade	صليبية البي	١٠٨
Safouriya	صفورية	٦٦
Sicily	صقلية	٢٧
Swabia	صوابيا	٣١
Sidon	صيدا	٧٦
« ط »		
Tiberias	طبرية	٦٦
Trebizond	طرابيزون (تربيزوند)	٤١
Tripoli	طرابلس	٢٢
Tarsus	طرسوس	١٢٤
Tortosa	طرطوس	٢٢
Toledo	طليطه	٢٧
« ع »		
Jesu Haly	على بن عيسى	٢٢٨
Anazarb	عين زربه (أنازارب)	١٢٥
« غ »		
Galepoli	غاليبولي	٩٢
« ف »		
Famagusta	فاماغيوستا (ماغوصة)	١٢٧
Francesco Condolmiere	فرانسيسكو كوندلميري	١٠٢
Franconia	فرانكونيا	٣٦
Hospitallers of St. John	فرسان القديس يوحنا	٣٤
Froissart	فرواسارت	٩٥
Frisian	فريسيان	٧٤
Flanders	فلاندرز	٣٩
Florence	فلورنسا	١٠٠
Florin	فلورين	٩٧
Felix	فليكس	٢٦

المترادف باللغة الأجنبية	الكلمة العربية	رقم الصفحة في الترجمة
Fortmund	فورتمند	٣٠
Phocas	فوكس	١٥
Fulcher	فولتشر	٤٧
Fulcher de Charters	فولتشر دي تشارز	١٠
Fulk of Anjou	فولك الخامس	٥٨
Fulk of Nerxa	فولك من نركسا	٣٣
Folkmar	فولكمار	٤٦
Philip I	فليب الأول	٤٧
Philip Augustus	فيليب أوغسطس	٧٢
Philip d'Artois	فيليب دي ارتوا	٩٧
Philip de Mézières	فيليب دي ميزير	١١
Varna	فارنه	١٣٧
Valrian	فالريان	١٤
Vasco da Gama	فاسكو دي جاما	١٩٣
Vorcelli	فرسيللي	٢٥
Vermandois	فرماندوا	٣٩
Würzburg	فورزبرج	٧٠
Vézelay	فيزلاي	٥٩
Villehardouin	فيلهاردون	٧١

« ق »

Carthage	قرطجنه	١٦
Cordova	قرطبه	٢٤
Caspian	قزوين (بحر)	٢٧
Constantine XI Dragases	قسطنطين دراجاسيس	١٣٧
Castile	الحادي عشر	٣٧
Castellorizzo	قشتالة	١٣٠
Fort of Toros	قشتيل الراج	(كاستلوريزو)
Château Gaillard	قلعة تورون	٧٠
Rumeli-Hissar	قلعة جيلارد	١١٢
Qonia	قلعة روميل حصار	١٣٧
Qilij Arslan	قونية	٦٨
	قيلج ارسلان	٤٨

في الترجمة
الكلمة العربية
المرادف باللغة الأجنبية
رقم الصفحة

« ك »

St. Catherine	كاترين (سانت)	٢٩
Cadmus	كادماس	٦٠
Castellorizo	كاستلوريزو (قشتيل الروج)	١٣٠
Caffa	كافا	٩٦
Calabria	كالابريا	٦٠
Pope Calixtus III	كالكستس الثالث (البابا)	١٩١
Callinicus	كالينيكس	٢٠
Kanizsay	كانيزساي	٩٣
Kabul	كابول	١٣
Catalonia	كتالونيا	١٥٩
Croatia	كرواتيا	١٠٥
Khosroes Parviz	كسرى برزويه	١٥
Clermont-Ferrand	كليرمونت فيراند	٣٦
Corinth	كورنثيا	١٤٢
Corsica	كورسيكا	١٥٨
Cyrus	كورثس (المقوقس)	٢٠
Kosovo-Polye	كوسوفو بولاي	١٠٣
Compostella	كومبوستلا	٣٢
Constance	كونستانس	٣١
Conigliera	كونيجلييرا	٩٣
Köhler	كوهلر	١٢٣
Kherokitia	كيروكيتيا	١٢٧

« ل »

Lajazzo	لاجازو (اياس)	١٢٦
Lajin	لاجين	١٧٢
Ladislav	لاديسلاس	١٠١
Lazarovitch	لازاروفيتش	٩٥
Lantfrid	لانترفريد	٢٤
Lancaster	لانكستر	٩٥
Lahore	لاهور	١٣
Lepanto	لبانتو	١٠٦

المرادف باللغة الأجنبية	الكلمة العربية	في الترجمة رقم الصفحة
Larnaca	لرناكا	١٢٧
Lübeck	لوبك	١٥٩
Lotharingia	لوثرنجيا	٤٦
Lucas Notaras	لوكانس نوتارس	١٣٨
Locris	لوكرس	١٣٤
Livonia	ليفونيا	١٣٤
Leo III	ليو الثالث	٢٥
Liege	لييج	١٦٣

« م »

Martin V	مارتن الخامس	١٧٢
Martin Alphonse	مارتن القونس	١٠٢
Marino Sanudo	مارينو سانودو	٨٦
Marcellinus	مارسيلينوس	٣١
Maastricht	ماسترخت	١٦٣
Massisa	ماسيسا	١٢٤
Famagusta	ماغوصة (فاماغيوستا)	١٢٧
Manzikert	مالزكرو (مانزيكرت)	٣٥
Mancusi	مانكوس	١٥٤
Manuel II Palaeologus	مانيول الثاني بلايلوجوس	٨١
Manuel Comnenus	مانيول كومنينس	٦٥
Medina-Sidonia	مدينا سيدونيا	٢٠
Marmora Sea	مرمره (بحر مرمره)	٩
Marsivan	مرسيفان	٥٦
Marw	مرو	١٩
Mesopotamia	مسيبوتاميا (أرض ما بين النهرين)	١٥
Maldives	ملديف	٢٢٢
Athleta Christi	مناضل	٨١
Hierapolis .	منبيج (هيرابوليس)	١٧
Moab	موآب	٥٤
Maurizio Cattanio	موريزيو كاتانيو	١٤٨
Meuse	موز (نهر)	١٦٣
Moldavia	مولدافيا	١٠٥

المترادف باللغة الأجنبية	الكلمة العربية	رقم الصفحة في الترجمة
Mohacs	موهاكس	١٤٣
Mont-Cénis	مونت سينى	١٦٣
Montier-en-Der	مونتييه اندير	٣٢
Montréal	مونريال	٦٤
Miguel Asin Palacios	ميميول آسن بلاسيوس	٢٣٦
Mercia	ميرشيا	١٥٧
Michael Scot	ميشيل سكوت	٢١٠
Museon	ميوسيون	٢٠٠
Mainz	مينز	٣٣
Majorca	ميورقه	٨٤

((ن))

Navarre	نافار	٣٧
Namur	نامور	١٦٣
Negropontis	نجروپونتس	٨٩
Nicephoras Phocas	نسينورس فوكس	٢١
Nisibis	نصيبين	١٥
The Order of the Sword	نظام السيف (جماعة دين)	١٠٩
Orontes	نهر الكلب	٢١
Saleph	نهر سالف	٦٨
Nuremberg	نورمبرج	٩٧
Nomisma	نومسما	١٥١
Nicetas Choniates	نيستاس ثونيئاتس	٧١
Nish	نيش	١٠٢
Nicopolis	نيكوبوليس	٩٦
Nicholas V	نيكولاس الخامس (البابا)	١٩١
Nicholas Oresme	نيكولاس أورزم	١٧٨
Nineveh	نيونوى	١٧

((ه))

Hamburg	هامبرج	١٥٩
Heraclius	هرقل	١٦
Heraclia	هرقلييا	٥٦

المرادف باللغة الأجنبية	الكلمة العربية	رقم الصفحة في الترجمة
Herman of Dalmatia	هرمان من دالماتيا	٢١٠
Hermannstadt	هرمانستد	١٠١
Heron	هرن	٢١٣
Hulagu	هولاكو	٧٨
Humbert II	همبرت الثاني	٨٩
Hunyadi	هينياى	١٠١
Hulagu Khan	هولاكو خان	٢٤٣
Honorius III	هونوريوس الثالث	٥٥
Huy	هى	١٦٣
Hippo	هيو	٢٨
Hierapolis	هيرابوليس (منبج)	١٧
Hugh the Iron	هيو الحديدى	٧٣
Hugh de Payens	هيو دى باينس	٥٤
Hainault	هينو	٩٢

« و »

Wasit	واسط	١٨
Widdin	ودن	٩٥
Wallachia	ولاشيا	٩٥
William of Tyre	وليم الصورى	١٦
William Rufus	وليم روفس	٣٧

« ي »

Yazdagird III	يزدجرد الثالث	١٩
Josaphat	يهو شافاط	٢٦
Udine	يودين	٨٧

هذا الكتاب :

يدرس فترة هامة من تاريخ الشرق ليثبت أن
هناك أسبابا للحروب بين الشرق والغرب مازالت
تؤثر على العلاقة بينهما حتى عصرنا الحاضر
والكتاب من أبرز علماء التاريخ في العالم الدكتور
عزیز سوربال عطية (١٩١٤ - ١٩٨٨) وهو
أحد مؤسسي جامعة الاسكندرية كما رأس قسم
التاريخ بكلية الآداب بها حتى عام ١٩٥٤ .
وقد أسس مركز دراسات الشرق الأوسط
بجامعة يوتا بأمريكا .

صدر هذا الكتاب باللغة الانجليزية ، وطبع
خمس طبعات كما ترجم إلى معظم اللغات الحية .



To: www.al-mostafa.com